هدية المعرفة

في التربية والتعليم

تأليف

أحمد فهمي العمروسي بك

مدير معهد التربية سابقاً

[عنيت بطبعه وتصحيحه مجلة المعرفة]

الطبعة الأولى

١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م

الثمن ٤٠ مصرياً

مطبعة المعرفة

رقم ٤ شارع عبدالعزيز بالقاهرة

هدية المعرفة

في التربية والتعليم

تأليف

احمد فهمي العمروسي بك

مدير معهد التربية سابقاً

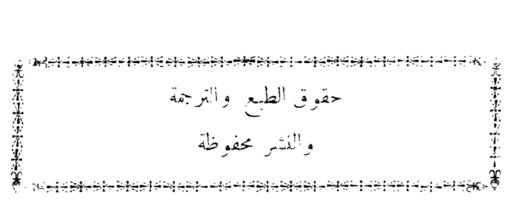
[عنيت بطبعه وتصحيحه مجلة المعرفه]

الطبعة الأولى

١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م

مطبعة المعرفه

رقم ٤ شارع عبدالعزيز بالقاهرة



فهرس

الموضوع	الصحيفة

أهم المسائل في مصر مسألة التربية والتعليم ، فلو أن كل مصري وضع في تشييدهما لبنة ، لأقمنا للوطن صرحاً يبقى ما بقي الزمان .

هذه هي الحكمة البالغة التي كان لي شرف سماعها من حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم أحمد فؤاد الأول . حين تشرفت بالمثول بين يدي جلالته يوم الأربعاء ١٥ محرم سنة ١٣٥٢ — ١٠ مايو سنة ١٩٣٣ م

أحمد فهمي العمروسي



حضرة صاحب الجلالة " أحمد فؤاد الأول "

ملك مصـــر

الى

عنوان مجد مصر الخالدة . ورمز أمانيها الصادقة . وفخر شبابها الناهض . حضرة صاحب السمو الملكى الأمير فاروق : أتشرف بإهداء هذا الكتاب ؟

أحمد فهمى العمروسى



حضرة صاحب السمو الملكى "الأمير فاروق"

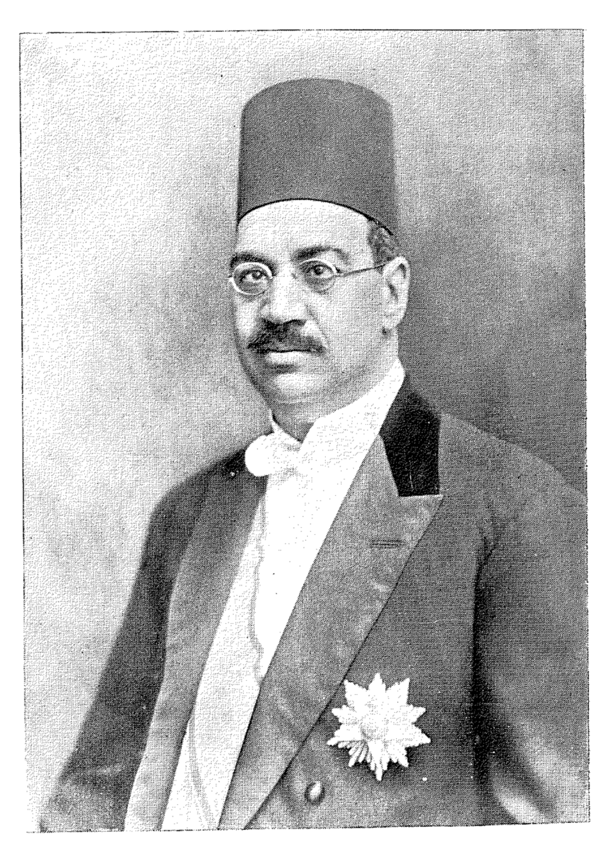
ولى عهد المملكة المصرية

« أيها الطلبة !

اذكروا دائماً رسالة المعلم في الحياة، تلك الرسالة ستضطلعون بأعبائها قريباً، وأنها رسالة روحية لا تؤدى إلا بالإخلاص في العمل مع التزود من العلم والتمسك بالفضيلة، وقدروا عملكم في تربية الناشئة قدره، واصعدوا بها إلى ذروة الكمال، فمستقبل الأجيال القادمة في ذمتكم ».

محمد حلمي عيسى

من كلمة بليغة ألقاها معاليه على طلبة مدرسة دار العلوم في يوم ٨ مارس سنة ١٩٣٢ عن مهنة التدريس ورسالة المدرس .



حضرة صاحب المعالى "محمد حلمى عيسى باشا"

وزير المعارف العمومية

إن نجاح التربية والتعليم منوط باختيار مواد الدروس ، واستخدام خير أساليب التدريس، والعمل على التوفيق بينها وبين مدارك المتعلمين.

وإن من العبث وإضاعة الوقت والقضاء على جهود المعلمين والمتعلمين ، أن يقدم إليهم غذاء لا تُطيقه نفوسهم ولا تُسيغه عقولهم .

جاء فى الحديث الشريف :

« إنا معاشر الأَنبياء أُمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم »

فإلى كل من يتولى شئون التربية والتعليم ـ صغيراً كان أم كبيراً ـ أوجه كلمتي هذه ، راجياً أن تؤتى التربية أطيب ثمارها ، وأن يصل التعليم إلى أنبل غاياته، حتى يتحقق ما نرجوه لمصر من الرفعة والرقى ؟

المؤلف



حضرة صاحب العزة " احمد فهمي العمروسي بك "

مدير معهد التربية سابقا



مقدمة

واجب على كل ذى مقالة أن يبتدىء بالحمد قبل استفتاحها ، كما بدىء بالنعمة قبل استحقاقها .

سهل بن هارون

وبعد ، فإن هذا الكتاب الذى نهديه اليوم إلى قراء « المعرفة » جزلين فخورين ، لا نستطيع إيفاءه حقه من التنويه والإطراء ، لأنا إذ نحاول ذلك إنما نحاول مستحيلا ؛ فلا أوجب هنا من الاعتراف بالعجز ، والإقرار بالتقصير .

إن من الذهاب بالنفس مذاهب الخدعة والغرور ، أن يدعى مثلى أنه مستطيع تقدمة رجل هو أستاذ أساتذته ومربى مدرسيه ومعلميه من قبل ، فحسب التلميذ الصغير براً بأستاذه الأكبر إقراره بهذه الشهادة ، راضياً مغتبطاً .

وحسبه أن يقدم الكتاب بأنه كتاب « العمروسى » وكفى ، كتاب الرجل الذى لا نتردد فى الحكم ، ولا نتحرج من القول ، بأنه مربى الجيل الحاضر ؛ وآية ذلك هؤلاء الأعلام الذين يتصدرون دور القضاء والسياسة والإدارة، ويلون شئون التربية والتعليم ، ممن تخرجوا على يديه ، وتأدبوا بأدبه .

وقديماً قيل «خير الناس أنفعهم للناس»، فلو أردنا أن نستقصى أنفع وجوه الخير، وخير وجوه النفع، ماترددنا فى الحكم بأن خير الناس وأنفعهم، هو ذلك الذى يقيم صرحاً علمياً، ويبنى مجداً خلقياً ؛ ذلك بأن صوت العلم مرتفع أبداً، لاتقف سبيله عند حد، ولا ينتهى إلى غاية ، وإنما سبيله طلب الكمال ، ونشدان القدسية ، فإذا وجب له التقديس من جهة الحقائق التى يكشف عنها ويمهد لنا طريقها، فإن تقديس العاملين على رفعته ألزم وأوجب ، لأن العلم وسيلتنا إلى الحياة الكاملة ، والرقى المنشود ؛ وإذاً تكون خير وجوه النفع خدمة العلم ، وتكون خير يد تستحق الشكر ، تلك اليد التى تضع فى أسسه دعامة وفى بنائه لبنة .

ثم لاننسى أن نهضتنا العلمية المصرية لم يكن لها قبل هذا القرن كيان يدل عليها أو يشير إليها . وإنما كانت أشبه ببناء يتداعى، الناس من حوله لايعبئون، حتى أزهرت الثقافة، وآتى العلم ثماره ، فأتاح الله لمصر فئة من أبنائها ، نبغت فى آخر القرن التاسع عشر ، فبعثت نور العلم والعرفان فى أرجاء البلد وأذهان أبنائه ، وكان من صفوة هؤلاء النابغين « أحمد فهمى العمروسى » الذى امتاز بين زملائه وأنداده من رجال التربية والتعليم ، بأنه كان يساير العصر الحاضر ، ويبعث فى البلد روح النهضة العلمية الحديثة . وذلك بالتوفيق بين المدنيتين العربية والغربية توفيقاً حكيماً ، وتوجيه الأفكار توجيهاً علمياً قويماً، يستخلص منه أرقى القواعد وأحدث الأنظمة وأدق الوسائل لتحقيق خطوات النهضة المباركة .

ثم امتاز بين غيره من أولئك الذين قصرت ثقافتهم على الثقافة العربية ، ومن هؤلاء الذين جمعوا بين الثقافتين ، بأنه كان المصرى البليغ الذى يلبس الأسلوب الغربى الثوب العربى المحكم ، بعد إذ يزاوجهما مزاوجة لاتحس منهاعجمة ولا تستشعر فيهانفرة.

وأنت مستطيع أن تدرك ذلك كله، وأن تدرك ـ إلى ذلك أيضاً ـ مبلغ إخلاص الرجل لعلمه وعمله، لو وقفت على شيء من سيرته التي نوجزها لك فى هذه السطور إيجازاً ، وثوقاً منا بأن خير مرب للمرء وقوفه على ماقدمه رجال الأمة من خدمات لها ، وما ذللوا من صعاب وتغلبوا على عقبات فى سبيل النهوض بها ؛ هذا إلى ما فى تاريخهم من مثال عال يحتذى، وقدوة حسنة تقتدى ، فيكون ذلك للنشء مرشداً أميناً ، وقائداً حكيماً .

وفى ذلك يقول الأستاذ العمروسى نفسه : « لا شيء ينفذ إلى قلوب النشء وينمى فيهم الأخلاق العالية والفضائل السامية؛ مثل أن يعدل المربى فى حكمه على حوادث بلاده وتاريخ كبار رجال أمته، وأن يجهر بالحقائق ممحصة مجردة من شوائب الهوى وأدناس الغرض؛ فبذلك وحده تنبت بذور الأنظمة والأخلاق ، وتنمو جذورها فى الأمم » .

***

فى عام ١٨٨٨ نال الطالب «أحمد فهمى العمروسى» شهادة البكالوريا ، ثم التحق بمدرسة المعلمين التوفيقية ، حتى تخرج فيها أول الناجحين فى الدبلوم عام ١٨٩١ م ، ومن ثم عين مدرساً بالمدرسة ذاتها . وفى عام ١٨٩٤ وقع اختيار وزارة المعارف عليه عضواً لبعثتها لدراسة العلوم الرياضية

والطبيعية فى مدرسة (سانكلو) العليا بفرنسا ، فنال شهادتها فى عام ١٨٩٧ ، ثم عاد إلى مصر مدرساً للقسم العالى من مدرسة المعلمين التوفيقية ، على أنه لم يقتصر على ما حصل عليه من شهادات علمية ، بل توجهت نفسه إلى دراسة الحقوق ، وما لبث أن أكب على دراستها مبتدئاً من عام ١٩٠١ حتى عام ١٩٠٣ ، حيث حصل على الليسانس فى الحقوق من كلية باريس ، وفى عام ١٩٠٤ عرض عليه المرحوم «عبد الخالق ثروت باشا» منصباً رفيعاً فى القضاء ، إلا أن وزارة المعارف تمسكت به ؛ وقد قال فى ذلك المعنى فى حديث له نشر بمجلة الهلال الغراء فى عدد مايو سنة ١٩٣٠ ما يأتى :

«لقد تعلمت أن أكون أميناً على العلم ، صادقاً فى صناعة التدريس والتعليم التى أعددت نفسى لها، وما أزال مغتبطاً بها ، مفضلا لها على ما عداها . وقد أتيحت لى فرص كثيرة للعمل فى القضاء الأهلى وفى الإدارات الكبيرة ، ولكنى لم أسع لها سعيها وإن كثر فيها المال واتسع الرزق، لأنى وجدت نفسى شغوفة بالتدريس والتعليم ، ووجدته أشرف وأنبل عمل يقوم به الانسان لنفع نفسه ونفع أمته » .

وفى سنة ١٩٠٨ اختاره المرحوم سعد زغلول باشا (وقت كان ناظراً للمعارف العمومية) مفتشاً بالنظارة مع قيامه بأعمال سكرتير فنى له علاوة على وظيفته المذكورة ، وكان مع هذا يقوم بتدريس التاريخ الطبيعى والكيمياء والطبيعة فى مدرستى القضاء الشرعى ودار العلوم، فأدى ذلك كله خير أداء ، وقد أسف أساتذة دار العلوم فى ذلك الوقت لنقله من المدرسة وإن سروا بترقيته ، فكتبوا إليه هذا الكتاب الذى عثرنا عليه فى صحيفة



الاستاذ عبد العزيز مصطفى الاسلامبولى

صاحب مجلة « المعرفة »

دار العلوم (العدد الأول، الصادر بتاريخ ١٦ ابريل سنة ١٩٠٩ ، ص ٥٠) ، وهذا نصه :

حضرة المفضال

لئن كان للمعروف أثر فى امتلاك القلوب ، وللإحسان سبيل إلى استحقاق الشكر ، لقد كان منك إلينا ماجعل قلوبنا طوع محبتك ، ورهن مودتك ، ومنك إلى الطلبة ماجعلهم فى أعينهم نتائج صنعك ، وصنائع فضلك ، وفى أعين الملأ صحائف لتخليد الثناء عليك ، ونماذج لأياديك البيضاء فى خدمة العلم وأهله ؛ وإننا وإن حرمنا منك شريكا فى الصناعة،ورفيقاً فى حسن العشرة ، لن نعدم منك عضداً فى المهم ، وأهلا للإفادة ، ولم تنتقل عن الفرع نعمة ذهبت إلى الأصل . وإن ماخلفته بيننا من آثار خلالك ، وجليل فعالك، لأحسن ذكرى تأبى عن الدهر على حل عقدها ، فلا نحسب ابتعادك عن أشخاصنا إلا اقتراباً من قلوبنا .

هـذا وإن الصحف المجيدة التى أضفتها إلى تاريخ مدرسة المعلمين الناصرية ، لتحفظ لك أحمد أثر ،واطيب ذكرى تكوين نهضتها المباركة ، وتشييد صرحها المتين ، وضمان سيرها فى الطريق التى يتمناها لها كل محب للعلم ونشره؛ فالمدرسة إذا أسفت لفراقك، فإن لها بعض السلوة أن كانت فى ماضيها بستاناً لكريم غراسك ، ومجازاً لإذاعة فضلك، وتهيئة رقيك، وأن تكون فى مستقبلها مترقبة لمساعدات عديدة تؤديها إليها فى عملك الجديد .

وهى تقدم إليك هذا الخطاب تذكاراً لأعمالك العظيمة فيها ، وإظهاراً لحسن ولائها لك . هيأ الله لك ما ترجوه ، وحفظك لأمتك الفقيرة من أمثالك، وتفع بك حيثما حللت ، وأينما يممت ... والسلام »

وفى سنة ١٩٠٩ عين وكيلاً لدار العلوم ، فابتدأ عمله فيها بإلقاء محاضرات عامة فى التربية والتعليم على جمهور المربين والمدرسين فى ذلك الوقت، كانت فاتحة لما تلاها من محاضرات فى التربية والتعليم كما قال المرحوم الأستاذ « عاطف باشا بركات » ، والأستاذ « أحمد بك العوامرى » كبير مفتشى اللغة العربية الآن، الذى قال فى نفس صحيفة دار العلوم عام ١٩٠٩ ،حينما

حذا حذو الأستاذ العمروسى: «لقد كان لسعادة أحمد بك فهمى فضل السبق فى طرق باب الخطابة فى موضوعات التربية والتعليم، وها نحن نحذو حذوه»

ثم عين ناظراً لمدرستى المحاسبة والتجارة العليا والمتوسطة، فمفتشاً للبعثة العلمية المصرية فى فرنسا؛ فمديراً لها فيما بعد، فعضواً فى مجلس النواب الأول، ثم أعيد للخدمة فكان مديراً للمكتب الفنى، فناظراً لمدرسة المعلمين العليا العلمية والأدبية، ثم مديراً لمعهد التربية.

***

وبعد فإنى لسعيد أن يكون هذا الإيجاز الذى قدمته لحياة الرجل خير مرشد للقارىء، وأنصع برهان فيما نتقدم به إلى قراء «المعرفة» من عمل، أقل مايوصف به أنه لم يسبق إليه فى نوعه لرجل لم يضيع حياته هباء، ولم يخلد إلى الراحة والسكون، بل دأب طوال حياته عاملا على خدمة العلم ورفعة الوطن.

فالله وحده كفيل بأن يجزيه عن عمله هذا خير الجزاء، والله نسأل أن يكثر من أمثاله العاملين فى سبيل العلم والوطن.

إنه وحده بتحقيق الرجاء كفيل م؟

عبد العزيز الإسلامبولى

أثر الاشغال اليدوية
فى التربية والتعليم

أثر الاشغال اليدوية
فى التربية والتعليم*

حضرة صاحب المعالى وزير المعارف ! أيها السيدات والسادة :

أرجو أن تسمحوا لى بأن أقدم لحضراتكم الشكر الخالص لتفضلكم بالحضور لمشاهدة منتجات بعض طلاب هذه المدرسة فى الأعمال اليدوية هذا العام .

إن الذى دعانا لإقامة هذا المعرض هو التنويه بفن الأشغال اليدوية والإشادة بالمزايا الجليلة التى تعود منه على التربية من جميع نواحيها .

فأثر الأشغال اليدوية فى نمو الجسم وتحسين الصحة ـ أعنى فى التربية البدنية ـ واضح لا يحتاج إلى شرح .

وكذلك الحال فى التربية العملية، فإنها تبث فى النابتة روح الملاحظة والتأمل الدقيق، وتحفزهم إلى الاستنباط والابتكار .

وأما فى التربية الخلقية، فإنها تغرس فى نفوس النشء بذور الفضائل التى يجب أن تتوافر فى كل فرد يريد الفوز فى معترك الحياة، وهى الأناة والصبر والثبات والإرادة والتنفيذ .

كذلك فى التربية الذوقية أو الجمالية، فإن للأشغال اليدوية دخلاً فى إنماء سلامة الذوق وإدراك الجمال فى كثير من نواحيه .

---

* ألقيت هذه الكلمة بمدرسة المعلمين العليا يوم ١٦ ابريل ١٩٣٠، بمناسبة افتتاح معرض الأشغال اليدوية لطلبة تلك المدرسة .

وقد عنى «الفنانون» فى البلاد الراقية بتصوير علاقة العمل بتهذيب الأخلاق ؛ أذكر من بينهم (هوجارث) الفنان الانجليزى، فإنه رسم لوحة شهيرة فى المتاحف بعنوان الجد والخمول،[1] صور فيها عاملين : أحدهما فتى نشيط حسن الهيئة مجتهد مقتصد، والآخر خامل كسول ملقى فى أحضان البطالة مستسلم لغوايات الفراغ .

وإن لدرس الأعمال اليدوية ميزة لا توجد فى غيره من الدروس فى مدارسنا ؛ ذلك أنه الدرس الوحيد الذى يسترد الطلبة فيه شيئاً من الحرية فى العمل والاستقلال فى الفكر ، ويتحررون من نير الكتب واستعباد المذكرات المهيأة الجاهزة ، التى كثيراً ما تثنى عزمهم عن البحث والدرس والاستقصاء ، وقد يستغنون بها حتى عن سماع الدروس ذاتها .

وإذاً فأين هى التربية الاستقلالية التى ننشدها لأبنائنا، والتى تحتم علينا أخذهم بالثقة بالنفس، والاعتداد بالذات، والاعتماد على الجهود الشخصية؟

***

إن العلم الصحيح الحى الطريف ليس فى الكتب ولا فى المذكرات؛ وإنما هو فى الحياة نفسها ، وفى التجربة والمعالجة ؛ أما ذلك العلم المعبد المذلل الذى يصب فى الأذهان قسراً، ويحشر فيها حشراً ؛ دون أن يكون للطالب فيه أثر — اللهم إلا الاستماع إن صح أنه أثر — فعلم عقيم لا يثقف العقول، ولا يهذب النفوس، ولا يعد للمغامرة فى الحياة ، على أنه علم قلق لا يستقر فى الأذهان إلا ريثما ينقضي الامتحان .

(1) The Effect of Industry and Ideeness

إن الـكتب مفيدة إذا جاءت متممة عمل الشخص نفسه للمراجعة والتحقيق والاستزادة ، أما هي وحدها فلا طائل تحتها ولا خير فيها .

يقول مستر بلاكى الأستاذ بجامعة أدنبرة فى هذا الصدد :

«إن مثل من يعتقد أن الـكتب هى كل شىء فى التعليم، مثل من يعتقد أن الماء هو كل شىء فى الزراعة ، وماذا يغنى الماء إذا نزل بأرض لم يشقها محراث ولم تقلبها فاس؟»

أقول ذلك عن الـكتب ، وأقوله عن تجربة ويقين بعد خبرتى الطويلة بشئون التربية والتعليم والسياحات العديدة التى قمت بها فى السنوات الأخيرة في بلاد المغرب الأقصى والجزائر والشام وفلسطين وغيرها ؛ فإنى رأيت فرقاً هائلاً بين ما علمته عن هذه البلاد بالمشاهدة والملابسة، وبين ما كان عالقاً بذهنى عنها من كتب الجغرافيا ومصوراتها ومذكراتها، وعلمت من ذلك الحين أن لا شىء أجدى على التربية والتعليم من استخدام الحواس ـ كلها أو جلها ـ لتوصيل المعلومات إلى الذهن وتغلغلها فى النفس .

لذلك أود من صميم الفؤاد لو يتمتع الطلبة فى سائر الدروس بمثل ما يتمتعون به فى دروس الأعمال اليدوية من حرية فى التفكير ، واستقلال فى العمل، وبذل منتهى الجهد فى استخدام كل ما أوتوا من قوى ومواهب وملكات ومنطق وحذق لإبراز المعانى المجردة فى أشكال محسة شائقة .

وقد وصلت إلى هذه الغاية السامية بالفعل الأمم التى تقدمتنا فى مضمار التربية والتعليم ، ولاسيما أمريكا فقد أنشأت لـكل مادة متحفاً ، حتى

« الإنشاء » فإنه خرج عندهم من عالم الخيال البحت إلى عالم المحسات والحقائق، وقد فكرت وزارة المعارف من بضع سنوات فى احتذاء هذه الأمم الراقية، وخطت فى اليدويات خطوة مباركة، نرجو أن تتلوها خطوات واسعة حتى تتبوأ المكان اللائق بها فى مدارسنا على اختلاف درجاتها.(١)

---

(١) أذكر أنى كنت منذ ثلاث سنوات عضواً فى لجنة شكلت بوزارة المعارف لتنقيح مناهج التعليم الأولى ، فاقترحت على اللجنة إدخال الأعمال اليدوية ضمن مقررات ذلك التعليم، لاعتقادى الراسخ أنها المادة التى توافق طبيعة الأطفال وحاجتهم إلى النشاط والحركة، والتى تحفزهم إلى النظر والتأمل والمراقبة مما له جليل الأثر فى تربية الحواس وترقية المشاعر ، على أنها تمرينات هندسية عملية تقرب إلى أذهانهم — فى أشكال محسة ملموسة — تصور هندسة البعد الواحد فى الأطوال ، والبعدين فى المساحات، والثلاثة فى الأحجام . فلم يكن للأعضاء من اعتراض على اقتراحى سوى أن تحقيقه يستدعى نفقات باهظة لا قبل لخزانة الدولة بها.

فأردت أن أقف على مقدار تلك النفقات بالضبط ، فكلفتنى اللجنة إجراء مايلزم من التجارب فى بعض المدارس الإلزامية للوصول إلى ذلك الغرض، فاخترت مدرساً من كبار مدرسى مادة الأعمال اليدوية ، هو حضرة محمد شفيق أفندى الجنيدى مدرس الأشغال اليدوية بمعهد التربية ، وقام بتدريس تلك المادة شهوراً تحت إشرافى ، فوصلنا إلى نتيجة مدهشة ؛ هى أن تدريس تلك المادة لا يكلف خزانة الدولة أكثر من جنيهين فى العام لكل مدرسة من تلك المدارس بما فى ذلك الأصناف المستهلكة المستديمة .

فإذا كانت لدى أمنية أتوجه بها إلى حضرة صاحب المعالى «محمد حلمى عيسى باشا» وزير المعارف العمومية، فهى إدخال الأشغال اليدوية ضمن مواد التعليم الإلزامى منذ اليوم، ولى عظيم الرجاء فى أن يعير أمنيتى هذه ما هى جديرة به من العناية والاعتبار .

أهمية الرسم فى التربية والتعليم *

الدعامة الكبرى التى يقوم عليها صرح التربية والتعليم الآن فى أرقى دول العالم مدنية وحضارة، هى المشاهدة وإنعام النظر فى صفحة هذا الكون ، وإدراك ما فيها من ألغاز وأسرار وجمال ؛ ولا حاسة أصدق من حاسة الإبصار فى إيصال معلومات هذا الكون إلى المخ وانطباعها فى الذهن وتغلغل معانيها فى النفس، فهى الحاسة التى تربى فى النشء ملكات الملاحظة والاستنباط والابتكار ، إذا أخذناهم من الصغر بالنظر الدقيق العميق إلى الأشياء والحكم عليها حكما صحيحاً ، وهى التى تنقل مناظر الطبيعة الجميلة إلى المخ فتبعث فينا غبطة ومسرة ، حاجة النفوس إليهما لاتقل عن حاجتها إلى الطعام والشراب ؛ لأن فى الفرح والسرور قوة تنشط الإنسان وتحبب إليه العمل وتخفف عنه عبء الحياة .

وإذا كانت المناظر الطبيعية الجميلة تحدث فى النفس ذلك الفعل البالغ، فإن لرسمها وتصويرها لفعلاً أعظم وأبلغ، إذ ينبعث منهما مايشعر بعظمة الإنسان ومقدرته على محاكاة الطبيعة وتقليدهـا فى كلياتها وجزئياتها ؛ فالثور وهو واقف على الأرض ثور وثور فقط ، أما على الورق فهو فن وفن جميل .

وفوق ذلك قد تتجمل الطبيعة بالرسم، فقد يكون المنظر الطبيعى منظراً تستوحش منه العين وتنفر منه النفس ، فإذا ماتناولته يد صَنَاع،

(*) ألقيت هذه الكلمة فى الحفلة التى أقامها قسم الخدمة العامة بالجامعة الامريكية يوم الاربعاء ١٨ فبراير سنة ١٩٣٠ لتوزيع الجوائز على المتفوقين فى مسابقة الرسوم الرمزية للعناية بالعين، وقد نشرت بجريدة الأهرام بتاريخ ٢٢ فبراير ١٩٣٠ .

أخرجت منه صورة تسترعى العين وتستوقف التأمل ؛ فالثعبان تسر النفوس بصورته وتستوحش من رؤيته ..

والرسم أساس الفنون الجميلة على اختلاف أنواعها ، فأهم شىء فى عمارة البيت رسمه على الورق أولاً ، ورؤية صورته من جميع نواحيه ظلاً ومنظراً ، وما يقال عن العمارة يقال عن التصوير والنقش والنحت ... الخ

لهذا وذاك كان للرسم فى تربية الذوق ميزة كبيرة وأهمية عظيمة ، وإنه لجدير بمن يديم التأمل فى الطبيعة ونماذج الرسوم الجميلة ، أن يكتسب ملكة الحكم على الجمال وقوة الشعور بالحسن ؛ وما أحسن ما قاله الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله : «الرسم شعر صامت ، كما أن الشعر رسم ناطق» .

ويجدر بى أن أذكر لحضراتكم تلك الحكاية الطريفة التى جاءت فى القصص اليونانية القديمة عن نشأة الرسم والحاجة لاختراعه ؛ ذلك أن (بوتاد) اليونانى كانت له ابنة عزيزة عليه ، قد شغفت حباً بشاب من قومها ، وبعد فترة من الزمن اضطر إلى السفر ، فشق على الفتاة غياب حبيبها عنها ، فأخذت تفكر فيما تصنع وتحتال فى الوصول إلى ما يحفظ صورته لديها للائتناس بها مدة غيابه ، فرأته يوماً نائماً وظل وجهه ساقط على جدار قريب منه ، فنهضت وخططت هذا الظل على الجدار ، ولما جاء أبوها أعجب بهذه الفكرة ، ورأى أن يجعله بارزاً ففعل ، فكان (بوتاد) وابنته أول من اخترع الرسم العادى والبارز .

وإنى لمغتبط بالنتيجة الباهرة التى حصلت عليها مدرسة « المعلمين العليا الادبية » فى هذه المسابقة التى ابتكرها قسم الخدمة العامة بالجامعة الأمريكية .



مشكاة من زجاج مموه بالميناء على رقبتها آية النور « الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى ». وعلى بدنها كتابة نسخية منقوشة بين زخارف نباتية بيضاء ، وهذه الكتابة تتضمن اسم السلطان الملك الناصر حسن وبعض ألقابه (٧٦٤ ﻫ — ١٣٦٣ م)

الفنون الجميلة عند العرب

الفنون الجميلة عند العرب *

عقد المؤرخ الفرنسى (المسيو لوركيه) مقالاً مسهباً فى وصف مدنية العرب فى كتابه الحديث « الفن والتاريخ »[1] لا أريد أن أزيد كثيراً على ما جاء فيه ، وها هو ذا ملخصاً :

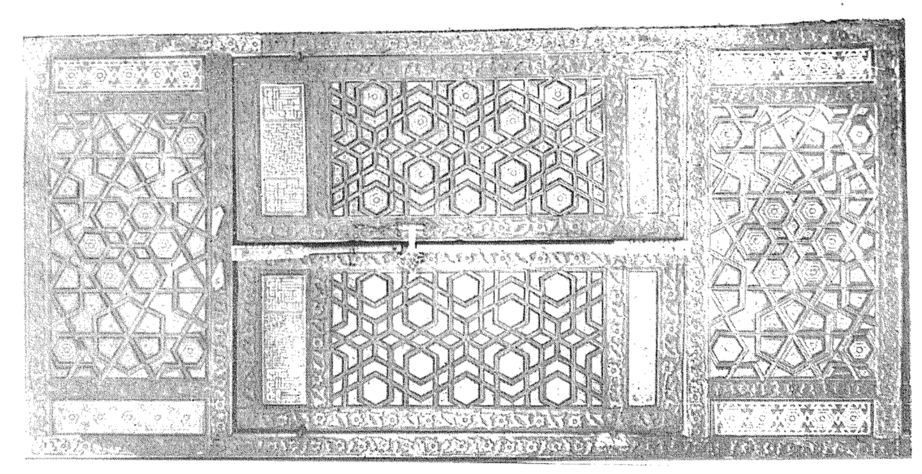
إن العرب قبل الإسلام كانوا على هامش الدنيا وفى خارج منطقة التمدن ، راضين من عيشتهم بأيسر الطعام وأهون اللباس ، ضاربين خيامهم حيث يختارون ، يقيمون ما طاب المقام ، ويرتحلون ما حسنت الرحلة ، ولم يكونوا ليشتغلوا بغير حروبهم الداخلية الطاحنة لكلمة تبدر أو هفوة تصدر ، بل كانوا يتغنون بأعمال فروسيتهم وبطولتهم ، فى نظم رائع ، وشعر ساحر ، يتدفق حكماً بالغة ، ويفيض أمثالا سائرة ؛ وهى عيشة ـ على قصورها ـ تنم عن روح مشتعلة ، وفكرة وقادة ، وبأس شديد ، وحماسة نادرة ، وبيان خلاب ؛ وتنبىء بأوجز عبارة عن أنهم كانوا أمة حرب وشعر .

وما كاد ينبلج فجر الإسلام حتى هبوا إلى الوحدة سراعاً تلبية لنداء النبي الأمى الذى ألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمة الله إخواناً . فلا غرو أن انتقلوا من البداوة إلى الحضارة فجأة ، ووضعوا قدمهم

---

* ألقيت هذه المحاضرة على ملأ من كبار رجال التعليم بمؤتمر التعليم الأولى المنعقد فى يوليو سنة ١٩٢٥ بمدينة القاهرة .

(١) L'art et l'Histoire par Lorquet



وجهة دولاب من خشب جمعية مطعم بالسن والصدف ، ومكفت بأسلاك من الذهب ، وهو أعجوبة من عجائب الفن الاسلامى منقطع النظير فى العالم ، ويرجع عهده إلى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى)
[من مجموعة متحف العمروسى بك بداره بمصر الجديدة]

فى تاريخ الإنسانية ثابتة ، وغيروا معالم الدنيا ، وحولوا وجهة التاريخ إليهم ، فكانوا ملوك الأمم وقادة الشعوب وورثة الأرض بما ارتجلوا من دولة مترامية الأطراف شاسعة الأكناف تمتد من نهر السند إلى المحيط الأطلانطى، ومن زنجبار إلى قلب فرنسا، وتلك دولة وسعت نحو نصف الدنيا القديمة ، حتى حُق لهرون الرشيد أن يقول لسحابة توقع أن تمطر بساحته، ولكنها تولت قبل أن تمطر: « أمطرى حيث شئت يأتنى خراجك » .

ورث العرب ـ فيما ورثوا عن الأمم التى دخلت فى حوزتهم ـ الفنون والصناعات ، وقد أخذوا يحذقونها ويبرعون فيها فى مدارس المورثين ، لأنه لم يكن فى استطاعتهم أن يرتجلوا فناً كما ارتجلوا لهم ملكاً ، ومع ذلك لم يمض الصدر الأول حتى نبغ منهم البناءون والحفارون والمصورون والنقاشون ، دون أن يروا فى شىء من ذلك مخالفة لنصوص كتابهم ، أومعارضة لشريعة نبيهم ، ولم يقفوا عند حد الحذق والبراعة ، بل تعدوه إلى التفنن والإبداع ، فنقحوا وصححوا، وحذفوا وأضافوا ، ثم اخترعوا وابتكروا ، حتى طبعوا تلك الفنون بالطابع العربى ، وصبغوها بالصبغة الإسلامية، حرصاً على شخصيتهم أن تفنى ، وعلى نبوغهم وعبقريتهم أن يذهبا ، فأصبحت الروح العربية حيث تكون بارزة واضحة ، يندمج فيها غيرها ، ولا تندمج فى شىء؛ ولهذا خلقت لنفسها فناً يوافق ذوقها ويتمشى مع طبعها ، وسرعان ما انتشر فى أرجاء تلك المملكة الواسعة انتشار الكهرباء .

نعم قد خضعت الفنون الإسلامية ـ إلى حد ما ـ لنواميس الطبيعة المحلية، فاصطبغت فى كل قطر بصبغته الخاصة، ولكنها كانت فى كل أحوالها ـ من أندلسى ومغربى وصقلى ومصرى وسورى وعراقى وفارسى وهندى ومغولى ـ إسلامية أصيلة كريمة نبيلة، تنطق بما للإسلام من إباء ونجدة وشهامة ونخوة.

ولقد برع العرب فى سائر ضروب الصناعات، فشادوا البنيان الفخم من مواد أتقنوا صناعتها؛ كالحجر والرخام المحفور أو المنقوش والخشب المنجور، وزوقوا باطن أبنيتهم بالرسوم والصور الشائقة، وكفتوا النحاس الذى أدخلوه فى أبواب دورهم وقصورهم ومساجدهم بالفضة والذهب، وموهوا أدواتهم وأوانيهم الزجاجية والخزفية بالميناء، ولبّسوا بالأحجار الكريمة والعاج نفائسهم وزخارفهم.

وإنى أورد هنا قصة أنقلها عن المقريزى للاستدلال بها على شغف القوم بفن التصوير وقتئذ ومبلغ عنايتهم بالمصورين، حتى دوّن بعض المؤرخين أسماءهم فى كتاب خاص أسماه « ضوء النبراس وأنس الجلاس فى أخبار المزوقين من الناس »[1]

قال المقريزى: « كان البازورى سيد الوزراء الحسن بن على ابن عبد الرحمن أحد وزراء الفاطميين، مشغوفاً بالنظر إلى الصور والكتب المزوقة، ولوعاً بالتحريض بين المصورين وإغراء بعضهم ببعض؛ وقد حدث مرة أن استدعى ابن عزيز المصور العراقى لمنافسة المصور المصرى

(١) وإنى لشديد الأسف، لأن هذا الكتاب لم يقف له أحد على أثر فى مكتبات الشرق والغرب، على ما نعلم.

المعروف بالقصير، لأنه كان يشتط فى أجرته ، فلما أحضر الاثنين فى مجلسه قال ابن عزيز : « أنا أصور صورة إذا رآها الناظر ظن أنها خارجة من الحائط » ، وقال القصير : « ولكنى أصورها فإذا نظرها الناظر ظن أنها داخلة فى الحائط » ، فقال الوزير : « هذا أعجب » وأمرهما أن يصنعا ما وعدا به ،فصورا صورتى راقصتين فى حنيتين مدهونتين متقابلتين،هذه ترى كأنها داخلة فى الحائط،وتلك ترى كأنها خارجة منه.

صور القصير الراقصة بثياب بيض ، وقد دهن الحنيَّة بالسواد ، فكانت كأنها داخلة فيها ، وصورها ابن عزيز بثياب حمر ، وقد جعل الحنية صفراء ، فكانت كأنها خارجة منها ، فاستحسن البازورى ذلك منهما وخلع عليهما ووهب لهما كثيراً من الذهب ».

وأما مصنوعات الخزف،فإنا نقتطف هنا بعض جمل عنها من المحاضرة التى ألقاها حضرة الأستاذ المرحوم على بهجت بك مدير دار الآثار العربية ـ وكان مندوباً للحكومة المصرية فى مؤتمر تاريخ الفنون الجميلة الدولى العام،الذى انعقد فى شهر سبتمبر سنة ١٩٢٢ بمدينة باريس ـ عن نتيجة عمليات الحفر فى أطلال الفسطاط ، وخصوصاً ما كان منها ذا علاقة بالأبنية وزخرفها والمصنوعات الخزفية وطلائها . قال بعد كلام طويل :

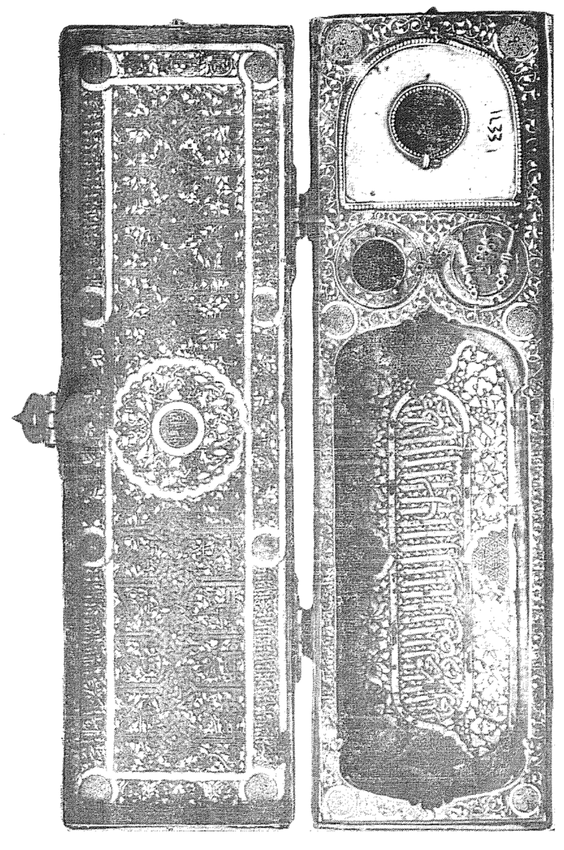
« وجدنا من بقايا مصنوعات الخزف على الخصوص عدداً عظيماً جداً دخل منها فى دار الآثار العربية من القطع النفيسة ما أفردنا له قاعتين ؛ وكان الموجود من ذلك لا يتجاوز مائة قطعة قبل الحفر ، أما الآن فلا يقل عن خمسة آلاف قطعة ، وفى وسعنا أن نقول إننا نملك

الآن مجموعة لاتقوم، بل لامثيل لهافى العالم، حتى إنى رأيت من الضرورى أن أجعلها موضوع بحث مستقل، فوضعت له مؤلفاً فى مائة صفحة، تتبعه ألواح عددها مائة وخمسون».

ومما هو حرى بالذكر هنا أن العرب راعوا — فى كل هذه الزخارف — الروح الدينية الناطقة، وأن نضرة الدنيا وزخرفها وبهجتها وزينتها صائرة إلى الزوال، وأن الجمال الباقى والنعيم المقيم الخالد إنما هو فى الدار الأخرى؛ وذلك بما استعملوه فى النقوش والتزاويق من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والأشعار الناطقة بهذا المعنى، الأمر الذى جعل الفن يساير الدين جنباً إلى جنب، حتى قال علماء الفرنجة إنهم لم يروا ديناً ائتلف مع الفنون ائتلاف الدين الإسلامى معها، فكان شعارهم فى فنونهم هذه كما قال شاعرهم:

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملأ الأعلى إليك رسائل
وقد خط فى لوح الوجود يراعها ألا كل شىء ما خلا الله باطل

ولعل هذا، وما رسخ فى نفوسهم من كراهة التماثيل التى تأصلت عندهم منذ الانتقال من عبادة الأصنام والأحجار إلى عبادة الله الحقة، كان الصارف لهم عن عمل التماثيل ونحت الأحجار، وعلى الأخص ما كان كاملاً من إنسان وحيوان، ومع ذلك فقد قال أحد المؤرخين الفرنسيين، وقد قال حقاً: «إن هذا لم يضرهم شيئاً، فقد كان عندهم من حسن البيان ودقة الوصف مايغنى عن إقامة هذه التماثيل، بل كانوا يصورون فى اللفظ ما لعله يخفى فى المشاهدة».



• مقلمة من نحاس مطعم بالذهب والفضة ، ومزينة بزخارف نباتية وهندسية موزعة توزيعاً منتظماً ، وعليها كتابات نسخية دقيقة ، وأخرى كوفية يتخللها فروع نباتية . وهى أجمل مقلمة إسلامية فى العالم ، وقد صنعت برسم السلطان الملك المنصور محمد المتوفى سنة ٧٦٤ هـ — ١٣٦٣ م

التربية والتعليم عند العرب

التربية والتعليم عند العرب (*)

تمهيد

لعل من الخير أن أذكر للقارىء أن الباعث الذى حدانى إلى التفكير فى إلقاء هذه المحاضرة، إنما جاء إثر رحلة جميلة قمت بها سنة ١٩٢٨ فى جزيرة « رودس » عروس البحر الأبيض المتوسط .

ولما كان من عادتى التوجه إلى البلد الذى به نشأت، وفيه ترعرعت، عقب كل رحلة قمت بها خارج الوطن العزيز، فقد قصدت إلى «عمروس» مسقط رأسى، ومستقر شبابى، كيف لا وهى :

بلاد بها حل الشباب تمائمي
وأول أرض مس جلدى ترابها

* * *

وبينما أنا جالس ذات يوم على حافة جدول تحت دوحة وارفة الظلال، أجيل الطرف فى جمال الطبيعة، وأملأ النفس من روعة جلالها، مع طالب فى دار العلوم ـ هو ابن أخى عبد الحميد العمروسى ـ فسألته: ألك فى مدارسة كتاب تصغى قلوبنا عنده إلى حكمة بالغة، أو فكرة صائبة، والجو منعش والمكان يهتف بالمطالعة، ويثير الشوق إلى الحقائق العلمية، ويهيب بالنفس إلى العمل بعد الدعة والاستجمام ؟

(*) ألقيت هذه المحاضرة بقاعة الجمعية الجغرافية الملكية فى شتاء عام ١٩٢٩، ونشرت فى مجلة « المعرفة » ج ١، ٣ س ٢

فما كان أسرع صاحبي إلى داره حيث أحضر كتاب (أدب الدنيا والدين)[1] وناولني إياه .

وكتاب أدب الدنيا والدين هذا مختار للمطالعة فى المدارس الثانوية والعاليـة، لأنه سفر قيم هاد للتى هى أقوم من الأدب والدين ومكارم الأخلاق .

* * *

تصفحت فهرس الـكتاب فاسترعى نظرى بابان، أولهما: وسأذكر طرفاً مما يتأدب به المتعلم ويكون عليه العالم، وثانيهما : فأول ما يكون عليه العلماء من الأخلاق ... الخ .

أخذتهما بقوة وعزم ، ورويت فيهما الفـكر ، ووازنت بين أهم أصول التربية والتعليم عند العرب فى ذلك الوقت ، وبين ما تقوم عليه تلك الأصول فى الأمم الحديثة المتمدينة ، وما كان أشد دهشتى وأعظم إعجابى حينما رأيت تقارب العقليتين وتماثل الفـكرتين : فـكرة علماء التربية الحديثة ، وفـكرة علماء العرب من قبل نيف وثمانيـة قرون ، فى أهم أصول التربية والتعليم.

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ فى الفصل الأول طرفاً من أهم الصفات التى يجب أن يتحلى بها كل من المتعلم والعالم ، والروابط التى يجب أن

---

(١) صاحب كتاب « أدب الدنيـا والدين » هو الإمام أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى المعروف بالماوردى ، توفى ببغداد سـنة ٤٥٠ هـ ، وقد ترجم كتابه إلى اللغة الفرنسية حديثاً.

تجمع بينهما حتى تنتج التربية أثرها النافع ، ويؤتى التعليم أصيب الثمار .

وسنقصر الكلام على ثلاث منها ، ونشفعها بخاتمة وجيزة عن الغاية من التربية والتعليم فى القرن العشرين :

الطرفة الاولى :

«اعلم أن للمتعلم فى زمان تعلمه ملقاً وتذللا، إن استعملها غنم، وإن تركها حرم ؛ لأن التملق للعالم يظهر مكنون علمه ، والتذلل له سبب لإدامة صبره ، وبإظهار مكنونه تكون الفائدة ، وباستدامة صبره يكون الإكثار ؛ وقد روى معاذ عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا فى طلب العلم » .

أقول : والملق فى اللغة : التحبب ، والتودد ، واللطف الشديد ، وتملقه وتملق له ، تلطف إليه ، وأن تعطى باللسان ماليس فى القلب .

وليس من شك فى أن أول واجب على المتعلم : التودد إلى معلمه ، والتقرب منه ، واغتنام الفرص لإظهار ما يكنه له من الحب والإعظام ؛ فإذا قام المتعلم بهذا الواجب ، لم يلبث المعلم أن يدنيه منه ، ويغدق عليه من علمه ونصائحه وعطفه مايضمن له الفوز والنجاح .

وقد كان المتقدمون يجلون المربين وينزلونهم أسمى المنازل ، ويرون لأولى العلم درجة دونها درجات الملوك وحملة التيجان ؛ وفى الحديث الشريف « وقروا من تتعلمون منه ، ووقروا من تعلمونه » ، وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « لايقام لأحد إلا لذى علم أو لذى سن أو لذى سلطان » .

وقيل : إنه لما وقعت الفتنة بالبصرة فى عصر بنى أمية سنة ١٠٢هـ ، ورضى الناس بالحسن البصرى أن يكون حكماً ، اجتمعوا عليه وبعثوا إليه ، فلما أقبل قاموا جميعاً إجلالا له ، فقال يزيد بن المهلب : كاد العلماء يكونون أرباباً ، أما ترون هذا المولى كيف قام له سادات العرب !

أما إذا بنى صرح التربية على غير هذا الأساس ـ وهو إعظام المتعلم للمعلم ، والحب المتبادل بينهما ـ كان التعليم عقيماً لا يؤتى ثمراً ، ولا يجنى الناس منه خيراً ، وهـــذا ما حدا الفيلسوف الفرنسى (ديدرو) إلى الانقطاع عن تعليم أحد أبناء الأمراء ، فلما قيـل له فى ذلك قال : ماذا تريدون أن أعلمه وهو لا يحبنى ؟[1]

ومن قول الإمام الماوردى ـ مؤلف كتاب (أدب الدنيا والدين) ـ فى هذا الصدد : « ومن آدابهم (آداب المعلمين) ألا يعنفوا متعلماً ولا يحقروا ناشئاً ، ولا يستصغروا مبتدئاً ، فإن ذلك أدعى إليهم ، وأعطف عليهم ، وأحث على الرغبة فى ما لديهم » .

ومما يروى عن النبى صلى الله عليـه وسـلم قوله : « علمـوا ولا تعنفوا ، فإن المعلم خير من المعنف » .

ومن آراء الإمام الغزالى فى تربية الطفل وتأديبه : الاقتصاد فى لومه وتعنيفه عند وقوع الذنوب ، وفى ذلك يقول فى كتاب (إحياء علوم الدين) :

---

(1) Que voulez-vous que je lui apprenne? Il ne m'aime pas.

« ولا تكثروا القول عليه بالعتاب فى كل حين، فإن ذلك يهون عليه سماع الملامة ، وركوب القبائح ، ويخفف وقع الكلام فى نفسه ».

ومن آرائه « أن يزجر المتعلم عن سوء الخلق بطريق التعريض لا التصريح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ ، فان التصريح يهتك حجاب الهيبة،ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيج الحرص على الإصرار » .

ويقول إمام المؤرخين وعمدة المربين ، فيلسوف عصره الإمام ابن خلدون :«من كان مرباه بالعسف والقهر ـ من المتعلمين أو المماليك أو الخدم ـ سطا به القهر، وضيق على النفس فى انبساطها، وذهب بنشاطها ، ودعا إلى الكسل ، وحمل على الكذب والخبث ؛ خوفاً من انبساط الأيدى بالقهر عليه » .

ولقد كنا — ونحن طلاب علم — نستثقل العلم الذى يدرسه معلم لانحس من أنفسنا مودة له ، وننصرف عنه ، ونحب العلم الذى يدرسه معلم نحبه ونميل إليه ، لعجزنا — فى هذه السن — عن التفرقة بين شخص المدرس وبين المادة التى يدرسها .

وكنا — ونحن حديثو عهد بمهنة التدريس — ندخل بعض الفصول منشرحى الصدور ، طيبى النفوس ، على حين ندخل فصولا منقبضين متبرمين؛ ولم يكن لذلك من سبب سوى وجود روابط الألفة والمودة بيننا وبين المعلم فى الحال الأولى ، وعدم توافرها فى الثانية ؛ ولكننا لم نلبث ـ بالمرانة والمراس ـ أن ذللنا هذه الصعاب ، وأرشدتنا التجربة

إلى أن المعلم إذا أوتى كفاية علمية ، وسجاحة خلقية ، ثم ألم بطبائع النشء وتعرف ميولهم ، وتتبع غرائزهم ونحائزهم ، لا أفراداً ووحداناً فحسب، بل جماعات وزرافات [1] ، وجمع إلى ذلك حسن التصرف ولباقة التأدية والحكمة والحزم ، أمكنه أن يذلل كل هذه الصعاب، وأن يستحوذ على الأفئدة ، فيوجه المتعلمين إلى كرائم الفضائل ، ويسلك بهم سبيل الكمال .

وعلى المعلمين أن يعنوا كل العناية بتكميل ما نقص من علمهم ، وتوسيع نطاق معارفهم ، والتماس خير الوسائل لحسن تفهيمها لتلاميذهم ، وإسداء النصح لهم فى كل مايتعلق بشئونهم ، وعليهم أن يكونوا ـ كما أسلفنا ـ ذوى خبرة بطب النفوس ودوائها ، وعلاج الطبائع وشفائها.

وخير المدرسين من كانت صلته بالتلاميذ ناشئة عن محبتهم له ، وإجلالهم إياه ، وشعورهم بعظيم فائدته ، وعن عطفه هو عليهم، وتحريه إفادتهم .

---

(١) لأن كل فصل من فصول المدرسة فى الحقيقة مجتمع صغير ، له تفكير خاص وروح خاص يختلفان عنهما فى كل فرد من أفراده على حدته ، (والذى ابتدع هذه الفكرة الجديدة ـ فكرة نفسية الجماهير أو روح الجماعات ـ هو الدكتور جوستاف لوبون صاحب كتاب « مدنية العرب »).

وعلم نفس الجماعات هذا ـ وإن كان لا يزال فى طور الطفولة ـ إلا أنه خطا خطوات فى بضع السنوات الأخيرة ، ووضع قواعد هى من الأهمية بمكان للمدرسين فى معالجتهم أحوال الطلبة ، وللآباء فى تصرفاتهم مع أبنائهم، ولكل من يتولى شئون الناس فى أمر جليل أو غير جليل .

أما ذلك المعلم الذى يظن تلاميذه أعداءاً ما من صداقتهم بد ، والذى لا تربطهم به إلا صلة هى خليط من الخوف والبغض ، والذى يرى أن التدريس عمل رسمى جاف، ووظيفة يؤديها لينال أجرها، غير شاعر بالتبعة الملقاة على عاتقه ، ولا آبه بالناحيـة الأدبيـة فى أحوال الطلبة وأخلاقهم ، فهيهات أن يعود عمله بغير الضرر البالغ، والعاقبة الوخيمة؛ فما كانت القسوة على المتعلمين، ولا بث روح الذعر لتأتيا بغير تعويدهم : الجبن، والنفاق، والـكذب، وعدم القيام بالواجب عليهم إلا مكرهين، ونفورهم من العلم وإعراضهم عنـه ، وأن يكنوا فى قلوبهم الحقد على هذا النظام العنيف الذى وصل بهم إلى تلك الغاية .

وهنـا يجدر بنـا أن ننوه بالـكلمة البليغـة ، التى ألقاها حضرة صاحب المعالى « محمد حلمى عيسى باشا » وزير المعارف العمومية ، على طلبة دار العـلوم العليا ، فى العام الماضى ، مقتطفين منهـا هذه الفقرة النفيسة وهى :

«أيها الطلبة !

« اذكروا دائماً رسالة المعلم فى الحياة ، تلك الرسالة ستضطلعون بأعبائهـا قريباً ، وأنها رسالة روحية لا تؤدى إلا بالإخلاص فى العمل مع التزود من العلم والتمسك بالفضيلة ، وقدروا عملكم فى تربية الناشئة قدره ، واصـعدوا بها إلى ذروة الكمال ، فمستقبل الأجيال القادمة فى ذمتكم».

وفى كلمة واحدة : أرى أن حب الطفل إلى درجة الولع والإغرام

به كما يغرم الانسان بولده وسليله ، هو نصف التربيــة والتعليم ؛ أما النصف الآخر : فطرق تدريس وأساليب تعليم.

الطرفة الثانية :

ثم قال الإمام الماوردى فى الطرفة الثانية ما نصه :

« وليحذر المتعـلم التبسط على من يعلمه وإن آنسه ، والإدلال عليه وإن تقدمت صحبته ، وقد قيل لبعض الحكماء : من أذل الناس ؟ قال : عالم يجرى عليه حكم جاهل

« وينبغى ألا يظهر الاستـكفاء منه ، والاستغناء عنه ، فإن فى ذلك كفراً بنعمته ، واستخفافاً بحقه ، وربما وجد بعض المتعلمين قوة فى نفسه — لجودة ذكائه ، وحدة خاطره — فقصد من يعلمه بالإعنات له ، والاعتراض عليه ، إزراءاً به وتبكيتاً له ، فيكون كمن تقدم فيه المثل السائر لأبى البطحاء :

أعلمــه الرماية كل يوم فلما استد[1] ساعده رمانى

وهذه من مصائب العلماء ، فمن انعكاس حظوظهم أن يصيروا عند من يعلمونه مستجهلين ، وعند من قدموه مسترذلين ».

ثم أردف ذلك بقوله : « وليس كثرة السؤال فى ما التبس إعناتاً ، وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم : العلم خزائن ، مفتاحه السؤال ، فاسألوا رحمكم الله ، فإنما يؤجر فى العلم ثلاثة : القائل ، والمستمع ، والآخذ.

(١) استد : صار سديداً

وقد قيل لابن عباس رضى الله عنهما : بم نلت العلم ؟ قال بلسان سؤول ، وقلب عقول » اهـ .

فالسؤال المباح للمتعلم هو الذى يزيل عنه لبساً ، وينير أمامه طريقاً ، أما السؤال الذى يقصد به الإعنات والتبكيت، فيعد خروجاً من جانب المتعلم على المبدأ المتقدم ذكره ، وهو أن التعليم يجب أن يقوم على التوقير والحب المتبادلين بين المعلم والمتعلم .

وختم الماوردى هذه الطرفة بملاحظة جديرة بالاعتبار والتبصر، وهي قوله : «وينبغي ألا تبعثه معرفة الحق له على قبول الشبهة منه ، ولا يدعوه ترك الإعنات له إلى التقليد فى ما أخذ عنه» .

فترى أن الإمام الماوردى فتح بذلك للمتعلم باب الاجتهاد وإعمال الفكر ، وأباح له تحليل ما تلقاه عن معلمه وتقليبه على وجوهه حتى يستوثق من صحته ويطمئن قلبه إلى صدقه ، ولم ير للمتعلم أن يلغى عقله ، ويمحو شخصيته ، فيرى أن قول معلمه دليل وإن لم يستدل ، وأن اعتقاده حجة وإن لم يحتج ، كما يقول بعض المشارقة : قال الشيخ . وكما كان علماء أوربا يقولون Magister dixit .

وذلك لعمرى مبدأ يجب التمسك به حتى يخرج التعليم رجالا مفكرين قادرين على إقامة الحجة البالغة ، واستنباط الأدلة الواضحة، ذوى آراء يعتد بها، لا مقلدين يلوكون كلام المعلمين بلا تفهم، ويرددونه كما تفعل الببغاء .

هكذا يقرر الأستاذ الإمام الماوردى . ومن قبل ذلك يرى

المتصفح لتاريخ التشريع الاسلامى فى أقدم عصوره ، أن تقديس حرية الرأى ، وتفهم الأحكام تفهماً صحيحاً ، إنما كان من أهم ما تأسست عليه علوم الأولين من قومنا ، وقامت عليه آراء الباحثين من أساطين ديننا، وأنت إذا تدبرت كتاب الله تعالى ، قلما تجد موضعاً خلا من الحث على التدبر والتفكر والتعقل والانتفاع بتلك الجوهرة الفريدة: جوهرة العقل.

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب إلى قاضيه أبى موسى الأشعرى، دستور القضاء، ذلك الدستور الخالد على الدهر، فكان مما قال فيه:

« ... ولا يمنعنك قضاء قضيته بالأمس ، فراجعت فيه نفسك ، وهديت إلى رشدك ، أن ترجع عنه ، فإن الحق قديم، والرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل : الفهم ، الفهم ، عند ما يتلجلج فى صدرك ما لم يبلغك به كتاب الله ولا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . اعرف الأمثال والأشباه ، وقس الأمور عند ذلك، ثم اعمد إلى أحبها عند الله ورسوله ، وأشبهها بالحق » .

لقى عمر رجلا ، فقال : ما صنعت ؟ قال : قضى علىّ بكذا وزيد بكذا، قال : لو كنت أنا لقضيت بكذا ، قال : فما منعك والأمر إليك ؟ قال : لو كنت أردك إلى كتاب الله أو إلى سنة رسوله لفعلت، ولكنى أردك إلى رأيى ، والرأى مشترك [1] ؛ فلم ينقض ما قال على ولا زيد.

---

(١) وهذا ما يعبر عنه الفرنسيون اليوم بقولهم: Les opinions sont libres ومعناه : الآراء حرة .

وعلى ذكر ذلك لابد لى أن أصارح إخوانى المدرسين بحقيقة طالما نبهت إليها فى تقاريرى أيام كنت مفتشاً فى المدارس ، وهى تتلخص فى أن كثيراً من مدرسى مدارسنا لايميلون إلى مناقشة الحقائق العلمية التى يلقونها على التلاميذ ، وتقليبها على وجوهها لتمحيصها أمامهم، وحثهم على إنعام النظر وإعمال الروية ،واستخلاص مايمكنهم استخلاصه منها، حتى يتعودوا التفكير فى ما يعرض لهم من مختلف الشئون فى حياتهم العملية ، بل هم فوق ذلك قد يحظرون عليهم السؤال وإن كان ضرورياً لإزالة غموض فى بعض عناصر الدرس ، بدعوى أن المقرر طويل، وأن الترخيص للتلاميذ فى المناقشة مما يعوقهم عن إتمام ذلك المقرر ، مع أن التعليم فى نظر المربين ـ من عهد سقراط إلى اليوم ، وإلى ماشاء الله ، وشاءت التربية الصحيحة ـ ليس هو تقديم الحقائق العلمية إلى النشء معبدة مهيأة ، وتكديسها فى أذهانهم أكداساً مجتمعة بدون إنعام النظر فيها ، والانتفاع بها ، وإنما هو تهيئتهم لقبولها ، وإرشادهم لاستكشافها ، وهدايتهم إلى العثور عليها .

ومما عرف عن أستاذنا الإمام الشيخ محمد عبده — رحمه الله — أنه كان فى دروسه يقصد إلى إعداد أذهان جديرة بفهم كتاب الله ،ومن أجل هذا كان يبقى أياماً طويلة فى تفهم الآية الواحدة من القرآن الكريم ، وتعرف مراميها ، والوصول إلى أسرار التشريع والتكيف بروحه ؛ وكان الطلاب جد حريصين على أن يستمعوا التفسير جميعه فى حياة الأستاذ ، فكان رحمه الله ـ فى بعد نظره ووافر حكمته ـ يقول



المرحوم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

لهم : إنى لن أعيش حتى أفسر لكم كتاب الله جميعه ، ولكنى أعنى فى حياتى بتهيئة أنفسكم ، وتسهيل طرائق البحث عليكم ، ولفتكم إلى الأعلام المنصوبة أمامكم ، ثم أعرض عليكم الأمثال وأسوق الأسى [١] لما يجب أن يفهم عليه كتاب الله ، وأدعكم بعد ذلك إلى أنفسكم .

وقد حدث فى العام الماضى أن بعض أعضاء مجلس النواب الفرنسى ضيقوا الخناق على وزير المعارف المسيو (هريو) أثناء مناقشة المناهج ، وشكوا نقص منهج الفلسفة فى المدارس الثانوية ـ وكانوا هم قديماً أساتذة الفلسفة بها ـ فأجابهم الوزير — بعد طول الجدل — جواباً أفحمهم وألزمهم الحجة ، ونال استحسان المجلس ، وهو قوله :

« سادتى ! ليس التعليم كأساً تدهق ، وإنما هو مشكاة تضاء » [٢] .

يريد أن يقول إن التعليم ليس كماً ولكنه إجادة وإتقان ؛ فالقليل الجيد منه خير من الكثير الغث .

وهكذا كان العرب يرون التعليم ؛ فقد كانوا يكرهون فى الطالب أن يكون خامد الروح ، يقبل ما يلقى إليه دون مناقشة ، أو يمنعه الحياء أن يسأل عما يجهل ؛ فعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : نعم النساء نساء الأنصار ، لم يكن يمنعهن الحياء أن يسألن عن الدين ويتفقهن فيه .

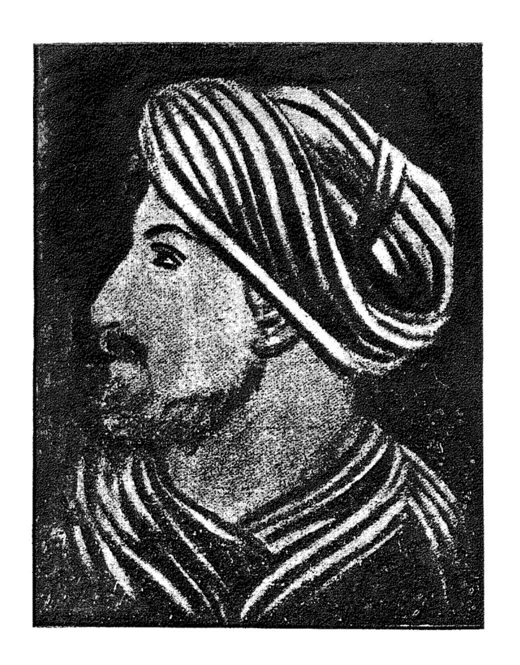
---

(١) الأسى : مفرده أسوة وهى الأنموذج .

(2) L'enseignement n'est pas une coupe à remplir. C'est un foyer àllumer.

وعلى ذكر وجوب تحصيل العلوم بالتفهم لحقائقها أقص حادثاً غريباً وقع فى شهر أكتوبر الماضى مجمله : أن الدكتور (ماكدونالد) الاستاذ بجامعة (هرفورد) ألقى محاضرة انتقد فيها طرق التربية والتعليم، وحث الطلبة على الإكثار من المناظرة والمناقشة فى المسائل العلمية ، لأنها خير الوسائل للحصول على ملكات العلوم والحذق فيها،واستدل فى ما استدل بنبذة لابن خلدون ، نقلها من كتاب فرنسى ثم ترجمها إلى الانكليزية، ونظراً لنفاسة تلك النبذة ، الدالة على رصانة آراء ابن خلدون فى نقد التربية والتعليم فى زمانه ، بعث الدكتور (شارلس واطسن) مدير الكلية الأمريكية بالقاهرة ، بتلك النبذة إلى ناظر الكلية ليترجمها إلى اللغة العربية ، وينشرها فى مجلة التربية الحديثة وشفعها بخطاب منه قال فيه: إنه دهش كثيراً لهذه النبذة وعجب من أن ابن خلدون الذى عاش فى القرن الخامس عشر ، اهتدى بفطنته ونور عقله إلى نقد طرائق التربية والتعليم فى زمانه نقداً علمياً صحيحاً ، لايزال هو النقد العلمى الصحيح الذى يصوب إلى التربية فى العصر الحاضر ؛ وها هى ذى النبذة الثمينة الصادرة عن ابن خلدون :

« . . . وبقيت فاس وسائر أقطار الغرب خلواً من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان ، ولم يتصل سند التعليم فيهم ، فعسر عليهم حصول الملكة والحذق فى العلوم؛ وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة فى المسائل العلمية، فهو الذى يقرب شأنها ويحصل مرامها ، فتجد طلاب العلم منهم — بعد ذهاب الكثير من



صورة العلامة ابن خلدون

كما تخيلتها لجنة تخليد ذكراه فى العام الماضى بمناسبة مرور ستمائة عام على ولادته

أعمارهم فى ملازمة المجالس العلمية — سكوتاً لاينطقون ولايفاوضون، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة ، فلايحصلون على طائل من ملكات التصرف فى العلم والتعليم ، ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل، تجد ملكته قاصرة فى علمه، إن فاوض أو ناظر أو علّم ، وما أتاهم القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده ، وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم، لشدة عنايتهم به وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية » اهـ .

نعم والله إنه ليجدر بهؤلاء المعلمين ـ الذين أشرت إليهم آنفاً ، والذين يحصرون عنايتهم فى إتمام المقرر كيفما كان ، دون الاهتمام بتربية الملكات وإنماء قوى الملاحظة ، والتفكير ، والمناقشات العلمية — أن يتدبروا قول ابن خلدون الذى اهتدى بنور بصيرته منذ ستة قرون تقريباً إلى أن أيسر الطرق لتحصيل العلوم والحذق فيها، إنما يكون بفتق اللسان بالمحاورة والمناظرة فى المسائل العلمية ، أما التعليم بطريق الحفظ فلا يجدى نفعاً فى الحصول على ملكات العلوم وبخاصة ملكة التصرف، وبعد النظر، وتكييف الظروف،فلقد شاهدت ـ غير مرة ـ أساتذة يدرسون لصغار تلاميذ المدارس الأولية عين الدروس التى تلقوها فى المدارس العالية ، بلا تبديل ولا تغيير، ذلك لأنهم لم تربَ فيهم ملكة التصرف، ولم يتعودوها، وصعب على الانسان هجران ماتعود.

أجل ! يجدر بأساتذتنا أن يسيروا فى تعليمهم على السنن القويم الذى رسمه لهم الإمام ابن خلدون ، وأن يعلموا أن الغرض من تدريس العلوم المختلفة فى المدارس الأولية والابتدائية والثانوية ليس تخريج

إخصائين فى تلك العلوم ، بل الغرض منه تمرين التلاميذ على التفكير والنظر الصحيح إلى الأشياء والحكم عليها حكماً صحيحاً بواسطة تلك العلوم، أو بعبارة أخرى: ليست تلك العلوم المختلفة غايات ومقاصد تطلب لذاتها ، وإنما هي وسائل ووسائط تتضافر كلها للوصول إلى نتيجة مشتركة واحدة، هى تهذيب العقل وتقويم الفكر ، ويجب عليهم منذ اليوم ألا يتعلقوا بأهداب دعوى إتمام المقرر بعد أن فوضت إليهم لجنة المناهج العامة البت فى أمر المناهج ، وبعد أن جربوها سنة كاملة وأقروها وأثنوا عليها .

الطرفة الثالثة :

وهى طرفة هامة جداً لأنها تتناول جوهر التربية وتمس أهم معضلاتها وأدق مشكلاتها وهى بنصها :

«ينبغى للعالم أن تكون له فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه ليعطيه ما يتحمله ذكاؤه أو يضعف عنه بلادته ، فإنه أروح للعالم وأنجح للمتعلم ؛ وقد روى ثابت عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم ؛ وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إذا أنا لم أعلم ما لم أر فلا علمت ما رأيت ، وقال عبد الله بن الزبير : لا عاش بخير من لم ير برأيه ما لم ير بعينه » .

وإذا كان العالم فى توسم المتعلمين بهذه الصفة ، وكان بقدر استحقاقهم خبيراً ، لم يضع له عناء ، ولم يخب على يديه صاحب ، وإن لم يتوسمهم

وخفيت عليه أحوالهم ومبلغ استحقاقهم ، كانوا وإياه فى عناء مكد وتعب غير مجد.

وقال بعض العلماء : « كل علم كثر على المستمع ولم يطاوعه الفهم ، ازداد القلب به عمى ، وإنما ينفع سمع الآذان إذا قوى فهم القلوب فى الأبدان » اهـ

هذه الجملة - على قصرها - أثارت فى نفسى أمرين خطيرين: الأول حرج مركز المعلم وصعوبة موقفه وعظم التبعة الملقاة على عاتقه فى المجتمع ، والثانى الطريقة المثلى التى يجب عليه أن يسلكها فى تقويم عقول الناشئين وتهذيب أخلاقهم .

ولكى نفهم موقف المعلم فى الأمة من موقف غيره من العاملين لخيرها ، كالمهندس والطبيب وغيرهما ، ولكى ندرك الصعوبة التى يلقاها والعقبات التى يصادفها بالنسبة لهؤلاء ، يجب أن نلم بالفرق بين العلم والفن ، فنقول : إن العلم والفن شكلان مختلفان من أشكال التفكير ، والفرق بينهما كالفرق بين النظرى والعملى ؛ فالعلم يبحث فى النظريات والنواميس العامة دون أن يلابس الكائنات ، إلا ريثما يلاحظ ليستنبط ويقنن ، بخلاف الفن فإنه يلقى بنفسه فى أحضان المحسوسات لبطبق تلك القوانين العامة على الكائنات على اختلاف أنواعها ، وفى الظروف المختلفة التى تحيط بكل حالة منها على انفرادها .

فعلم الطبيعة مثلا يضع القوانين العامة للجاذبية والحرارة والكهرباء

والمغناطيسية، بصرف النظر عن استقراء الأجسام التى تظهر فيها تلك الخواص ، فلا يتتبعها فرداً فرداً لمعرفة أحوالها وخواصها .

أما الفن فإنه يصرف همه إلى تطبيق تلك القوانين العامة والاستفادة منها فى رفع الأثقال مثلا ، ونقل الأجسام من مكان إلى آخر ، بحيث إن كل مسألة تؤخذ على حدتها وتحل وفق ما يناسبها .

وبينما العالم يسبح فى هدوء وسكون فى عالم الحق الفسيح بمعزل عن الناس ، يشحذ ذهنه ويرهف فكره فى استنباط الحقائق وتقنينها ، وليس له من غرض سوى اتباع شهواته العقلية ، والتوغل فى الفتوحات العلمية ، والتعمق فى ميادينها المجهولة ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، إذا بالفنى يضع نفسه وسط الأشياء لغرض معين محدود ؛ فالمربى مثلا ينصب نفسه وسط الناس لتعليمهم وتلقينهم الحقائق العلمية وفقاً للقواعد التى وضعها علماء التربية ، وهى مهمة — ولاشك — أشق من مهمة العالم، لأنه باتخاذه إياها مهنة له قد أخذ على نفسه أن يهذبها ويرتبها حتى يجعلها سائغة تقبلها عقول الناس ؛ ولهذا يتخير الأساليب السهلة ، ويتوخى الطرق الشائقة التى تترك أكبر أثر فى نفوس المتعلمين ، مع العناية بتمحيص تلك الحقائق تمحيصاً دقيقاً، وتخليصها من كل مايشوبها من الشكوك والتأويلات الباطلة ، فيكرر ويعيد — دون ملل أو كلال — حتى يصل بالمتعلم إلى غاية ما يريد ؛ وتلك مهمة دائمة تستوعب العمر وتستنفد الحياة ، فكلما ذللت صعاب بدا غيرها ، وكلما دوويت علل ظهرت علل ؛ ومن هنا ترى البون شاسعاً

بين مهنة المدرس وبين مهنة المهندس ـ مثلا ـ فى الصعوبة التى يلقاها كل منهما؛ فالمهندس يعمل على أجسام خامدة وأرقام صامتة، ويصل إلى نتيجة حاسمة ، وليس لجسم من الأجسام أن يشذ عن القاعدة ؛ أما المدرس فيعنى بأجسام ذات أرواح وعقول وشعور وميول ، تختلف فى شخص عنها فى الآخر . ولكل واحد أحوال خاصة تستدعى علاجاً خاصاً ؛ ولذلك كان (أفلاطون) يقول : « إن (أرسطو) يحتاج إلى لجام ، أما (زينكرات) فإنه يحتاج إلى مهماز » .

وقصارى القول : إن الصفة البارزة فى المعلم هى الفراسة والنظر الصحيح إلى المتعلمين وتوسمهم ـ كما يقول الإمام الماوردى رحمه الله ـ حتى يرسل شعاع فراسته إلى عقولهم وميولهم وسلوكهم وأخلاقهم ، فهم يختلفون فى العقول اختلافهم فى الوجوه ، وإن اختلافهم فى الإحساس والشعور أوسع وأعظم ، فلكل واحد منهم شعور خاص وميول خاصة ، كما أن له لغة خاصة وتعبيراً خاصاً ، وطرقاً للتفكير غير طرق أخيه وزميله.

فالشرف ـ مثلا ـ الذى يظنه الانسان لأول وهلة فضيلة عامة فى الناس وبدرجة واحدة ، فإن تقديره يختلف كذلك فى إنسان عن تقديره فى آخر؛ فقد ذكر التاريخ أن القائد الرومانى (كانون) قتل نفسه عقب انتصار (يوليوس قيصر) عليه فى موقعة (بوتيك) ، بينما سلم أقرانه القواد الآخرون الذين تربوا معه تربية عسكرية واحدة وهزموا معه فى تلك الموقعة ، دون أن يروا فى الخضوع للقوة والاستسلام للغالب حطاً من كرامتهم أو مساساً بشرفهم .

ومن نصائح الإمام ابن خلدون الغالية فى هذا الصدد « أن لا يؤخذ الغلمان جميعاً بطريق واحدة ، وأن لا يعاملوا معاملة واحدة في العلاج والتهذيب ،وإنما يجب أن يختلف علاجهم باختلاف أمزجتهم وطبائعهم وأسنانهم وبيئاتهم » ، قال : « وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، كذلك المربى لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم ، وإنما ينبغى أن ينظر فى مرض المريد وفى حاله وفى سنه ومزاجه وما تحتمله نفسه من الرياضة ، ويبنى على ذلك رياضته » اهـ

وهنا يجب على أن أنبه الأذهان إلى هذه الملاحظة الدقيقة ، وهي أن فكرة اعتبار الطفل فرداً مستقلا ذا شخصية مستقلة يحتاج فى تقويمه وتهذيبه إلى علاج خاص ، تلك التى فطن لها فلاسفة العرب لم تكن معروفة قط عند الأمم الأوربية فى القرون الوسطى ، بل كان المعروف عندهم أن التثقيف واحد للجميع ، فكان التلاميذ يفكرون بطريقة واحدة ، ويشعرون بكيفية واحدة ، كأنهم أفرغوا فى قالب واحد ، وكان المدرس يعطى درسه لتلاميذه كأنهم كتلة واحدة ، دون أن يفكر فى تكييفه وتنويعه وفقاً لطبائعهم وأمزجتهم وأحوالهم وأسنانهم ؛ وكانت العقائد الدينية تحظر كذلك أن يفكر إنسان بتفكيره الخاص ، وأن يشعر بشعوره الخاص ؛ ولم تظهر فى أوربا كلها فكرة اعتبار الطفل فرداً مستقلا ذا شخصية ذاتية إلا فى عصر النهضة أو إحياء العلوم فى القرن الخامس عشر ، ولكننا نحن الشرقيين

نفتخر بما كان عليه أسلافنا فى تقرير هذه الفكرة والعمل بهابطريقة فعلية ، كما أشار إليها ابن خلدون فى ما نقلناه ؛ وهذا ما حدا أساطين التربية والتعليم فى أمريكا إلى التنويه به والإعجاب بآرآئه كما أسلفنا .

* * *

وعلى المربى – فوق ذلك – أن يكون منزهاً عن الأغراض المادية والمعنوية ، لأنه نصب نفسه لهذه الحرفة الشريفة كما قدمنا ، وعليه أن يجدّ فى عمله ويسعى إلى الخير جهده ، وليس عليه أن تتم المطالب ؛ فإن من أغرب أمور هذه المهنة أنها تتهيب نتيجة جهودها ، وتخشى عاقبة أمرها ، فقد يخفق المربى حين يظن النجح حليفه ، وقد يكون انتصاره إخفاقاً تاماً وهزيمة منكرة ؛ وهذا ماحدث للمربى (فنلون) حين عهد إليه بتأديب (دوق برجونيا) ولى عهد لويس الرابع عشر ، فإنه بدل أن يخرج منه للمملكة ملكا حازماً، أخرج لها قسيساً زاهداً ؛ ذلك أنه وجه كل جهوده — عن صدق نية وحسن اعتقاد — إلى ناحية الزهد والورع ، فنجح فى ذلك نجاحاً تاماً ، إلا أنه أخطأ خطأ فاحشاً فى التوسم وبعد النظر ؛ فقد كان من أوجب الواجبات عليه أن يبث فى تلميذه – قبل كل شىء – روح النشاط وحب العمل والتسيطر والتسلط ، وما إلى ذلك من الصفات التى يجب أن تتوافر فى من هو مرشح لتولى السلطنة والهيمنة على أمور أمة بأكملها .

وقد تأتى الخيبة من طبيعة التلميذ الجامدة وعقله الخامل ، وهذا ما حدث للمربى الفرنسى (بوسويه) مع ابن لويس الرابع عشر

نفسه؛ فإنه لم يحصل منه ـ بعد العناء الشديد والجهد الجهيد ـ على نتيجة تذكر .

من أجل هذا كله وجب على المربى ـ قبل كل إنسان ـ أن يعنى بعمله عناية تامة ، وأن يبذل الجهد الجهيد فى سبيل تذليل مسائل العلم وتبسيطها،وتمهيد الطرق لتفهيمها للنشء تفهيماً صحيحاً،وعليه فى الوقت نفسه أن يشتغل لوجه الله خالصاً ، وألا ينتظر مكافأة على جهوده سوى شعوره أنه قام بما وجب عليه نحو أمته وبلاده بقدر ماوصل إليه الجهد ، واتسعت له الطاقة ، وإذا قدر له النجاح وأخرج للأمة رجالا نافعين، فقد تمت له السعادة ، ونال الحسنى وزيادة ؛ لذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم :« ياعلىُّ، لأَن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من الدنيا وما فيها » ، وفى رواية أخرى « خير لك مما طلعت عليه الشمس » .

* * *

ذلك هو الموقف الدقيق الذى يقفه المعلم من تلاميذه، شرحته شرحاً يتفق وأهمية نظرية التفرس أو التوسم كما يقول الإمام الماوردى .

بقى أن ننظر فى تطبيق تلك النظرية وترسمها في معالجة أمور التربية والتعليم فنقول : يجب أن تسير تربية الأطفال بطيئة متدرجة متصاعدة كما تتدرج الطبيعة نفسها فى ظهور قوى الطفل النفسية ؛ فيبدأ بتربية الجسم والعمل على إنمائه بالطرق الصحية،ثم يعنى بأمر التربية الخلقية التى تتناسب مع أسنان الأطفال؛ ثم تأتى بعد ذلك تربية الحواس،

فيدربون على دقة الملاحظة والمضاهاة حتى يتسنى لهم استنباط الكليات من الجزئيات ، والقواعد والتعاريف من الأمثلة ، وبذلك ينتقل من المحسوس إلى المعقول، ومن البسيط إلى المركب ؛ فعلى المربى أن يتريث وألا يتعجل فيكلف الطبيعة فوق طاقتها ؛ والطبيعة البشرية ـ كما يقول (روسو) ـ هادية من تلقاء نفسها إلى الحق والباطل ، كما أنها ملهمة الخير والشر ، ولا شيء يصدها عن سواء السبيل، ويبعدها عن إدراك الغاية التى هيأها الله لإدراكها ، إلا التربية الناقصة البتراء التى نعاها (مونتين) على القائمين بأمر التربية فى زمانه، حيث يقول :

« لقد كانت حكمة الأمة الفرنسية مضرب الأمثال من قديم الزمان، وإننا حتى اليوم لانرى أذكى من أبناء فرنسا الصغار، ولكنهم للأسف لا يلبثون ـ متى صاروا رجالا ـ أن يخيبوا الآمال ، ويخلفوا الظنون ، ويغشاهم من الغباوة والبلادة ما يلفت الأنظار ويحير الأفكار ، وقد قال لى بعض الثقات : إن المدارس التى يختلفون إليها هى التى تفسد عقولهم وتعمى أفئدتهم » .

وقد نحا الروائى الشهير (الكسندر دوماس) نحوه فى الإزراء بالتربية فى زمانه ، حيث يستفهم أحد الممثلين فى إحدى رواياته قائلا : لماذا ينقلب أطفالنا الظرفاء المهذبون رجالا غلاظ الأكباد خبثاء الطوية قساة القلوب ؟ فيرد عليه ممثل آخر قائلا : لابد أن يكون السبب فى ذلك التربية .

لذلك ينصح (روسو) للمعلم أن يمحو شخصيته أمام الأطفال ، وأن يقتصر عمله على النصح والإرشاد والهدى إلى التى هى أقوم ؛ وهذا ما يعبر عنه (روسو) بالتربية السلبية .

وهو ينحى باللائمة الشديدة على التربية التى تدفع الطفل إلى العلم دفعاً، وتكلفه حمل ما لاطاقة له بحمله، وفهم ما لاقبل له بفهمه، وإدراك ما لا تقوى عليه مداركه ، ويصفها بأنها تربية متعسرة ؛ لأنها تحاول أن تنقل الطفل فجأة من طور الطفولة إلى طور الرجولة ، وتريد أن تلقنه ـ وهو طفل ـ حقوق الرجال وواجباتهم .

وقد سبق (روسو) إلى نقد هذا النوع من التربية فلاسفة العرب؛ فهذا صاحب (أدب الدنيا والدين) يهيب بها وينادى بذمها ، ويراها تأتى بعكس المقصود منها ، وأنه بها ينقلب النور ظلاماً والبصر عمى، وذلك حيث يقول:

« إن كل علم كثر على المستمع ولم يطاوعه الفهم ازداد القلب به عمى، وإنما ينفع سمع الآذان إذا قوى فهم القلوب فى الأبدان ».

غير أن الناس فى كل زمان وفى كل مكان يتغاضون — للأسف الشديد — عن هذه القضية البديهية الواضحة الجلية، فيتجاهلها الآباء فى البيت ، كما يغفلها المدرسون فى المدرسة ، فتراهم يبكرون جداً بتلقين أبنائهم ألفاظاً وعبارات لا يفهمون لها معنى ، ولا يقيمون لها وزناً ، وهم مع ذلك يسرهم جد السرور أن يسمعوها منهم كما يسمعون الببغاوات.

ومن ثم تنشأ فى الأولاد عادة قبيحة لها أسوأ الأثر فى تربية

الأفراد والأمم،وهى التكلم بالألفاظ دون الاهتمام بمدلولاتها ومعانيها ؛ ذلك أن القائمين بتربيتهم حشوا أذهانهم بألفاظ وعبارات حشواً ، وحشروها فيها حشراً ، غير عالمين أن ذلك مما يؤخر فيهم قوة الفهم ، ويضعف ملكة العقل والإدراك ، ويكون حجر عثرة في سبيل التربية فى مابعد.

لاحظ ابن القرية تجده أقوم فكراً، وأحسن أداءً، وأفصح منطقاً من ابن المدينة ، لأنه يعيش فى بيئة هادئة ساكنة لا يكاد يراه أهله إلا قليلا نظراً لاشتغالهم بالحقول ، فلا يتعلم إلا ألفاظاً قليلة محدودة ، ثم هو لقلتها يكون على بينة من معانيها وفهم واضح لمراميها بخلاف ابن المدينة .

وقد أدرك ذلك من كان قبلنا من مفكرى العرب وحكمائهم ، فنصحوا لمن عهدوا إليهم بتربية أبنائهم من المعلمين ، أن يقتصدوا فى عرض الأفكار عليهم حتى لايشغلهم تزاحمها عن فهمها، وأن يتثبتوا من فهمهم لما يعرض عليهم من الألفاظ والتراكيب حتى لايستعملوها إلا فى مواطنها اللائقة ومواضعها المناسبة .

ولنعرض فقرة من كتاب عمرو بن عتبة لمعلم أولاده حيث يقول :

« ليكن أول إصلاحك لولدى إصلاحك لنفسك ، فإن عيونهم معقودة بعينيك ، فالحسن عندهم ماصنعت ، والقبيح عندهم ماتركت . علمهم كتاب الله ، ولا تملهم فيه فيتركوه ، ولا تتركهم فيه فيهجروه .

روهم من الحديث أشرفه ، ومن الشعر أعفه ، ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكموه ، فإن ازدحام الكلام في القلب مشغلة للفهم » .

وجعل الإمام الماوردى (صاحب أدب الدنيا والدين) من شروط بلاغة الكلام ، أن يكون بين الألفاظ ومعانيها مناسبة ومطابقة ، وفسر المطابقة بأن تكون الألفاظ كالقوالب لمعانيها، فلا تزيد عليها ولا تنقص عنها .

وقال بشر بن المعتمر فى وصيته فى البلاغة :

« إذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها، ولا صائرة إلى مستقرها، ولا حالة في مركزها ، بل وجدتها قلقة فى مكانها ،نافرة عن موضعها ، فلا تكرهها على القرار فيه »

وقال بعض البلغاء : « لايكون البليغ بليغاً حتى يكون معنى كلامه أسبق إلى فهمك من لفظه إلى سمعك »

وهذا ما يجب على الأهل والمعلمين أن يفطنوا له ، وأن يعنوا به العناية كلها ، حتى لايكون كلام أطفالهم وتلاميذهم اليوم، وكلامهم وهم رجال الأمة غداً ،هراءً فى هراء ؛ فإن الكلام ميزان دقيق فى تقدير الرجال والحكم على كفايتهم العلمية والخلقية .

الغرض من التربية والتعليم

في القرن العشرين

شغلت الأمم والجماعات بالبحث في التربية ووسائلها، وعنى العلماء بتحديد الغرض منها ليتخذوه نبراساً يضيء لهم طريقهم كي يسيروا في تنشئة الأفراد على النهج القويم؛ وقد تباينت الآراء في تحديد ذلك الغرض تبعاً لاختلاف وجهة النظر إلى مقاصد الحياة، ومطالب الأفراد والجماعات، وسنة التدرج الحيوى والعقلى والعلمى؛ وليس غريباً أن يكون هذا التباين في الأعصر المتعاقبة والبيئات المختلفة. فالتربية شديدة الصلة بالحياة ونظامها، وهى من أقوى دعائم القومية وأظهر مميزات الأمم.

وإن الذى يتتبع ماقطعته التربية من مراحل فى الغابر والحاضر، يجد أن الغرض من التربية كان مصطبغاً فى كل عصر بصبغة تبين ما كان لأهله من نزعات، وتنم عن وجهات من النظر مرتكزة على مشارب الأمم وحاجاتها ومقدار اعتدادها بالفرد وحقوقه، والجماعة ومطالبها.

فقد اتجهت التربية فى العصور القديمة إلى العناية بالمجتمع ورعاية كيانه والاهتمام بما يكفل للأمة البقاء من غير اعتداد بالفرد، وما له من حق فى الحياة؛ ثم تبدلت الحال في أواخر دولة اليونان فأعارت نظم التربية الفرد شيئاً من عنايتها واهتمت بثقافته الى حد ما.

جر الجهل والجمود ذيله ـ فى القرون الوسطى ـ على الأفراد والجماعات فى أوربا، وظلت كذلك حيناً من الدهر. كان فيه الشرق الاسلامى فى نهوض عقلى، حتى هبت من سباتها فسارت فى نظم التربية وأغراضها نحو غايات مختلفة من اهتمام باللغة وآدابها تارة، وعناية بالحقائق الحيوية فى مظاهر متعددة تارة أخرى ؛ وغايتهم من كل هذا أن يستعيدوا المجد العلمى والعقلى الذى كان لأسلافهم، وأن يضعوا عن العقل البشرى الأغلال التى كانت عليه .

طاف بعد هذا النهوض على أساليب الحياة ونظم تنشئة الأفراد طائف أخمد جذوتها وشل حركتها، فدب فيها الجمود حتى أتيح للتربية من حمل لواءها وقاد جيشها . وظل المصلحون وعلماء التربية يعملون على إنقاذ الفرد مما كان قد طوقه من أصفاد، ناهجين طرقاً شتى، فنادى بعضهم بالرجوع إلى الطبيعة، ونادى آخرون بجعل أساس التربية دراسة الفرد وطبائعه والاهتمام بتكميل مواهبه، وهم فى كل ذلك يرمون إلى الاهتمام بالفرد وإنقاذه من مخالب المجتمع الذى كان الفساد قد تسرب فى نواحيه.

وفى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن انتهجت التربية وأغراضها النهج الذى كان قد بدأ به السالفون فى بلاد اليونان ، وذلك هو العناية بالمجتمع ومصالحه ؛ وكان إلى جانب هذا أيضاً الاهتمام بالفرد وثقافته وإعداده للحياة العملية، ليكون مفيداً لنفسه ولأمته؛ ذلك لأن الفرد إنما يعيش للمجتمع وبالمجتمع، فالفرد وحده بناء الأمة ، والأمة منبع خير الفرد وظله الوارف .

ذلك هو الغرض السائد الآن، والذى تعمل على تحقيقه الأمم الراقية وهو : إعداد الفرد للمجتمع.

وتحقيق ذلك يتطلب أن تكون التربية نوعين : عامة ، وخاصة ؛ فالتربية العامة تكون بتربية جميع أفراد الأمة على السواء تربية قومية واحدة ، تربط بعضهم بعضاً ، وتجعلهم مجموعاً واحداً متماسكاً متشابه الأفكار والأخلاق والعقائد والعادات الموروثة عن أسلافهم الصالحين. وبذلك يكون للأمة شعارها الخاص من التربية، كما أن لها شعارها الخاص من الدين واللغة والحال الاقتصادية وغير ذلك .

ذلك هو أرقى أنواع التربية وأسمى ماتتجه إليه همة المربين. وهذا النوع من التربية يغرس فى النشء فى المراحل الأولى للتعليم - كالتعليم الأولى والتعليم الابتدائى - حتى تنطبع فيهم القومية الصحيحة ويشربوا فى قلوبهم مميزات أمتهم ، وهم فى إبان نشأتهم ، فتتأصل فى نفوسهم وترسخ فى طباعهم ، وتصبح غريزة فيهم ، وسجية لهم .

يقول المربى العربى فى ذلك : « اطبع الطين ما كان رطبا ، واغمز العود ما كان لدناً ». وهل اللدونة والطراوة إلا فى غض الشباب وريعان الصبا ؟

والتربية الخاصة هى متمم لابد منه للتربية العامة، لأن مرافق المجتمع متعددة وحاجاته مختلفة ، وهذا يستدعى ألا تسير التربية فى طريق واحدة كما سارت التربية العامة ؛ بل لابد أن تختلف مناهجها وفق اختلاف الحياة نفسها ، فتتخصص طائفة فى الفروع المختلفة

فى الحياة العقلية والعملية والاجتماعية ، وغير ذلك من العلوم والفنون .

يتلخص مما تقدم أن المثل الأعلى للتربية الحديثة فى القرن العشرين هو العمل على تكوين رجلين فى رجل واحد ، أو إيجاد روحين فى شخص واحد : رجل المهنة ورجل الاجتماع .

وهذا الرأى يخالف رأى علماء التربية فى القرن التاسع عشر ، فقد كانوا يرون أن الغرض الأسمى نفسىّ ، وهو تنمية ما أودع فى الفرد من قوى نفسية وعقلية وجسمية ، والوصول بها إلى أقصى حد من الكمال ، تنمية متناسبة متناسقة ؛ فعمل المربى – فى رأيهم – ينحصر فى تعهد هذه المواهب الفطرية وتوجيهها توجيهاً صالحاً . فالتربية – فى نظرهم – نابعة من الباطن ، وليست شيئاً آتياً من الخارج .

وحوالى سنة ١٩٠٠ تدرج البحث ، وظهرت فى عالم التربية فكرة جديدة ، ألا وهى تأثير الحياة الاجتماعية فى التربية والتعليم . وقد تعهدها نفر من كبار المربين فى أول القرن العشرين ، وانبروا لنقد رأى المربين فى القرن التاسع عشر ، وذهبوا إلى أن التربية تستطيع أن تصل بالفرد إلى الاستعداد لأى عمل من أعمال الحياة . فالفرد – فى نظرهم – مستعد بفطرته للتفكير والحركة على السواء ، وأنه يفكر إذا وجه للتفكير ، ويعمل إذا وجه للعمل ، وليس هناك أفراد خلقوا للتفكير ، وآخرون خلقوا للحركة إلا فى أحوال استثنائية تتغلب فيها الوراثة .

وبعد ، فحياة المجتمع وسد حاجاته وتعهد مطالبه هى المثل الأعلى الذى يجب على المربين رعايته والاهتمام به ، حتى تصل الأمة إلى درجة الكمال .

التربيـــــة فى الأسرة

التربية فى الأسرة (*)

عناية الأمم الراقية بالتربية :

تعنى الأمم الراقيـة بتربية أبنائهـا وأخذها إياهم بأفضل أساليب التربيـة والتعليم حتى يشبوا ويترعرعوا ؛ ذلك أنهم يؤمنـون أصدق الإيمـان بحسنات التربية والتعليم ، وأثرهما البالغ فى النفوس ، ويعلقون عليهما أكبر الآمال فى تحقيق سـعادة الوطن وبنيه .

وليس أدل على ذلك الإيمـان ، من أن قادة الفـكر فى تلك الأمم مجمعون على أنه يستحيل على أمة أن تأتى عملا جليلا ، أو تنفذ فـكرة خطيرة ، إلا إذا اعتمـدت — فى ما تصبو إليـه — على التربيـة والتعليم ؛ وذلك برغم تعدد المذاهب وتباين الآراء فى هـذا العصر ، الذى أصبح مجالا لمختلف الأفـكار ، ومتباين الآراء .

ا — فرجال الدين يقولون : إن مستقبل الدين يتوقف على التربية والتعليم .

ب — ورجال السياسة يعتمدون عليها فى تغليب آرائهم وانتصار أفـكارهم .

حـ — والمستنيرون من سواد الناس يرون فى نشرها بين طبقات

(*) ألقيت هذه المحاضرة بدار « الاتحاد النسائى » فى يوم ٥ فبراير سنة ١٩٣٣ ، ونشرت بمجلة « المعرفة » : ج ٩ و ١٠ س ٢

الشعب فوزاً لقضية الأخلاق ، وإعلاء لشأن بلادهم، ورفعاً لمكانتها بين الأمم .

دولة الطفل:

لذلك توجهت أفكارهم جميعاً إلى الطفل ، فاطوه بسياج من العناية والرعاية ، وغذوه بالمعلومات النافعة المهذبة ، التى تنى بحاجات الفرد والمجتمع معاً ، حتى أصبحت كل أسرة - فى السهر على أبنائها وتعهد شئونهم - كالزارع اليقظ النشيط الذى يتعهد غرسه بالحرث والسق ، كى يأتى فى الغد بأوفر نتاج وأجود حصاد .

وقد صدر الكاتب الفرنسى (فيلكس توما) كتابه « التربية فى الأسرة وذنوب الوالدين » بديباجة ممتعة استهلها بقوله :

« بينما ممالك كثيرة تهى وتدول ، إذ بالقرن التاسع عشر يرى دولة جديدة نشأت بين أحضانه ، وأخذت قدمها تترسخ فيه يوماً فيوماً ... تلك هي دولة الطفل »

من هذا نرى أن القرن التاسع عشر امتاز مما تقدمه من القرون بأنه عصر الطفل .

فالشعراء فى فرنسا - من عهد (فيكتور هيجو) إلى اليوم - اهتموا جد الاهتمام ، وعنوا أيما عناية بدراسة نفسية الطفل الغامضة ، وميوله المتغيرة ، وأفكاره المتقلبة ، وراقبوا صعوده تدريجياً من عالم الخفاء والظلمة إلى عالم الوضوح والنور ، وقد حذا حذوهم فى ذلك :

الـكتاب ، والفلاسفة ، والعلماء ، والأطباء ، فالتفوا جميعاً حول مهد الطفـل ، يرقبـون حركاته وإشاراته وابتساماته ، ويدونون تجاريبهم حتى أخرجوا للناس صورة حقيقيـة للطفل ، تختلف تمام الاختلاف عن الصورة التى صورها له علماء القرون السـابقة ، والتى كان للخيال والمبالغة فيها أثر كبير .

أجل ! وجد فى كل جيل من الأجيال السالفة كتاب وشعراء أحبوا أبناءهم حباً عظيماً ،وحنوا عليهم حنواً كبيراً ، فدرسوا طباعهم ، وترجموا عن عواطفهم ، مثـل (بلوتارك) الـكاتب اليونانى القديم ، الذى عاش فى منتصف القرن الأول للميلاد ؛ فإنه بعث إلى صديق له بكتاب معروف فى عالم الأدب ـ عقب موت ابنته الوحيدة ـ يصف فيه رقة شـعورها وصفاً مؤثراً ، إذ يقول : إنها كانت تتوسـل إلى مرضعتها أن تمنح ثديها لا للأطفال الصـغار الذين كانوا يلعبون ويرتعون معهـا فحسب ، بل للدُّمى (العرائس) التى كانت تلهو بهـا وتفرح برؤيتها ، والتى كانت تجلسها معها على مائدتهـا ، وتغدق عليها أرق وأعذب ماعندها من عبارات المداعبـة والملاطفة ؛ كأن فطرتهـا السليمة تحس وجوب مقابلة الإحسان بالإحسان .

وبهذه المناسـبة أذكر أبيـاتاً « لحطان بن المعلى » يصـف عطفه على بناته :

لولا بنيات كزغب القطـا	رددن من بعض إلى بعض
لـكان لى مضطرب واسع	فى الأرض ذات الطول والعرض



جان جاك روسو

(١٧٧٨ - ١٧١٢)

وإنمـــا أولادنا بيننـــا أكبادنا تمشى على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عينى من الغمض

ولما مات « ذر بن عمر بن ذر » وقف أبوه على قبره . فقال : « يا ذر ! إنه قد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك . لأنا لاندرى ما قلت ولا ما قيل لك » ، ثم رفع يديه إلى السماء . وقال : « اللهم إنى قد وهبت لك ما قصر فيه مما افترضت عليه من حقى ، فهب له ماقصر فيه من حقك ، واجعل ثوابى عليه له ، وزدنى من فضلك ، إنى إليك من الراغبين » .

ولا بد أن يكون عدد هؤلاء الأفراد قد أخذ يزداد شيئاً فشيئاً بتوالى العصور حتى بلغ حداً لايستهان به فى القرن الثامن عشر ، تحت تأثير تعاليم (روسو) وفلسفته فى تربية الطفل . ولكننا نعلم أنه برغم انتشار تعاليم ذلك الفيلسوف فى أغلب الأسر والمدارس . فقد كانت الملاطفة والمداعبة يستران وراءهما ضروباً من الشدة والمخاشنة . وكان الولد عبداً مملوكاً . والوالد سيداً مالكا .

أما اليوم ، فقد تبدلت الحال غير الحال ، وأصبحت للولد حقوق . بعد أن لم يكن عليه إلا واجبات ، فصار ذا شخصية حقيقية . له أن يتمتع بالحرية والاحترام ، وبجميع الحقوق التى تساعد على نمو قواه الجسمانية والعقلية ، كما أصبح شخصاً اجتماعياً . ينتظر له فى الغد أن يكون عضواً عاملا فى المجتمع . له مالنا . وعليه ما علينا .

لهذا لم يكن بد للحكومة ـ التى هى فى الحقيقة مرآة الرأى العام ـ

من أن تغير نظمها وفقاً لهـــذه الأفكار الجديدة ، وتعنى عناية خاصة بكل ما له علاقة بتعليم الأطفال وتهذيبهم ، فجعلته فى متناول الجميع ، لأن الجميع لهم الحق فيه ، وجعلته بالمجان وإجبارياً ، وصيرته شائقاً لذيذاً ، حيث أصلحت المبانى القديمة ، وأنشأت مدارس جديدة على طراز جديد جميل ، كما نقحت المناهج تنقيحاً اختزلها إلى النصف ، وخلصها من الشـوائب والزوائد ، وجعلت القناعة فى العلم والاكتفاء بالقليل منه أساساً للتعليم فى المدارس الابتدائية .

ولـكى تجنى ثمار هذا كله ناضجة شهية ، عمدت إلى إعداد المعلمين المهذبين الأكفاء ، وبذلت — عن سخاء وطيب خاطر — الأموال الطائلة فى هذه السبيل ، علماً منهـا أن الإنفاق عن سعة فى هذا الباب هو الغنى بعينه .

ولمـا أعدت المعلم الـكفء منحته ثقتها وأعطته الحرية التامة فى تدريس المناهج ، فاذا شاء قدم موضوعات على أخرى ، وإذا شاء حذف منهـا أو أضاف إليها ، ثم هو بعد ذلك يوجه من تلقاء نفسه التعليم الوجهة الصالحة المنتجة بما يناسب البيئة التى يعيش فيها الأطفال ، فإن كانت زراعيـــة علمهم أصول الزراعة وأحوالها بصفة خاصة ، وإن كانت صناعية أو تجارية وجههم إلى الصناعة أو التجارة لتهيئتهم لكسب العيش ـ فيما بعد ـ بمزاولة العمل الحر ، لأن التعليم يجب أن يكون معيناً على كسب القوت ومهذباً فى آن واحد .

هكذا سارت فرنسا متعاونة ـ شعباً وحكومة ـ على النهوض بالتربية

والتعليم، فقطعت شوطاً بعيداً فى هذه السبيل، كأنهم فهموا ـ جميعاً ـ تلك النصائح الغالية التى جادت بها قريحة مواطنهم (كوندرسيه) الفيلسوف والكاتب الفرنسى الشهير، إذ يقول:

« على قدر النصيب الذى تناله الأمة من التربية والتعليم، تكون مقدرتها على حكم نفسها بنفسها، مما يقوم دليلا على أنها جديرة بأن تعيش أمة حرة »

ولكن برغم هذا التعاون القوى، والتضامن الشديد بين الحكومة وبين الشعب، فإن الخبيرين بشئون التربية يذهبون إلى أن النتيجة التى وصلوا إليها لم تأت متناسبة مع الجهود العظيمة التى بذلت، وأنهم لا يزالون بعيدين عن النتيجة المرجوة والغاية المنشودة. فلم تزل الأصوات ترتفع بالشكوى من نقص التربية فى جميع مناحيها البدنية والعقلية والخلقية.

فعلى من تقع التبعة يا ترى؟ يقول المسيو (فيلكس توما) رداً على هذا السؤال: « إن المتهم الأول هو الحكومة دائماً، لأنها لن تبرأ من النقد واللوم مهما أجادت، لأنها ممثلة فى أشخاص، والأشخاص يستحيل عليهم الكمال »

ويرى أنه يجب علينا أن نذهب فى بحث السبب الرئيسى إلى أبعد من هذا. فنجده فى الأسرة، وفى الأخطاء الكبيرة والذنوب العديدة التى يرتكبها الوالدان فى تربية أبنائهما قبل المدرسة، إما بسبب الجهل وهو الأغلب، وإما بسبب الإهمال والأثرة وحب الذات؛ ومن ثم ينشأ معظم الشر الذى يئن منه المجتمع.

الصحة والزواج :

يقول بذلك مسيو (فيلكس توما) ، ويرى — فى هذا الصدد — أن أكبر الذنوب التى يقترفها الوالدان وأخطرها ، إهمالهما مراعاة الصحة قبل الزواج . فهل من الانسانية والمروءة والتبصر فى عواقب الأمور أن يسرف الإنسان فى الملاهى والملاذ حتى تختل بنيته ، وتعتل صحته ، ويفسد عقله ، ثم يقدم على الزواج لينسل بذرية ضعيفة ضئيلة ، تشكو — طوال العمر — الآلام والأمراض التى ورثوها عن والديهم ، دون أن يكون لهم فى ذلك أى دخل ، وقديماً قيل « غير جنى وأنا المعذب » ؟

لذلك اهتمت بعض الأمم الراقية بالأمر اهتماماً عظيماً ، وحرمت عقد قران رجل على امرأة إلا إذا أثبت كلاهما — طبياً — أنه خلو من الأمراض الفتاكة المشهورة ، حرصاً منها على سلامة النسل وحفظه من الأمراض العقلية والعاهات الخلقية .

أما إذا ترك الأمر — كما هى الحال فى معظم البلدان — إلى حكم الشهوات والمصادفات ، وخالف الناس نواميس الطبيعة وخرقوا قوانينها ، فإنها لابد تثأر لنفسها ، ولا نلوم فى ذلك إلا أنفسنا إذا ما حل انتقامها بالمساكين الأبرياء .

فاذا رجع الناس إلى صوابهم وثابوا إلى رشدهم فى مسألة الزواج — وقد رأوا نتائجه الخطيرة وتبعاته الثقيلة — لعنوا قبل أى اعتبار آخر بأمر الصحة ، ولكن ذلك ليس عندهم بالأمر الهام !

يقول أفلاطون : « إنك إذا محضت الناس النصح فى هذا الصدد ، فكأنك تخاطب صماً لايسمعون ، لأنهم ينقادون إلى الشهوة العمياء دون الإصغاء إلى نداء العقل وهدى التفكير » .

نعم ، إن الغنى والحسب والجاه والجمال أمور جبلت النفوس على طلبها فى الزواج ؛ ونحن لانلومهم على الجرى وراءها ، ولكننا نلومهم على اكتفائهم بها وإغفالهم أمر الصحة التى يجب أن تكون الدعامة التى يقوم عليها صرح الزواج .

ولنفرض الآن أن شرط الصحة قد تحقق فى الزوجين وتم الزواج ، فهل نكون بذلك قد وصلنا إلى كل مانريد ؟ كلا ، فإن هناك واجبات هامة تبدأ ببدء الحمل ، وتقتضيها حياة الطفل أثناءه ، ومعظمها منصب على الأم وحدها ، فيجب عليها أن تتجنب كل ما من شأنه أن يضر بصحة طفلها حساً ومعنى ، بل يجب عليها أن تبحث عن كل ما ينميها ويقويها ؛ فما من عمل تأتيه أثناء الحمل ، أو فكر يمر بخاطرها إلا وله أثره فى طفلها ، حتى إنه ليحدث أحياناً أن الطفل يمكث طول حياته يعانى أمراضاً وآلاماً نشأت عن أن أمه زاولت — وقت الحمل — أعمالا أنتجت فيه ما أنتجت ، وإن لم يكن لها فى نفسها إلا أثر وقتى .

وإنى أسوق إلى القراء مثالين تاريخيين ، يستدل منهما على أن الاستعدادات المختلفة التى تولد مع الطفل : كالخوف ، والشجاعة ، والكسل ، والغيرة ، والحسد ، أو الميل إلى عمل

معين دون آخر ... إن هي إلا نتيجة انفعـالات نفسية قامت بنفس الأم ، أو أثر لأعمال كانت تأتيها أثناء الحمل .

المثل الاول : حدث أن أحد زعماء الحركة الفكرية فى انجلترا فى القرن السابع عشر ، وهو (توماس هوبز) ، عاش طول حياته يشكو ألم الانكماش والخوف ، ويعزوهما إلى انزعاج أمه عندما اقترب الأسطول الأسبانى (أرمدا) من شواطىء انجلترا ، وكان إذ ذاك جنيناً فى بطن أمه ؛ فليس عجيباً ـ إذاً ـ أن تتأثر فلسفته بهذا ، فإنك إذا قرأت مؤلفاته ، تجد أن سياسته الفلسفية تدور حول فكرة أساسية واحدة هى : الاضطراب والخوف ، فيقول مثلا : إن الناس فى سبيل تخلصهم من العيشة وفق الحال الوحشية الأولى ـ التى كانت كلها فوضى واضطراباً ـ قد تنازلوا عن حرياتهم ، وقبلوا أن يعيشوا تحت سلطة الفرد المطلقة ، ورضوا بالاستبداد ، لأنه وإن كان شراً فى ذاته ، فقد خلصهم من شرور الحال الأولى ، وهى أنكى وأمر ؛ ولذا عد من الفلاسفة المتشائمين .

المثل الثانى : خاص بمارى ستيوارت بنت جيمس الخامس ملك اسكتلندا ـ فيما بعد جاك الأول ملك انجلترا ـ من أميرة فرنسية هى مارى دى لورين .

تزوجت (مارى ستيوارت) بفرنسوا الأول ملك فرنسا، وترملت بعد ذلك لسنة ، وعادت فى سنة ١٥٦٠ إلى وطنها الأول ، واقترنت بابن عمها (هنرى دارنلى) ، وكان أصغر منها سناً ، ولكن لم يمض على عقد الزواج إلا قليل ، حتى أسفت على حدوثه لما تبينته من ضعف بنية

زوجها الشاب ، وفساد أخلاقه ؛ كما تألم هو أيضاً منها ، لأنها أبطأت في منحه امتيازات الملكية وحقوقها ، واتهم في ذلك أحد حاشيتها (رِزّو) ، ففتك به ذات يوم على مرأى منها ؛ ومع شدة تألمها لهذا الحادث الفظيع ، فقد تظاهرت لزوجها بالصفح عما فعل ، ولكنها لم تلبث أن دبرت له مكيدة لقي حتفه فيها ، ثم تزوجت من القاتل له ، فغضبت عليها بلادها ، وزج بها لذلك في أعماق السجون ، وصادف أن مرت كل هذه الأهوال ، وهي حامل في (جاك) الذي صار — فيما بعد — جاك الثاني ملك انجلترا ، فكان لذلك جباناً تضرب بجبنه الأمثال ، حتى إنه كان يرتعد إذا رأى سيفاً يسل من غمده أمامه .

والتجارب الحديثة التي أجراها العلماء ويجرونها كل يوم على النفس ، تؤيد هذه النظرية كل التأييد ، فهل هناك حقيقة أمهات يقدرن هذا الموقف قدره ، فيكثرن أثناء الحمل من مراقبة عواطفهن وأفكارهن ، والعمل على ضبطها واستجماعها بالتزام الهدوء والسكينة ، حتى لا يكدرن صفو الطفل في منبته ومستقره ؟

ألا يجب على الأم في هذا الظرف العجيب — الذي تغرس فيه بذور الغرائز ، وأصول الاستعدادات والميول في نفس الطفل — أن تعتزل الحياة الاجتماعية العامة بعض الشيء ؛ فلا تتقيد بتلك الزيارات الطويلة المملة للأقارب والأباعد ؟ ألا يجب عليها ألا تسرف في غشيان دور الخيالة والتمثيل ، وأن تقتصد في التأنق والتجمل ، إذا كان فيهما

مايضيق على الجنين الخناق في مسكنه ومضجعه، فتعوق بذلك حركة الدورة الدموية فيه ، وتوقف نموه بعض الشيء ؟

وأول واجب عليها إذا رزقت طفلا ، أن تغذيه بلبنها إذا كانت صحيحة معافاة ، لأن لبنها هو الغذاء الطبيعي الوحيد ، الذي يناسب بنية طفلها وحاجاته ، وهو الذي يقيه الأمراض التي تهدده ؛ أما إذا وكلت أمر إرضاعه إلى مرضعة أجنبية ، فإن أقل ما يقال في هذا : إن إدخال لبن أجنبي في الأسرة ، هو إدخال دم أجنبي فيها، ووراثه أجنبية كذلك ؛ ذلك أن الناس لا يهتمون إلا بلبس المرضعة وغذائها دون أن يعنوا بقياس درجة ذكائها ، وتبين ميولها وعاداتها وأخلاقها مما يؤثر تأثيراً كبيراً في نفس الطفل وعقليته .

يقول (هربرت سبنسر)، في أهمية الغذاء واختيار الأغذية، ومعرفة القيمة الغذائية لكل طعام، والوقوف على أسرعها هضماً، وأسهلها تمثلا بالبنية ، وأنسبها لتركيب الأجسام ، مع مراعاة البيئة التي يعيش فيها الإنسان ، والأعمال اليومية التي تفرض عليه : « إن الأمم ذات السيادة والسيطرة ، هي التي تعرف كيف تتغذى ».

إن هذا القول ، وإن كان فيه شيء من المبالغة المقصودة ، إلا أن التاريخ والتجربة يؤيدانه إلى مدى بعيد ، وقد أجريت تجارب في بعض مدارس فرنسا حديثاً ، أسفرت عن أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين نوع الغذاء والأخلاق ، إذ شهدوا أن درجة تقدم التلاميذ ونجاحهم في الدرس ، وخضوعهم للنظام ، كانت تنمو وتطرد باطراد الغذاء المنظم

الذى كان يقدم لهم ؛ أما السير على غير هدى فى اختيار الغـذاء وتحديد كميته للأطفال والرجال ، فينشأ عنه انتشار أمراض المعدة،واضطراب الجهاز الهضمى ؛وقد شوهد أنها أكثر انتشاراً فى الطبقات الغنية منها فى الفقيرة .

والهواء النقى غذاء ضرورى للطفل ، كاللبن وغيره من الأطعمة الأخرى سواء بسواء ، فقد يستغنى الإنسان عن الأكل والشرب ساعات وأياماً ؛ ولـكنه لا يستطيع بحـال أن يستغنى عن استنشاق الهواء بضع دقائق ؛ فيجب على الأبوين أن يعنيا برياضة طفلهمـا كل يوم فى المتنزهات ، حيث الهواء الطلق والشمس والخضرة، وأن يباشرا ذلك بنفسهما كما يفعل الانجليز : خاصتهم وعامتهم .

والقارىء يعرف ـ بلا شك ـ مقدار الضرر الذى يلحق الطفل إذا وكل أمره إلى الخادمات : فقد رأيتهن مراراً وتـكراراً يتركن الطفل فى عربته يبكى ويئن تحت أشعة الشمس المحرقة ، يستغيث ولا يغاث ، على حين تلهو الخادمة بالمحادثة مع الرجال من الخدم وغيرهم ، ثم هى بعد ذلك تأتى وتوسعه شتماً وسباً ولـكماً أحياناً .

والغرض الذى ترمى إليه الأسرة الانجليزية من تربيـة أبنائها فى هـذه السن ، والذى يجب أن يـكون غرض كل أسرة من الأمم ، هو أن يشب الأطفال أصحاء البنية ، أقوياء الأجسام ، وأن يتعودوا ـ بالمران والدربة ـ العادات الحسنة والأخلاق القويمة .

وعلى ذلك تنحصر مهمة الأسرة فى التربية البدنية والخلقية لاغير ؛ أما التربية العقلية فتأتى بعد ذلك ، لأن العقل لا يظهر إلا فى سن متقدمة .

لذلك كان المربى الانجليزى « توماس أرنولد » يقول : « إن التعجيل بالأطفال إلى طلب العلم وشحن قرائحهم بمسائل علمية لايفهمونها ؛ قد يودى بغضاضتهم ونضرتهم ، ويطفىء فيهم البادرة ونور البديهة ؛ ولن يلاقى الأطفال فى حياتهم الأولى وبالا شراً عليهم من سبق عقولهم لأبدانهم » .

وكان ـ وهو ناظر لإحدى المدارس ـ يرتع ويلعب مع تلاميذه الصغار ؛ ويخرج معهم فيترامون جميعاً بكرات الثلج ، ويسبحون فى الماء ،ويتسابقون فى الجذف بالزوارق ؛ وكان يقول :« إننا نرمى إلى خدمة الجسم وتقويته إلى أقصى حد مستطاع ، لا للتباهى به أو استخدامه فى قضاء مآرب شخصية ؛ بل لغرض أسمى وأرفع ، هو حماية الضعيف ونصرة العدل فى العالم أجمع، وفتح الدنيا، ووراثة الأرض ومن عليها » .

ثم يقول :«وحيث إننا نريد أن ننصب أنفسنا الخير الإنسانية ،فأول ما نفرضه على أنفسنا هو أن نكون أعزاء الجوانب أقوياء السواعد ».

وفى هذا كان يقول « عروة بن الزبير » من ألف وثلاثمائة سنة لولده : « يابنى العبوا فإن المروءة لا تكون إلا بعد اللعب» ؛ والمروءة هى القيام بما فوق الواجب ، كنجدة المستغيث ، وحماية الضعيف .

وإلى القارىء صوتاً من أمريكا فى هذا الصدد .

يقول (أميرسون) : « يجب على الإنسان أن يكون حيواناً قوياً ، إذا شاء أن يكون النجاح حليفه فى هذه الحياة ؛ وإن الأمة التى تريد أن تتبوأ مقعد صدق بين الأمم الراقية ، يجب أن تتألف من أفراد كالحيوان بأساً وقوة » .

والواقع أن سلامة النفوس تتوقف إلى حد بعيد على صحة الأجسام ؛ فمن النادر جداً أن نجد ذكاءً متوقداً فى جسم خامد . والمشاهدات اليومية تدل على أن التردد فى الأعمال من شأن ضعاف الأجسام ؛ أما الأقوياء الأصحاء فهم موطن الجرأة ، والإقدام ، والثبات .

ويشاهد فى مجال الأخلاق كذلك أن الحلم ، وطيبة القلب ، ورحابة الصدر ، لا تكون إلا حيث الصحة ، أما ضعف الجسم واضمحلال البدن فإنهما مدعاة لسرعة الغضب وضيق العطن ، ومبعثة للظلم والجور فى كثير من الأحيان .

نقف عند هذا القدر من التربية البدنية ، لنقول كلمة ختامية فى موضوع التربية الخلقية ، وهى لا تقل عن الأولى خطراً واعتباراً .

التربية الخلقية :

إن الولد الصغير يتأثر منذ الولادة بالبيئة التى يعيش فيها ، وينظر إلى ما حوله من الأشياء نظرة المتحير المدهوش الذى يجهل فيها كل شىء ، ويريد أن يقف منها على كل شىء .

والذى يساعد على تأثره بالبيئة المحيطة به ، مرونته العظيمة وقابليته السريعة لانطباع صور الأشياء فى ذهنه وبقائها فيه زمناً طويلا .

ومخ الطفل فى سنيه الأولى يحفظ عـدداً عظيماً جـداً من الألفـاظ والعبارات بسرعة مدهشـة ، ثم هو يقلد تقليـداً محكما كل ما يصـدر عن والديه والمحيطين به ؛ فابتساماته الأولى وإشـاراته الأولى محـاكاة وتقليـــد ليس غير ؛ وكذلك المشي فإن الولد يمشى مشية أبيه ويتكلم ألفاظه وعباراته، وكذلك البنت تلبس مثل أمها وتمشي مشيتهـا وتنطق بلغتها ، حتى إذا كان فى نطقها بعض العيوب فإنها تنقله عنها .

وبالاختصـار نقول : إن مخ الطفل فى هـذه السن الصغيرة يشبه ـ فى سرعة التقاطه صور المرئيات ـ الآلة المسجلة ؛ بل هو يتحـدى أعظم تلك الآلات سرعة ودقة ، ففيه تنطبع الأقوال والحركات والإشارات كلها كما هى بلا تغيير ولا تبديل ، ودون تمييز بين الخبيث والطيب ، أو الصالح والطالح .

فواجب الوالدين والأهل إزاء هـذه الآلة المسجلة البديعة أن يتخيروا أحسن ما عندهم من الألفاظ والعبارات التى يتكلمون بها أمام الأطفال ، ويعنوا بألا يقع نظرهم إلا على النماذج الحسنة والمثل الصالحة .

ولنذكر على سبيل التمثيل حالتين هامتين :

الأولى : يجب على الأهل أن يجتنبوا ـ ما استطاعوا ـ المنازعات والمخاصمات الزوجية أمام الأطفال ، فإنهـا تنقش فى أذهان الأطفال ويبقى أثرها فيهـا مدى الحياة ، بخلاف الزوجين فإنهمـا لا يلبثان أن

ينسيا كل ما وقع من هـذا القبيل بينهما لكثرة مشاغلهما ، ولأن الحياة الزوجية لاتخلو منها .

الثانية : قد يبيح الإنسان لنفسه فى منزله أن يتكلم بألفاظ وعبارات لا يستطيع أن يتكلم بها فى المجتمع ، فإذا خلا إلى زوجه قد يتناول مثلا سير الناس بشيء من الذم والقدح ، كما هو المشاهد فى كثير من الأحيان ، فإذا قيل ذلك أمام الأولاد الصغار غرس فى نفوسهم أقبح العيوب وأشنع العادات ، كالغيبة والحسد والحقد وما إلى ذلك .

هـذا هو الشق السلبى من التربيـة الخلقية فى الأسرة ؛ لأنه يكفى أن يمتنع الوالدان عن ارتكاب مثل تلك الهفوات لتكون بيئة الأسرة بيئة صالحة لتنشئة الأطفال تنشئة حسنة .

والشق الثانى إيجابى : ويجب على الوالدين إزاءه أن يبثا فى نفوس أبنائهما بعض الفضائل الخلقية الأساسية التى تقوم حائلا منيعاً أمام رغائب النفس فتمنعها السقوط فى شهواتها .

وتلك الفضائل هى بمثابة الضابط الذى ينظم أحوال النفس ، كما أن المجموع العصبى فى الجسم هو الضابط الذى ينظم حركات أعضائه المختلفة ويوزع عليها جهوده ، كل عضو بنسبة العمل الذى يؤديه للمجموع .

وإن طبيعة الطفل نفسها هى التى تملى علينا نوع الفضائل الخلقية التى يجب أن نعنى ببثها فيه ، ونقشها فى ذهنه نقشاً يبقى فيه مدى الحياة .

إننا إذا تأملنا تلك الطبيعة ، ودققنا النظر فى أطوارها وأحوالها لا نلبث أن نتبين فيها خصلتين بارزتين :

الأولى : عدم الاستقرار ، وسرعة التنقل من فكرة إلى فكرة ، ومن عاطفة إلى عاطفة ، ومن عمل إلى آخر ، دون مناسبة أو رابطة ؛ فتراه يغضب ويرضى ، ويضحك ويبكى على التوالى ، بسرعة مدهشة ، وبلا داع ، أو لداع تافه لا يذكر .

وهذا النزق ، وهذا الطيش ، كانا من أهم مميزات الإنسانية فى طورها الأول ، ولا يزالان ظاهرين فى الأمم المتأخرة التى لا تزال فى أحط درجات الحضارة والعمران . فبينا ترى الرجل منهم يتهيج بسرعة لأقل الأسباب وأوهاها ، إذ به لا يلبث أن يهدأ ويسكن لكلمة بسيطه توجه إليه ، وبينا هو عدو مبين ، إذ به صديق حميم ؛ وتلك حال يعرفها السائحون والكاشفون ، وكثيراً ما يستغلونها لفائدتهم ، وإنجاح مشروعاتهم فى تلك البلاد . وقد قطعت الإنسانية شوطاً بعيداً فى هذه السبيل ، وظلت أجيالا وقروناً حتى انتقلت من الخفة والطيش إلى الرزانة والاستقرار ، اللذين نشاهدهما الآن فى أفراد الأمم الراقية .

هذه هى سبيل الأمم فى التدرج فى الرقى ، وتريد التربية أن تتدرج بالطفل فى هذه السبيل ، ولكن على أن تقطع فى بضع سنين الأدوار التى قطعتها الإنسانية فى عدة قرون .

وعلاج الأطفال فى هذه النقطة يسير لا يحتاج إلى عناء كبير ؛ ذلك أنه يوجد فى الطفل — بجانب نزقه وخفته — ميل كبير إلى التعود السريع ، فتراه إذا أتى عملا جملة مرات يألفه ويعتاده ويواظب عليه بدقة مدهشة ، لدرجة أنه يغضب إذا اضطر للعدول عنه . فإذا أجلسته إلى المائدة فى محل معين أياماً متتالية ، فإنه يسرع إليه ويجلس فيه من تلقاء نفسه ، وإذا اعتدى عليه أحد من إخوته وانتزعه منه ، فإنه يغضب ويغادر حجرة الأكل ؛ وكذلك يتعود الأكل بأدوات مائدة معينة ، ويحب ألا يخدمه إلا الخادم الذى اعتاد أن يخدمه ، وهكذا.

الخصلة الثانية : ميله الفطرى إلى تجاوز الحد فى كل مقصد وبلوغ الغاية فى كل مأرب ؛ فاذا أحب شيئاً ، فإنه يذهب فيه إلى أبعد مدى — إلى درجة النهم — وإذا منع منه ، فإنه يغضب ويبكى ويتمرغ على الأرض ، كما يقول « داروين » ، ويضرب وجهه بيديه ، ويدفع كل ما يعترضه من الأشياء فى طريقه ، حتى ليخيل للإنسان أنه إذا تركه وشأنه على هذه الحال مات غيظاً وكمداً . فالتربيـة الحقة تحتم وضع حد لهذه العواطف الثائرة ، التى إذا لم يكبح جماحها فى الأطفال منـذ الصغر ، ألقت بهم فى هاوية سحيقة لا منقذ لهم منها .

ولقد صـور الشـاعر الألمانى العظيم جوته — منـذ مائة عام تقريباً — مقدار تملك العـواطف للإنسان إذا لم تحد ... فى شخصية

(فاوست) الذى يحدثنا التاريخ عنه بأنه رجل عاش فى القرن السادس عشر للميلاد ، وكان مثالا بارزاً للتعطش الزائد إلى ملاذ الحياة جميعاً ، والانهماك فيها ، وبلوغ أقصى الغايات فى كل مايريد من علم ونفوذ واستمتاع ، فكانت عاقبة هذا الشره غير المحدود ، أن عاش طول حياته يعانى أشد الآلام ، ويقاسى أمرَّ الأحزان ؛ وقصته مشهورة معروفة وهى تبسط كل ما أجملنا .

وقد توصل علماء النفس فى هذا العصر — بعد البحث والتنقيب والتجريب — إلى معالجة هذه الخصلة فى الأطفال ، وقرروا أن الطفل فى سنيه الأولى يكون فى حال عقلية شبيهة بعقلية النائم بطريق الإغواء أو الإيحاء المغناطيسى .

التنويم المغناطيسى :

نعرف أنه يشترط لنجاح التنويم المغناطيسى شرطان أساسيان :

الأول : أن النائم يكون فى شبه تبعيـة تامة للمنوِّم ، فتراه كأن إرادته قد سلبت ، وكأن عقله قد أُلغي وخلا من كل فكرة ، وكأنه قد أصـبح فى عزلة تامة عن الوسـط المحيط به ، فلا يرى إلا شخص المنوِّم ، ولا يسمع إلا كلامه ؛ وعلى ذلك فكل فكرة يوحى بها إليه تدخل ذهنه فلا تجد فيـه فكرة أخرى تنازعها أو تعارضها ، فيطيعها وينفذها بالفعل .

الثانى : يجب على المنوِّم أن يوحى إلى النائم الأفكار بصيغة الأمر « إنى أريد »، وأن يشعره بأن أمره نافذ لامحالة ، وأن واجبه أن يطيع

ويمتثل لهـذا الأمر ، أما إذا خاطبه بغير صيغة الأمر الحاسم ، بأن شرع يناقشه فى الفكرة الموحى بها ، فقد زالت كل سلطة له عليه .
وهذان الشرطان متوفران فى الطفل فى علاقاته مع المربى والوالدين .

أولا : لأنه فى هذه السن الصغيرة ، فى حالِ تبعية لمربيه ولوالديه شبيهة بتبعية النائم للمنوِّم السابقة الذكر ، فإن ذهن الطفل ، وإن لم يكن خالياً من كل نقش(Table Rase) إلا أن مافيه من ميول وغرائز وتصورات شيء يسير لايستطيع أن يقف حائلا دون دخول الأفكار الجديدة فيه ، ولذلك كان الطفل سريع التأثر بالقدوة والمثل ، سهل الانقياد ، شديد الميل إلى التقليد والمحاكاة .

الثانى : لأنه إذا خاطبه المربى بصيغة الأمر ، فإنه يمتثل أوامره ويطيع نصائحه بلا تردد ولا توان .

والتجارب البسيطة الآتيـة تؤيد ذلك كل التأييد :

إذا وقفت أمام طفل عمره سنتان ونصف سنة ، وقد شرع فى أكل قطعة من الخبز ، وقلت له بصوت عال وبدون إبداء أى سبب: «الآن قد شبع الطفل»، والحال أنه لم يتناول إلا اللقمة الأولى ، فإنه يلقى بقطعة الخبز الباقية إلى المائدة ويَنْفُض يده منها، ويظهر أنه شبع تماماً.

وقد أمكن بالطريقة عينها إقناع أطفال فى سن الرابعة بأن الألم الذى يشكون منه عقب وقوعهم على الأرض ـ مثلا ـ قد زال تماماً، وأن مابهم من عطش زائد قد أطفئ وزال كذلك ؛ كل هذا بشرط أن يكون الكلام الموجه إليهم فى هذا الصدد بصيغة الأمر القاطع ؛

ومن غير إزعاج الطفل وإيقاع الرعب فى قلبه .

بهذه الطرق الحكيمة ، والأساليب العلمية الصحيحة ، يجب أن نأخذ النشء من بدأ حياتهم حتى يشبوا على ضبط أنفسهم وكبح جماحها، ويتعودوا إيقاف كل رغبة من رغباتها عند حد معين ، فلا يطلقون العنان لواحدة منها حتى تتعدى طورها وتجاوز حدها ، فتضر بالمجموع ضرراً قد يورده موارد الخسران والهلاك ؛ فحياة الفرد كحياة الأمة : توازن قوى، يحتوى بعضها بعضاً ، ويدفع بعضها بعضاً ، فاذا اختل هذا التوازن أعقبه الهلاك والفناء .

يقول مسيو (أميل دوركين) فى كتابه (التربية الخلقية) : «إن أمة لا تفرح بالفن ، ولا تتذوق جماله ، أمة متوحشة ، ولكنها من جهة أخرى ، إذا لم تُشغل إلا بالفن خاصة ، مهملة بذلك شئونها الحيوية الجدية الأخرى ، بَشِّرها بأن عمرها قصير وأيامها محدودة » .

وقصارى القول: إن النشاط الإنسانى يجب أن يخضع فى جميع نواحيه لنظام خاص ، وأن تقف كل ناحية منه عند حد معين ، وغاية محدودة ؛ فكما أن الإنسان إذا أراد أن يطفئ ألم الجوع ـ مثلا ـ أخذ مقداراً معيناً من الغذاء ، كذلك الحال فى المعقولات ، فإن الاجتهاد فى تحصيل العلم إلى أقصى مدىً ، يضر أولا بالمجموع العصبى ذاته ، كما يضر بقوة الارادة التى تأخذ ـ طبعاً ـ فى الضمور والاضمحلال كلما غلا العقل وتوغل فى كسب العلم .

التربيـــــة فى انجلترا

التربيـــة فى انجلترا*

وموازنتها بالتربية فى فرنسا

منذ عشر سنين أذكر أنى قمت مثل هذا المقام بين جملة من المتخرجين فى دار العلوم وطلابها، شارحاً شيئاً من آراء هربرت الألمانى فى التربيــة ؛ واليــوم أتشرف بأن أقوم أمام جماعة المعلمين لأذكرهم ببعض مايعلمون من آراء الانجليز فى التربية والتعليم ، والموازنة بينهـا وبين التربية والتعليم فى فرنسا ، على ما اتسعت له الطاقة وبلغ الجهد ، لعلنا نجد فى شيء من ذلك نفعاً للغلة، وإنهاضاً للتربية فى بلادنا إلى مثل منزلتها العالية فى الأمم الراقية .

وإن المعـلومات التى سأذكرها لـكم مستـمدةٌ من كتب فرنسية وضعها سنة ١٨٩٥ كتَّاب فرنسيون تربوا فى انجلترا ودرسـوا طرق التربية فيها ،وعرضت كتبهم على المجمع العلمى فأقرها ونالت بذلك صبغة رسمية أو شبيهة بها ؛ وسترون من نص حديثها أنها كثيراً ماتؤثر الطرق الانجليزية على غيرها ،وليس ذلك بدعاً فالفرنسيون لايأنفون أن يحتذوا أمة من الأمم فى فرع من الفروع إيثاراً للحق وضناً بالنفـع واعترافاً بالفضل لأهله، وما أعـدلهَـم إذ يقولون :«أعطِ ما لقيصرَ لقيصر»

ولئن يَسَّر الله لى غداً العثور على معرفة صحيحة فى طرق التربية عند

---

* ألقيت هذه المحاضرة على ملأ من رجال التعليم بنقابة المعلمين فى يناير سنة ١٩٢١ ومايو سنة ١٩٢٥ .

الأمريكان أو اليابان لأتقدمن فى موافاتكم بها وإيقافكم عليها إن رأيت فيها ما يُصلح من حالنا ويُقَوِّم من عِوجنا .

« فالحكمة ضالة المؤمن ينشدها حيث يجدها » ، وتعلمون أن الأمة كالفرد لن ترقى رقيها وتنزل منزلتها حتى توازن بين أسبابها وأسباب غيرها من الأمم الراقية ، أما إذا اعتزلت من عداها من الأمم فإن مثلها يكون كمثل الماء الراكد تنتابه عوارض الفساد ويصبح قرارة لجراثيم الأمراض .

ولقد علمت بطول الاختبار أن علم التربية — على جلالة قدره وعظيم منزلته وجمال أثره فى النفوس — يتركب من عدة قضايا صغيرة واعتبارات وملاحظات تظهر لأول وهلة أنها تفهة لا يؤبه لها ، ولكنها مع المداومة وطول الأناة قد يكون لها من النتائج ما لا يكاد يتصوره الإنسان .

قلَّ أن يقرأ الإنسان حكاية أو يسمع فكاهة دون أن يجد فيها غرضاً من أغراض التربية المتشعبة ويضيفها إلى باب من أبوابها المتفرقة .

ألا إن مجال فن التربية واسع المدى ، بل لا حد له ؛ ولا غرو فموضوعه الإنسان ، وهو ذلك اللغز المغلق الذى حارت البرية فى فهم كنهه والوصول إلى غوره

وتزعم أنك جِرْم صغير ... وفيك انطوى العالَم الأكبر

نظام التربية والتعليم فى انجلترا :

إن نظام التربية والتعليم فى انجلترا يختلف اختلافاً ظاهراً عنه فى فرنسا وفى غيرها من سائر الأمم الأخرى .

والإنجليز يتمسكون به ويحرصون عليه أشد الحرص، ولن يقدر أحد من المصلحين على نقد قاعدة أو عادة منه أو نقض عقيدة من عقائده ولو كانت أشبه بالخرافة، إلا أن يسلك إلى غرضه سبيل الملاينة، ويبذل من الحكمة والمصانعة قدراً عظيماً، فإن لم يفعل فإنه يؤذَن بحرب ويؤذَى بكل لسان.

وإنا لباحثون في الأطوار التي يمر بها الشاب الانجليزي والبيئات التي يجتازها من بداءته الأولى إلى أن يضع قدمه في معترك الحياة لنوفي الموضوع بعض حقه من البيان والشرح، فنقول:

يمر الانجليزي من مدرج طفولته إلى أن يكون كهلا ببيئتين عظيمتين، كلتاهما عالم في ذاته كامل في عدته، وهما البيت والمدرسة، فيصقل فيهما صقلا ويصاغ صوغاً يبقى أثره فيه مدى الحياة.

وفي كلا الموطنين يُعنى بتربيته تربية كاملة جامعة بين إنماء الجسم وتهذيب الخلق وتثقيف العقل، لأن الانكليز لا يفرقون — كغيرهم — بين التربية والتعليم، ولا يستطيعون أن يتصوروا في أنفسهم أن يقتصر عمل البيت أو المدرسة على تخريج رجال أفاضل مهذبين لا علم عندهم، أو علماء متبحرين لا أخلاق لهم ولا خير فيهم.

فالتربية والتعليم عندهم يمتزج بعضهما ببعض، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، حتى إن لغتهم نفسها — على سخائها — لا تجود عليهما إلا بكلمة واحدة جامعة للمعنيين هي كلمة (Education) أي تربية.

وإذا كانت الحكمة الإلهية قد جعلت تدرج الإنسان في أدوار

حياته سائراً على خطة معينة، فكان نمو جسمه وتيقظ وجدانه سابقين ظهور العقل، وجب على المربين أن يحتذوا مثالها ويجروا على رسمها بادئين بتربية البدن وتهذيب الخلق ومعقبين بتثقيف العقل، والإنجليز تلاميذ الطبيعة فهم مغرمون بتقليدها فى كل شئ .

التربية البيتية :

يتألف المجتمع الراقى الانجليزى من قبيلين من الناس : العصاميين وهم الذين عركوا الدهر وذاقوا حلو الأيام ومرها، ودرسوا أخلاق الأمم فى مدرسة الحياة العملية (Self made men)، والعظاميين المربَّين فى المدارس الذين تفيئوا ظلال العلم فى الجامعات العتيقة (University men) ، وكلاهما من قبل مُنَشَّأ على أساس واحد فيه طابع التربية البيتية .

البيت :

عند الانجليز لفظ وجيز هو (Home) يعبرون به عن البيت ، وهو عندهم لفظ حسيب قيم ، قد يقل وجود كلمة تماثله فى اللغات الأخرى .

ذلك البيت بمعناه المفهوم عند الانجليز هو الحرم المقدس الذى لا يأوى إليه إلا أفراد الأسرة ، وله فى قلب كل انجليزى منزلة لا تساميها منزلة ، يلهج بذكره أينما حل أو رحل ، ويطرب لسماع أحاديثه العذبة وذكرياته المحبوبة التى يعتقد أنه وحده الذى يحس جمالها ويدرك كنه تأثيرها ، ويتغنى بمجده وشرفه شعراً ونثراً بأنه حمى يتمتع الإنسان فيه بالراحة الهادئة والاستقلال التام ، وينعم بالأمن الذى لا وحشة معه والصفاء الذى لا كدر فيه .

فاذا دخلته هموم الدنيا الخارجية أو سمح أحد الزوجين لأجنبي ـ بعيد عن الجد والأدب ـ أن يطأ بقدميه عتبته فهو ليس بالبيت المنشود وإنما هو بناءٌ سُقِّف بسقف وأُضيء من الداخل بمصباح ، أعنى أن له صورة البيت وليس ببيت .

البيت الخليق بهذا الاسم عندهم هو ذلك الحرم المقدس المحفوف من جوانبه برعاية الله ، لا يعتوره الفساد من بين يديه ولا من خلفه ، ولا يدخله إلا من يقابل فيه بالترحاب من المخلصين من الآل والأصحاب .

وقد ترجمته بالبيت لأن البيت يأتى بمعنى العيال ، فيقال « بيت الرجل عياله » ، ويأتى أيضاً بمعنى الشرف فيقال « بيت العرب شرفها »

عميد البيت :

وعميد البيت هو الزوج القابض على زمامه المتصرف فى أموره ، يدير شئونه على مايرى غير مدافَع ولا منازَع ، فهو الذى أسسه وشيد دعائمه ، والقانون والاجتماع يلقيان على عاتقه تبعة القيام بأعبائه وهديه إلى التى هى أقوم حتى يبلغ به أقصى درجات الكمال ، لا يسأل على ذلك أجراً إلا الطاعة والاحترام ، فهو يريد أن يكون أباً محترماً قبل أن يكون أباً محبوباً ، وقد انطبعت هذه الإرادة فى نفوس بنيه وذويه حتى إنك لتسمع الشاب الانجليزى — أكثر ما يكون — يخاطب أباه بكلمة sir أى سيدى ، كما يخاطب الخادم سيده ، وقد لاحظ كاتب أمريكى ـ مع شئ من الدهش والاستغراب ـ أن المرأة فى انجلترا تعتبر الرجل أرقى منها مكانة وأسمى منزلة ، فقال : « إن انجلترا هى جنة الرجال »

والسبب فى هناء الانجليزى فى بيته ورغَد عيشه أنه: أولاً يعرف كيف يحترم نفسه ، ثانياً أنه هو الذى أسس البيت وشيد دعائمه على نفقته فكان سيده، لأن أكثر الانكليزيات يتزوجن فقيرات لايقدمن مهراً، فلهذا ترى الانكليزى محترماً فى بيته؛ أما الذين يطلبون المال من الزواج فهؤلاء لهم أن يطمعوا فى المال كما يريدون ، ولكن هيهات أن يطمعوا فى الشرف، بل لابد لهم من النزول عنه لمن اشترينه منهم بأموالهن، ولا ريب فى أن النزول عن الشرف نزول عن الحياة؛ فإن الشرف غذاء النفس كما أن الطعام غذاء الجسم،فهما فى قِوام الحياة سَّيان،ولله در الإمام على إذ يقول: «احتج إلى من شئت تكن أسيره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره » .

وقد أكد ذلك الاحترام ما خوَّله القانون إياه من السلطة التامة ، والتصرف المطلق فى أموال الأسرة بأكملها ، فأمرُه طاعة، وإرادته ماضية على زوجه وولده ، لا يقتر على نفسه ابتغاء التوسعة عليهم ، ولا يتكالب على جمع المال ليتركه من بعده لهم .

وقصاراهُ أنهُ ملزم ــ بمقتضى الرسوم القومية والقانون أحياناً ــ بردّ ضيعة بعينها أو وصية خاصة إلى بِكر أولاده ، كما صنع أبوه من قبل ؛ وبعد ذلك هو مَلك مطلق فى مملكته، محترم بين رعيته احتراماً يكاد يكون دينياً . ولا كذلك الأب الفرنسى، فإنهُ فى أسرته أشبه برئيس منتخَب فى مجلس نيابى أسس على المشادَّة والمناقشة . يقول مستر همرتن فى كتابه (الانكليز والفرنسيون) المطبوع سنة ١٨٩١: «سألت فرنسياً

من أصدقائى: مابال أولادك يكلمونك بحرية تامة دون أن يظهر عليهم أنهم متأثرون بهيبة السلطة الأبوية؟ فأجابنى: وكيف ننتظر منهم احتراماً واعتباراً، ونحن قد علمناهم احتقار معتقدات آبائنا وأنظمة أجدادنا؟ إننا لم نغرس فى قلوبهم خلة الاحترام».

قال: «وأما نظرية الانكليز فى احترام الأبناء للآباء فتؤخذ مما يلى: عرفت شاباً كان لا يذهب إلى الكنيسة إلا نادراً، ولما رزق أربعة من الأولاد وبلغ البكر منهم سن العاشرة، أخذ يذهب إليها بانتظام، لاعتقاده أن الدين من ألزم الأمور العاملة فى التربية، وأن من الواجب عليه أن يكون قدوة حسنة لأولاده كلما شبوا وترعرعوا. وكان يلعب (التنس) يوم الأحد فى حديقته، فأبطل هذه العادة أيضاً تعزيزاً لما يتلقاه أولاده فى المدرسة من احترام ذلك اليوم، وترك العمل فيه اقتداءً بالخالق جل شأنه على ما يعتقدون، واستن لنفسه من ذلك الحين السُّنة الآتيـة: احترِم إذا شئت أن تُحترَم ».

الزوج الانجليزية :

أما المرأة الانجليزية فتمتاز بالشجاعة والإقدام والصبر على احتمال المشاق، لا تهتم كثيراً بما يأتى به الغد ولا تهاب ما قد تضمره لها الأيام والأسفار البعيدة من المباغتات والمفاجآت، فهى ظل زوجها حيث سار، تشاطره الخفة فى الحركة، والمضاء فى العزيمة بما أوتيت من بسطة فى الجسم ومتانة فى الخلق، فهى زوج تحرص قبل كل شىء على القيام بواجبها نحو زوجها على أفضل ما يكون، ثم تُعنى بتربية أولادها على أكمل

وجه وأتمه، فهى زوجة قبل أن تكون أماً ، بخلاف المرأة الفرنسية فإن حبها لولدها يقدُم كل شيء ، ثم يأتى بعدُ حبُّها لبعلها، حتى كأنما هى أم قبل أن تكون زوجاً ، وقد تغلو فى ذلك إلى حد الإخلاد إلى الراحة والأمن والاكتفاء بقليل من سعادة داخلية يسيرة ، فلا تجشم زوجها صعاب الأسفار وركوب الأخطار ، لأنها لا تبتغى الانفصال عن أولادها والتغرب عن أوطانها ، فكم من همم ثبطت، وأعمال أحبطت، ومشروعات أبطلت ، بركونها إلى الدعة وإفراطها فى الحنو على أولادها.

ذهب العالم الطبيعى الفرنسى (ملن أدواردز) لزيارة اكسفورد مرة، فأخذه الدهش من قلة مايدرس فيها من العلوم، وبينما كان ذات ليلة يستريض مع من كانوا مكلفين مرافقته ، وكان من بينهم أستاذ علم الجيولوجيا ، وهو معروف بالصراحة التامة ، إذ قال لهم : مابال الشبان الانكليز لا يتعلمون فى المدرسة إلا قليلا من اللاتينية واليونانية، ويقضون بقية أوقاتهم فى لعبة الكريكت والسباحة والجدف، ثم يصبحون من غير عناء رجالا من الطراز الأول ، وحكاماً حاذقين ، وسياسيين محنكين كبَلْمَرستون وغلادستون ؟ فأجابه أستاذ علم الجيولوجيا من فوره "They have got English Mothers" أى: ذلك بأن لهم أمهات إنجليزيات. والجواب على بعده من الظرف والمجاملة اللائقة بالضيف، فإن فيه أكبر قسط من الحقيقة، لأن الأم المهذبة من أهم العوامل الناهضة بالأولاد إلى ذروة السعادة والمجد. ولقد أحسن شاعرنا « حافظ» إذ يقول:

والأُم مدرسة إذا أعددتها   أعددت شعباً طيب الأعراق

الأم الأنكليزية تشغف بأولادها ، وتقوم بالواجب لهم خير قيام ، فترضعهم بنفسها وتشرف على حركاتهم وسكناتهم كامل الإشراف ، ولكن لا يرى على وجهها أو من خلال أعمالها ذلك الحنو الزائد وتلك الشفقة التى تفيض عادة من غيرها من الأمهات ؛ فهى تسير فى تربيتهم على قاعدة قويمة وخطة مرسومة ، فتدعهم منذ نعومة أظفارهم يكابدون الحوادث ويلمسون الأخطار بأنفسهم ويتعرفون ماحولهم ، ليميزوا الخبيث من الطيب ، وليفرقوا بين الغث والسمين ، واضعة نصب عينيها أمراً مهماً ، هو غرس بذور الرجولة فى نفوسهم وتكوين مبادىء الشجاعة والشهامة فى طباعهم ، حتى إن الواحد منهم إذا هَمَّ بالبكاء عند وقوعه على الأرض ابتدرته بقولها له "Be a man" أى : كن رجلا ولا تبك ، فإن البكاء المسموح به لأختك عار عليك . يسمع الطفل عشرين مرة فى اليوم « كن رجلا ولا تبك فإن البكاء عار على الرجال » فتؤثر فى نفسه بالتكرار والاستمرار ، وقد شوهد كثير من الأطفال قبل أن يعرفوا القراءة والكتابة ، بلغ من تربيتهم على هذا النمط أنهم يملكون أنفسهم ويضبطون عواطفهم حتى إنهم ليمسكون عن البكاء إذا مسهم الضر أو نالهم أذى ، وبينما هم كذلك يدرجون فى مدارج الرجولة ويدربون على تذليل العقبات ، إذ بالشاب الفرنسى لا يزال غراً لا يعى من ذلك شيئاً لوجوده بين اثنين : أم لا تدعه لحظة يعانى المصادفات ويقاوم الطبيعة ، ممسكة رجليه حتى لا تزلَّ قدماه إذا كان صغيراً ، قابضة على زمامه كى لا يركب شططاً أو يأتى غلطاً إذا كان كبيراً ، وأب يظل نهاره

يكدح فى جمع ثروة يتركها له من بعده، فهو بين أبوين: أم تسعد له الحال، وأب يكفل له المستقبل .

حكاية مدام (ا) ومدام (ب)

مدام (ا) باريسية تقطن باريس وتربى أولادها على النمط الفرنسى طبعاً .

ومدام (ب) باريسية أيضاً، ولكنها سكنت مدينة لندن، فربت أولادها على الطراز الانكليزى.

وحدث أنهما حضرتا معاً فى العطلة الصيفية إلى ريف فرنسا وأقامتا بقريتين متجاورتين .

وكانت المسافة بين منزل مدام (ا) ومدرسة ابنها خمسمائة متر ، حين كانت المسافة بين منزل مدام (ب) ومدرسة ابنها أربعة كيلو مترات ، ولكن مدام (ا) - مع قرب مدرسة ابنها من المنزل - كانت ترافقه إليها ذهاباً وجيئة لا تفتر عن ذلك يوماً واحداً.

أما مدام (ب) فقد وكلت ابنها فى ذهابه إلى المدرسة البعيدة عن منزله إلى نفسه، فكان (وهو فى سن ابن صاحبتها) يخرج من البيت وحده مبكراً متأبطاً كتبه كالرجل المعتمد على نفسه، ويقطع الكيلو مترات الأربعة ذهاباً ومثلها إياباً دون أن يشغل بال أمه به.

تلك هى شفقة الأم الفرنسية، وهذه شجاعة الأم الانكليزية ، وكلاهما أمر حسن تحمد المرأتان عليه، وإن آثرنا الثانية على الأولى .

ولكن ماذا ترون فى الأم المصرية التى تسلم بنيها وبناتها إلى

الخدم ،وهم كما نعهد من أجهل الناس وأحطهم تربية وأسوئهم أخلاقاً ؟

لماذا لا نصحب أبناءنا وبناتنا إلى مدارسهم ومواطن حاجاتهم ، ونشفق بهم ـ وهم أفلاذ أكبادنا ـ أن يقبض على أزِمَّتهم من الخدم من يخشى أن يؤثر فساد أخلاقهم فيهم ؟

لعمرى إنها ثُلمة فى بناء تربيتنا المنزلية لا بد من سدها ، وعلة من عللنا الاجتماعية لا بد من علاجها ، لأننا ناهضون والناهض لا يدع فاسداً إلا أصلحه ،ولا يعرِّج على معوج إلا قوَّمه ، ولا يلوى على شعث إلا لَمَّه .

الأسرة الانجليزية :

يرزق الانجليزى عادة جماً غفيراً من الأولاد يجيئون متتابعين ، فيعنى بوضعهم فى حجرة منعزلة خاصة بهم تجرى عليهم فيها أحكام التربية فى سنيهم الأولى ،وتسمى بالمَرْبَى (Nursery) ؛والعوامل الأساسية التى يجب أن تتوافر فى المَربى ثلاثة : الأم والمربية والهواء ، وقد وصف الشاعر الشهير (راسكن) المَرْبى الراقى ، ذاكراً عهد طفولته فقال : إنه حجرة فى الطبقة الأولى من المنزل فسيحة الأرجاء ، متجددة الهواء ، وفيرة الضوء ، تامة النظافة ، غاية فى السذاجة، ينام فيها الطفل ويأكل ويرتع ويلعب ، لا يخشى كسراً لآنية ثمينة أو إقلاق راحة أمه المريضة أو التهويش على أبيه المنكب على عمله ، بها حوض كبير يستحمون فيه كل صباح بالماء البارد ليزدادوا قوة ونشاطاً ؛ ويراعى فى لباسهم السذاجة والسعة والنعومة، إذ ليس الغرض منه الزينة والتباهى

بجمال الثياب ، بل الغرض الوقاية من البرد والمطر والهـواء مع تمتـع الأعضاء بالحـركة الحرة والجرى واللعب على مايشتهى الأطفال ،وهم يأكلون معاً فى مواعيد مقررة ، وطعامهم غير متأنق فيه ولا متكلف، ويخرجون كل يوم للتنزه صيفاً وشتاء مستنفدين الساعات فى الجرى والوثب والطفر وتسلق الأشجار والتدحرج على الأعشاب ،متحملين فى ذلك تبعة أعمالهم ،وعليهم وحدهم يقع الضرر الذى ينجم عن عدم إعمال الروية والتبصر فى عواقب الأمور قبل البدء فى تنفيذها .

هذا هو المَـرْبَى الحائز جميع الشروط ؛وما كاد يصفه كاتب شهير كراسكن ويشير به ، حتى تبعه قومه فى كل ناحية واتخـذته جميع الأسر أنموذجاً صالحاً يقتدون به وينسجون على منواله ؛ والانكليز أكثر الناس اتباعاً لأقوال حكمائهم وعلمائهم وأسلهم قياداً واستسلاماً لأوامر رؤسائهم ،فاذا قال راسـكن فالقول ما قال راسكن ، وإذا قال سبنسر فالقول ما قال .

وتلك الطاعة المنبعثة عن الرضا ،الخالصة من شائبة الإكراه هى من صنع التربيـة الانكليزية التى أتقنت غرس الفضـائل الاجتماعية العالية فى نفوس أفراد الأمة ، لأنها الأساس الذى يقوم عليه بناؤها .

وأذكر على سبيل الاستطراد حكاية لا تعزب عن ذهنى كلمـا ذكرت الطاعة :

اشتهرت قبيلة عبس بالحـكمة فى القول والسـداد فى الرأى ،فقيل

لرجل منهم : «ماأكثر صوابكم !»فقال :«نحن ألف رجل وفينا حازم واحد وكلنا نطيعه فكأنا ألف حازم »

وبينما الطفل الانجليزى يشب فى المَرْبى على مبادىء الديمقراطية الصحيحة ، يعيش فيه كفرد من أفراد المجتمع، له ما لهم وعليه ماعليهم، لاسلطان له على أحد من إخوته ولو كانوا أصغر منه سناً ، نجد الطفل الفرنسي يعيش فى حضن أمه ملازماً لها ملازمة الظل للعود ، حتى لقد يلهيها عن العناية بالتزين والتجمل،ويجلس إلى المائدة مع أُمه وأَبيه وإخوته متى استطاع الجلوس،فيهوّش عليهم ببكائه، ويوسعهم من تدلله وصخبه، والكل خاضع لأَوامره ومنفذ لرغائبه،فعجيب ألاّ يشب هذا على حب الذات وقلة الاكتراث للتبعات .

إذا انتهى طور الطفولة انتقل الأولاد منه إلى مدرسة هى فى نظر الانكليز أهم المدارس نفعاً وأنجعها فى نفوس النشء، ألا وهى الأُسرة.

كثير من الأُمم يعتقدون أن الخير كله فى معالجة أبنائهم بالذهاب إلى المدرسة،ويظنون أنه خير مكان يقضى فيهِ الطفل شطراً وافراً من عمره ، أما الرأى العام فى انكلترا فلم يذهب مذهبهم ولم يرد أن ينتهج مسلكاً يناقض النواميس الطبيعية وبديهيات المنطق .

يقول الانكليز: كيف يعقل أن يكون بيت الانسان أقل البيئات ملاءمة لأَولاده ومعاشرته أقل فائدة من معاشرة الغرباء ؟ إلا إن الانكليز يعدون عيباً وعاراً ألا يكون الإنسان هو المدرس الأول

لابنه ، وألا تكون بيوتهم مجهزة بكل أداة صالحة للإعداد الكامل للطفل وغرس أصول الفضائل فى نفسه ، فكأنى بهم يقولون :

« ماحكّ جلدكَ مثل ظُفرك
فتولَّ أنت جميعَ أمرك »

وإن كثيراً منهم ليسيئون الظن بالمدارس ، ويرون أنها أردأ البيئات وأقلها صلاحاً لتهذيب الأخلاق لاختلاط السليم فيها بالأجرب .

لذلك لا يبكر الانكليز بفصل أولادهم عن البيت إلى المدرسة إلا قبيل العاشرة من عمرهم ، من بعد أن ينقش على صحائف أفئدتهم صورة جميلة من البيت وذكريات الطفولة ، لا يزال يطويها وينشرها ويتغلل فى نواحي نفسه حب الوطن مهما بعدت الدار وشط به المزار .

فليس عجيباً أن يجمع الانكليزى بين متناقضين : إنفاق زهرة العمر وريعان الشباب مهاجراً متغرباً تشرق به قاصية الأقاليم كالذين لا أهل لهم ولا وطن يضمهم ، والإغرام فى آن واحد ببيته والولوع بحب وطنه ، رافعاً عقيرته متغنياً بهما أينما حل أو رحل .

وإذا لم تتمكن الأُسرة من القيام بهذا الواجب لأَسباب قاهرة ، أو كان الأولاد قد نضجت أفكارهم ونزعوا إلى علم أوسع ومعارف أرقى مما يتهيأ لهم فى منازلهم وتحت رعاية آبائهم ، يرسلون إلى مدارس خاصة (Private Schools) يقوم بشئون التربية فيها رجل وامرأته ؛ أما الرجل فمن أفضل الناس رقة حاشية ، وكمال أدب ، وكرم عشرة ، وحسن معاملة ، فهو ممن يسميهم الانجليز (gentlemen)

ولقد أحسن الشاعر العربي فى وصف ذلك السرى المقصود بتلك الكلمة الانجليزية ، حيث يقول :

ومن ذا الذى ترضى سجاياه دائماً
سوى الفاضل الندب الأديب المجرب
تراه بماء اللطف طَهَّر ثوبه
وزين حَوْباه بخلق مهذب

إلى هذا السرى الذى أكثر ما يكون أستاذاً من أساتذة الجامعة (Aggrégé) ، يدفع الوالد ولده وفلذة كبده ، واثقاً من أنه سيتعهد بذور الصلاح فى نفسه ، ويجعل يومه خيراً من أمسه ، ويغرس فى نفسه مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، عالماً أنه لن يسمع ابنه معه هُجراً فى قول ، ولا يرى منكراً من عمل . يقبل هذا السرى فى داره من عشرة إلى عشرين تلميذا يعيشون معه ويقوم بتربيتهم وإعدادهم للتعليم الثانوى ، وإذا اضْطُر إلى قبول أكثر من هذا العدد تخلى عن بعض أعماله الأخرى ، أو استعان بسرى آخر من إخوانه المدرسين .

وأما الزوجة فهى من فضليات النساء ، تشرف على كل ما هو قِوام للحياة الداخلية من مأكل وملبس وما يتصل بهما من الشئون .

وهذا الطراز من المدارس كثير الانتشار جداً فى انجلترا ، ونقتصر هنا على ذكر اثنتين منه نضربهما مثلا لقومنا ، لعل فريقاً منهم ينصبون أنفسهم لخدمة بلادهم لهذا النوع من التعليم ، وفيه عدا ذلك لهم الحرية والغنى والشرف الدهر كله :

أولهما مدرسة (Bowden Hose School.) بالقرب من (Harrow) وهى تقبل التلاميذ من سن السابعة إلى الخامسة عشرة، ويتقاضى أستاذها عن كل تلميذ مرتباً يتراوح بين الثمانين والمائة جنيه فى العام .

والثانيــة مدرسة فى (Isle of Wight) قام بتأسيسها جماعة من خريجى (Cambridge.) واشتروا لهـا قصر الكونت (Yarborough) وتبلغ مساحته سبعمائة فدان انكليزى ، ولا تقبل هذه المدرسة ـ على اتساعها المفرط ـ أكثر من خمسين تلميذاً .

وفيها قسم لتعليم الحياة الاستعمارية (Colonial Life.) فيمرّن الأطفال فى هذا القسم على الأعمال الزراعية ويُعطون ضيعة يقومون بإدارة شئونها ويعلمون اللغات الذائعة (الحية) وخاصة الهندوستانية ، ويمنح الطالب الذى يبلغ سن السابعة عشرة حق اصطياد طيور المدرسة . وشجاعة تلاميذ تلك المدارس يضرب بها المثل .

حكى مسيو (تين Taine) فى كتابه (Notes Sura 1. Angleterre) أنه رأى غلاماً صغيراً ممتطياً برذوناً ووراءه أخواته الكبيرات، وفيما هم سائرون فى وسط الحقول إذ رأوا ثوراً ضخماً يتطاير الشرر من عينيه، فالتفت الغلام إلى أخواته وقال لهن : أيتها الفتيات اتبعننى ولا تخفن مكروهاً .

مما تقدم نرى أن الدعامة الكبرى التى يرتكز عليها صرح التربية الانجليزية إنما هى الثقة بالأطفال بمجرد أن يدرجوا ويفهموا، إذ يوكلون إلى أنفسهم فى جميع أمورهم : فى المرعى ثم فى البيت ثم فى المدرسة .

نعم يثقون بهم فى أعمالهم فيتركون لهم الحرية التامة فى اختيار السبيل التى يسلكونها ، بعد إيضاح الجادة لهم وإنارة الطرق أمامهم ، فاذا لم يجيدوا الاختيار ،فعليهم وحدهم يقع الضرر ، وكذلك يثقون بكلامهم فهم صادقون فى حديثهم مصدقون فى أهلهم وخلطائهم ، إلا أن تقوم حجة على غير ذلك .

وتلك هى الطريقة المثلى التى هداهم إليها المُربىّ الكبير الدكتور (توماس أرنولد) من أكثر من نصف قرن، كما سنذكره بعد،وهم يدينون بهـا ويحرصون أشد الحرص عليها . والغرض الذى يرمون إليه من اتباع هذه الطريقة هو تعويد أولادهم النشاطَ فى العمل ، والصراحة فى القول، والاستقلال فى الرأى ، والدُّربة على الثقة بالنفس والاعتماد عليها، وإيقاظ الشعور بالتبعة فيهم وقدرهم إياها منذ الصغر قدرها، فهم واثقون بأنفسهم وجديرون بالثقة فيهم :« They are self reliant aud reliable »

هذه هى أهم الفضائل التى يجهز الانجليز بهـا أبناءهم للنزول إلى معترك هذه الحياة ، لأن الولد أولاً لا يعتمد على ميراث من أبيه الذى خوله القانون حرية التصرف فى أمواله،وكثيراً ماقديأتى على رأس المال.

والأَب الإنكليزى من جهة ثانية لا يرى حقاً عليهِ الإنفاق على أولاده وتعليمهم إلا إلى سن السادسـة عشرة من أعمارهم ، ثم يتركهم لأَنفسهم ويلقى حبلهم على غاربهم ماعدا البِكر منهم وإن كان ذلك فى غير الأُسر العالية والعشائر الغنية .

لهذا وذاك ينزل الشاب الانكليزى إلى ميدان الحياة ، وليس يخامر فكره أقل شك فى أن عبء حياته كله ملقى على عاتقه، وأن سعادته معلقة على جده وسعيه ، وأن ليس له سلاح إلاّ الاعتماد على نفسه . فهو مسوق إلى العمل بقانون الضرورة ، مضطر إلى السعى بحكم الحاجة ، والحاجة تفتق الحيلة .

ومما يجدر بنا أن نلاحظه ولا نغضى عنه ، أنّ أخْذَ الانكليز أنفسهم بالتربية على هذا الوجه من المغالاة فى الاعتماد على النفس والاعتماد بالذات (Individualism) ، من شأنه أن يضعف الرّابطة القومية فيهم .

لذلك كانت الأُسرة الانكليزية محصورة بين جدران البيت منتهية بانتهاء حدوده ، فلا يكاد الانكليزى يعرف ذلك الجيش الجرار من ذوى قرابته وأولى رحمه من الأعمام والأخوال والعمات والخالات ، ومن يدلى إليهم بسبب أو يمتون إليه بلحمة النسب ، وهو يقول فى أولاد العم : ما نَفْعُ أبناء الأعمام؟ إنهم لَأَصدقاء ثقلاء ، وإن الصديق الحق هو من وقع عليه اختيارك واصطفيته لنفسك .

وإن مثل الحكاية الآتية لبرهان على صحة ما نقول :

تقطن مدينة لندن أسرة إنكليزية مؤلفة من أَب وأُم وابنتين ، ويتمم أعضاء هذه الأُسرة ابنان انفصلا عن محيط دائرة المنزل ، يحترف أحدهما مهنة الزراعة على بعد نصف ساعة من لندن ، ويتجر الثانى فى الماشية ببلاد الناتال ، فمر على الأول ستة أشهر كاملة لم يَحْدُ به الشوق

أثناءها إلى أن يزور أهله بمدينة لندن على قرب مزارهم منه :

وأقرب ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الديار من الديار

أما الثانى : فكان مبلغ ذكراه وحنينه إلى أهله أن يكتفى فى كل عام بكتاب واحد يبعث به إلى أمه أعطف الناس عليه وأبرهم به ، وكذلك كانت حال سائر الأسرة المقيمة بلندن، فإن البنتين على رقة عواطفهما ، كانتا إذا جرى بينهما الحديث عن أخويهما البعيدين عنهما لا يبدو منهما ما يدل على أنهما متألمتان لجفائهما، متأثرتان من عدم مكاتبتهما .



التعليم الثانوى

إذا بلغت سن الطفل الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، وأصبح ـ بفضل المران فى البيت أو فى المدرسة الخصوصية والدربة على العمل ـ فتى قادراً على احتمال معاشرة الغرباء ودفع أذى الخلطاء، ألحق بالمدارس الثانوية، وتسمى عندهم بالمدارس العامة (Public Schools) وهي كثيرة غير أن المشهور منها تسع وهى :

Eton. Harrow' Rugby' Wellington' Winchester' Westminster. Charterhouse etc.

وقد امتازت هذه المدارس بتربية أبناء الطبقات الحاكمة والأسر الغنية، فأخرجت بلمرستون وغلادستون وأمثالهما من نوابغ الأنجليز وحكمائهم.

وهذه المدارس التسع هي التى نفذت فيها لأول مرة طريقة الوصايا التى هى أساس التربية الانجليزية

وإنى لا يسعنى فى هذه العجالة الطواف بتفاصيل كل واحدة منها، لأن هذا يستغرق عدة محاضرات، لذلك أقصر الكلام على إحداها، وهى مدرسة Rugby لإحرازها قصب السبق فى إدخال إصلاحات هامة فى التعليم الثانوى فى انجلترا بفضل نبوغ ناظرها الحكيم الدكتور (توماس أرنولد)

والغرض الأول من التربية فى هذه المدارس، هو إعداد الطفل

لأن يكون فى المستقبل رجلا شريفاً شجاعاً ، ووطنياً عاملاً .

ومن المثلين الآتيين يتبين مقدار الارتباط بين طلاب المدارس وذلك الغرض الجليل :

١ ـ كتب أحد الطلاب بمدرسة (Rugby) فى صحيفة المدرسة الثانوية مقالاً جاء فيه : إننا معشر الطلاب نكوّن اجتماعاً حقيقياً نعيش فيه لا لنتعلم فحسب، بل لنتعلم و نعمل و نحيا كأطفال سيكونون فى الغد رجالاً .

٢ ـ وقال (توم بروان) فى كتاب Tom Broмn School days (حياة توم بروان المدرسية) وهو كتاب وضعه أحد خريجى هذه المدرسة أتى فيه على حياة الشاب الانجليزى من بداءتها فى المدرسة إلى دور الزواج ، وهو كتاب كثير الانتشار بين المتعلمين فى انكلترا ، وكل واحد منهم يقرأ فيه صفحة ماضية من حياته الخصوصية ، وصورة مطوية من ذكرياته المدرسية .

قال فى أول الكتاب : إنه وصل إلى المدرسة فى الساعة الثالثة بعد الظهر راكباً عربة (لأن ستة الخطوط الحديدية التى تتقاطع الآن فى Rugby لم تكن أنشئت بعد) ، وبعد أن استقر به المقام تذكر النصائح التى ألقاها عليه أبوه قبل مغادرته البيت ، وكذلك تذكر مصافحته إياه باليد لأول مرة فى حياته ، بدل التقبيل الذى من العادة أن تحي به الأطفال. و فى ذلك رمز إلى أن الذى يسلكه أبوه فى المدارس العامة رجل ينبغي أن يُحَيَّا بتحية الرجال .

أما تلك النصائح التى زوده بها أبوه فإنها آية فى الحكمة وغاية فى

السداد ،فقد قال أبوه : إني ترددت طويلاً في اختيار الكلمة التي أجملها له عظة ماثلة بين عينيه في سفره، فقلت في نفسي :

إذا أنا نصحت له باجتناب ملهيات الطريق وضبط النفس من الوقوع في المفاسد، فربما لا يفهم لماأقول معنى،ولعلي بذلك أكون نبهته إلى ما كان مصروفاً عنه . وإذا نصحت له بالجد في الدرس والتشمير في تحصيل العلوم ليصبح عالماً، فليس ذلك غرضي أو بالحرى ليس ذلك إلا جزءاً من الغرض الأكبر الذيأنصبهله وأتمنى أن يناله . وبعد خواطر جالت ثم زالت وقع في نفسي أن أوصيه بأن يكون رجلاً شجاعاً ، شريفاً ، نشيطاً ، وطنياً ، سرياً ،مسيحياً «Christian Gentleman» ولا أتمنى له المزيد .

من هذين المثلين يتبين أن الغرض الأول من التربية الانكليزية إنما هو تكميل النفس بالفضائل العالية وتحليتها بالأخلاق الكريمة . أما تكوين العقل وتثقيفه بالعلوم والمعارف فليس إلا جزءاً من ذلك الغرض الأسمى ، فهم أحق من يتمثل بقول شاعرنا:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

والآن أرى من الواجب أن أقول كلمة عن ذلك المربي الكبير الدكتور(توماس أرنولد)الذي كان ناظراً لهذه المدرسةأربع عشرة سنة، حارب في خلالها كثيراً من الطرق العقيمة،التي كانت متبعة في المدارس الانجليزية ، ونجح في وضع مبادئ جديدةٍ حازت الرضا من الإنجليز

عامة وسرت من مدرسته إلى سائر المدارس الأخرى .

وإذا تناول البحث مسألة التربية والتعليم فى انجلترا فإنهم يبدءون باسم (توماس) مقرونا بالإجلال والاحترام ، ومع أنه قد مضى على وفاته نحو ثمانين سنة ، فهم لا يزالون إلى اليوم يقدسونه ويعظمون ذكره كما كانوا يقدسونه فى أول يوم بدا لهم قيمة سر إصلاحاته الحكيمة ، التى لم يسبروا غورها البعيد إلا بكر الأيام ومر الأعوام .

كان (توماس أرنولد) فى أول أمره قسا خامل الذكر ، ذا روح متوقدة وغيرة مشتعلة ، ظل يجاهد فى سبيل التربية زمانا دون أن يشعر بنبوغه أحد ، وكان ذا نظر ساحر يقرأ فى الوجوه ما تكنه الضمائر ، فكان لا يقوى أحد أن يكتمه أمراً أو يخفى عنه سراً ؛ هذا إلى أنه كان ذا تأثير يشبه تأثير المغناطيس ، فكان لا يجتمع به أحد إلا اجتذبه إليه وسحره بتعاليمه . وقد قرأت فى دائرة المعارف الانجليزية أنه لما خلت وظيفة ناظر مدرسة Rugby سنة ١٨٢٨ طلب إلى مجلس إدارة هذه المدرسة الالتحاق بها وشفعه بشهادة قال كاتبها : « إذا وقع الاختيار على المستر أرنولد فإنه سيغير وجه التربية ويقلبها رأساً على عقب فى جميع المدارس العامة فى انجلترا » وهاك النص الإنجليزى :

« If Mr. Arnold Were elected he Would change the face of Education all throug the public Schools of England »

ولقد صدقت فراسة ذلك الكاتب فى أرنولد ، وكأنى به يقول له بلسان البارودى :

وَفَيتُ بماظنّ الكرام فراسة ❊ بأمرى ومثلى بالوفاء جديرُ

وقد بقى يعالج تربية النشء بما أوتى من حذق ومهارة، ويبث فيهم روحه ومبادئه الجديدة حتى أخرج لبلاده فتياناً شداداً نافعين، ورجالا قادة كانوا هم أبلغ إعلان لفضله وعلو كعبه وأكبر عامل فى إذاعة صيته فى أركان البلاد الإنجليزية .

وكان (توماس أرنولد) من ذلك الصنف من الشبان الذين يهتمون بالشئون العامة كل الاهتمام، ويتتبعون سير الحوادث فى بلادهم بكل نشاط وإمعان، فكان لا يكاد يمر يوم إلا ويؤلف فى التاريخ (تاريخ الرومان)، ويكتب المقالات الرائقة فى المجلات العلمية ويكاتب الجرائد السياسية، ثم يجد مع هذا من الوقت ما يكفى لإدارة مدرسته إدارة حكيمة .

وكان يقول فى هذا الصدد: «إننى كلما شحذت ذهنى بالمسائل الخلقية وجلوته بالمرانة على الكلام فى أهم الأمور السياسية، عاد ذلك بالفائدة الجمة على مدرستى» .

وفى سنة ١٨٤١ وصله كتاب من (اللورد ملبورن) رئيس الوزارة إذ ذاك، يعرض عليه وظيفة مدرس للتاريخ الحديث فى جامعة اكسفورد، فقبل شاكراً وفرح لذلك فرحاً شديداً، وأقبل الطلاب على درسه إقبالا وكانوا يتنافسون فى الحصول على مذكراته وطبعها ونشرها بين الناس .

ولكن مع الأسف لم تدم سعادة الطلاب به طويلا، فما هلت سنة ١٨٤٢ حتى وقع غير المنتظر، وحدث ما ليس فى الحسبان، إذ فوجئوا بنبأ

وفاته بذبحة صدرية لم تمهله إلا بضع ساعات ، بذل له فى خلالها كل إسعاف وكل علاج، ولكن ماذا يفيد العلاج إذا حم القضاء وجاء الأجل؟

وقد استولى الهلع على طلاب المدارس الذين كانوا يتفانون فى حبه، وأخذوا يتساءلون ـ فيما بينهم ـ عن رحى العمل فى المدارس: هل ستظل دائرة بعد أن وقف محركها الأكبر، وخفت صوت سائسها الحكيم؟

وإنا نذكر هنا طُرَفاً من آرائه السديدة فى التربية فنقول :

١ـ ليس من مذهب توماس أرنولد فى التربية مراقبة الأطفال مراقبة دقيقة، وقد قال فى ذلك: « إنى أريد أن أعلم الأطفال أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، وذلك لعمرى خير من أن أحكمهم بنفسى »

ذلك قولٌ حكيم وفكر ثاقب ، يجب أن يتدبره ويفهم مغزاه أولئك المربون الأتوقراطيون الذين يحاسبون الأطفال على الهمسة ، ويعاقبونهم على الالتفاتة، ويريدون أن يقبضوا عليهم بيد من حديد.

يقول توماس أرنولد: « إن هؤلاء واهمون فى فهم رسالتهم، إذ ليس الغرض من التربية أن نخرج عبيداً ضعافاً أذلاء ، بل الغرض أن نخرج سادة أحراراً كبار النفوس ، يتمتعون بالرأى والحرية التامة فى كل ما نعرضه عليهم من الأعمال . وإن سلبهم هذه الحرية أو محاولة سلبهم إياها لهو عين الخطل والخطر ، فلندع الأطفال ينفردون بأنفسهم ويخلون إلى ما حولهم ويصرفون قواهم ويجولون فيما بين يديهم من الأشياء، ليتعرفوا السلطة ويذوقوا طعم الإمارة ويشعروا من نشأتهم بالتبعة التى هى دائماً قرينة الرياسة ولازمة لها»

٢ ـ حدث فى المدرسة مرة مااضطراب أفضى إلى إبعاد بعض الطلاب فقام توماس يخطب فيهم خطبة شهيرة سُجلت له فى تاريخ التربية، قال :

« ليس من الضرورى أن يوجد بالمدرسة أربعمائة طالب ولا مائة ولا خمسون، ولكن من الضرورى ألا يوجد بها إلا سادة مهذبون Gentlemen»

فكانت خطبته هذه ـ على قصرها ـ برهاناً صريحاً على فساد الرأى السائد إذ ذاك فى فرنسا وانجلترا، القائل بأن المدارس تصلح الطبائع الفاسدة، وهو رأى عقيم لأنه يجعل المدرسة ملجأ لإصلاح الفاسد وتقويم المعوج ، أو يجعلها بؤرة عفنة فى نظر الأخيار الصحاح من الطلاب .

وكان هذا الرأى فاشياً إلى حد أن آباء الطلبة كانوا يعتقدون أنه ليس للمدرسة حق طرد أبنائهم منها إلا إذا ارتكبوا أغلاطاً جسيمة، أما توماس فكان لا يرى رأيهم ، وقد كتب العبارة الآتية :

«إن أول واجب على كل ناظر مدرسة أن يتخلص من الطبائع العقيمة » .

قال يتخلص (to get rid) ولم يقل يطرد أو ينفى ، واستعمل كلمة الطبائع العقيمة (unpromising) تنبيهاً إلى أنه ليس من الضرورى أن يرتكب الطالب هفوة ليبعد عن المدرسة، بل يكفى أن يظهر من اختبار غرائزه أن وجوده فى المدرسة لا يفيده وقد يضر غيره بالاحتكاك والمخالطة .

ولذلك كان توماس إذا ظهرت له أعراض تلك الطبائع يكتب رجاء إلى والد الطالب، أن يسحب ولده من المدرسة . والذى يتأمل كلام توماس

فى هـذا المعنى يرى أنه ينصح بإخراج رجال نابغين ولو لم يتجاوزوا الأصابع عداً ، بدل إخراج عدد عديد من المتوسطين من الرجال ، أو بعبارة أخرى : أنه يفضل أقلية عالية ممتازة على أكثرية منحطة أو متوسطة .

وهـذا بعينه هو قانون تنازع البقاء القـاضى ببقاء الأصلح أو الأنسب Natural Selection ، الذى كان ينادى به (دارون) و (هوكسلى) فى الأنواع الحيوانية والنباتية.

يريد أرنولد أيضاً أن يطبق هذا القانون على التعليم حتى لا يخرج من المدارس إلا النابغون الفضلاء الصالحون للبقاء .

(٣) رأيه فى التربية البدنية :

كان يقول: «إن جثمان الأطفال يجب أن يكون مجالا قوياً لثوران غرائزهم وجولان عقولهم، وإن التعجيل عليهم بطلب التحصيل وشحن قرائحهم بمسائل العلوم، قد يودى بغضاضتهم ويطفئ البادرة فيهم ، ولن يلاقى الأطفال فى حياتهم الأولى وبالاً شراً عليهم من سبق عقولهم أبدانهم وغلبتها عليهم » .

ولذلك كان يحرض على الرياضيات الجسمية ويغلو فى التعريف بمكانها، وكذلك كان من أكبر همه لما عين ناظراً لمدرسة Rugby أن يأخذ التلاميذ بالرياضة أخذاً ويأمرهم بها أمراً ، لا يألو جهداً ولا يدخر وسعاً

لأنه كان يشعر جيداً بأن كل طفل سيأتى عليه وقت يجتاز فيه لجة من سورة الشباب وعاصفة من جنون الصبا ، تثب عليه فيه الغرائز الرديئة والشهوات الحيوانية ، ولن يصبر لهذه الحملة إلا بنجدة من قوته ومنعة من بدنه .

إن العقل بنموه وتسلط نزعاته وتفرق خواطره يحتاج كالبخار إلى أديم منيع وجسد متين يحمل ضغطته ويقاوم تسلطه .

* * *

هنا يجب أن أقول إنه عرضت لى أثناء اشتغالى بتنسيق هذه المحاضرة حاجة إلى التمثل ببيت أبى الطيب المتنبى :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام

كان توماس أرنولد يقول : «إنى أريد أن أجعل من الطفل رجلا من الوجهتين البدنية والخلقية وهو لا يزال فى طور الطفولة حتى يصبر لهجوم تلك الغرائز وينتصر عليها ».لذلك ترى الفتيان الانجليز يبلغون منتهى نمو الجسم وهم فى سن الثامنة أو التاسعة عشرة ، مع أن النمو الطبيعى للجسم لا يتم عادة إلا فى سن الثلاثين ، فكان كل هم أرنولد فى المدارس الثانوية الإسراع فى أن يربى للطفل عضلات قوية وجسماً متيناً ليضع فيه نفساً بسيطة جريئة حرة مستقلة معتمدة على ذاتها ، ومجموع تلك الصفات هو ما كان يسميه الرجولة الصحيحة (True Manliness) ، وكان يقول : «إن غرس بذور تلك الصفات فى نفوس الأطفال من حداثة سنهم

خير من محاولة وضع معلومات علمية فى تلك الأدمغة الصغيرة تُنسَى بسرعة ، لأنها وضعت فيها قبل الأوان .

والرجل الذى هذه آراؤه فى التربية البدنية ، كان عضواً فى جمعية الرياضة البدنية المسيحية (Muscular Christians) ، وكان الغرض الذى ترمى إليه هذه الجمعية خدمة الجسم وتقويته إلى أقصى حد مستطاع لا للتباهى به أو استخدامه فى قضاء مآرب شخصية - كما كانت الحال فى الجمعيات الأُخرى - بل لغرض أَسمى وأرفع وهو « حماية الضعيف ونصرة العدل فى العالم أجمع ، وفتح الدنيا ووراثة الأرض ومن عليها » ، وكانوا يقولون :

«إننا نريد أن ننصب أنفسنا لخير الانسانية ابتغاء مرضاة الله، فأول ما نفرضه على أنفسنا أن نكون أقوياء السواعد أعزاء الجانب »

ومن وصايا (توم براون) لإخوانه :

«أيها الشبان ! اتقوا الله وسيروا سيراً عنيفاً ولا تتعرضوا للمرض فإن فى المرض مضيعةً للوقت ، والوقت من ذهب، والسير السريع يقوى البدن ويشفى كثيراً من الأمراض » .

شكا عَمْرو بن معدى كرب المَعَص إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : « كذب[1] عليك العسل[2] » أى عليك بسرعة المشى ، والمَعَصْ التواءٌ فى عصب الرِّجل.

---

(١) كذب هنا بمعنى وجب (٢) والعسل : سرعة المشى من عسلان الذئب

أما آية الانجيل « مدّ خدك الأيمن لمن يلطمك على خدك الأيسر » فقد نسختها آية أخرى أصبحت شعاراً للأمة الانجليزية وهي : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم »

ومن وصايا (براون) أيضاً قوله :

« وتعلموا الملاكمة فقد تحتاجون إليها يوماً (على أنها الطريقة المستعملة فى فض كل ما عساه ينشأ من الخلاف بين الفتيان الانكليز) ، أما المبارزة فاجتنبوها ما استطعتم إلى ذلك سبيلاً ، ولكن إذا دعيتَ إليها وصدفت عنها لفضل دينك فذاك ، أو لأن هذا عمل لا تحب الدخول فيه فمقبول ، ولكن حذار أن ترفض النزال محتجاً بالدين ، والحقيقة أنك جبان يُراع ، فهذا ليس من الدين ولا من الشرف فى شيء وإذا وضعت قدمك فى الحرب فسر فيها إلى النهاية ، ولا تدع بلاء إلا أبليته فى خصمك ولا حيلة إلا احتلت بها له . ولا تقلعن عنه وفيك عرق ينبض ونفس يتردد » .

ولقد أراد (توماس أرنولد) برأيه فى التربية البدنية وإثارة الناس إلى العمل بمذهبه فيها ، أن ينتاش الأمة الانجليزية من حال سيئة كانوا عليها ، إذ كانوا إلى سنة ١٨٢٠ منهومين بالطعام والشراب مسرفين فى الإخلاد إلى الراحة والسكينة ، سماناً غلاظاً عرضة للسكتات القلبية ، والرسوم والتاريخ أعدل شاهد .

ظلت أفكار (توماس) تختمر فى رءوس الانجليز رويداً حتى هبوا من سباتهم وأفاقوا من رقدتهم ، وما جاءت سنة ١٨٦٠ حتى دانوا بالتربية

البدنية وأغرموا بحب الألعاب والرياضات ، واشتدوا فى ذلك اشتداداً لم يسبق له مثيل ، إذ آنسوا من فرنسا يومئذٍ أهبة واستعداداً ظنوا معهما أن الحرب بينهما واقعة لا محالة .

فقام (هربرت سبنسر) ووضع قدمه فى الميدان ، وجهر بأعلى صوته أنه يجب على الانسان أن يكون حيواناً قوياً إذا شاء أن يكون النجاح حليفه فى هذه الحياة وأن الاحتفاظ بالعافية والحرص على السلامة من العلة فريضة محتمة وقضية مسلمة . وما هو إلا ذاك حتى سار على أثره العلماء والحكماء والأطباء والفلاسفة ، ضاربين على هذه النغمة ، قائلين بهذه السنة ، ناصحين للجميع باعتناق الرياضة البدنية ، والعناية بالصحة والأخذ بأسباب القوة من الحداثة إلى الكهولة ، وفى الحلّ والرّحلة وفى كل مكان ولكل أحد .

وقد قال الدكتور (كليمان ديوكس) : « إن قوة الأمم واقتدار أفرادها على العمل يتوقفان على صحة أبدانهم واطراد تمرينهم على الرياضات الجسمية ، ومراس الأعمال البدنية » ، فثارت الأمة بأسرها وفى طليعتها طلبة المدارس والجامعات والأعيان ، وأنشئت الحمامات فى البيوت والمدارس والأسواق العامة ، واختُطت حقول واسعة ملاعبَ للتنس والكريكت ، وغطى سطح البحر بزوارق السباق ، وملئت الشوارع بفرق الكشافة والمتطوعين ، ووطد كل إنسان نفسه على العمل على تربية عضلاته والفرار من السِّمَنِ فراره من الموت ومحاربته محاربة الوباء .

وقد جعلوا هذه الألعاب الرياضية كمدارس منظمة يتعلم فيها الأطفال الرزانة والثبات والنظر الصحيح إلى الأشياء وقوة الحكم عليها، وتقوّم سجية الاحترام فيهم ، وإن فى طاعتهم رئيسهم (الكابتن) عن خيرة من أمرهم ورغبة من أنفسهم لدليلا على تقديرهم السلطانَ المخول للأقوى ، والرياسة الممنوحة للأكثر تجربة وخبرة .

وتكون تلك الألعاب فى الهواء الطلق فى مجالى الطبيعة فى الأغوار والأنجاد، بين الأنهار المطردة والأطيار المغردة؛ وبذلك الجهد البدنى القوى يطهر الجسد من السموم المتخلفة عن حياة الجلوس ويصلح الدم الذى أفسده هواء المدينة ؛ أضف إلى هذا أنها محت من طباعهم كل ميل إلى الإسراف فى الأكل والشرب ، ولا صحة مطلقاً لما قد يتوهم البعض من أنهم يأكلون أكثر من غيرهم، فإن ما يأكله الانكليزى فى اليوم على دفعات يأكله البَبِطنون منا فى دفعة واحدة .

سأل عبد الملك بن مروان أبا المغور : هلا اتخمت قط ؟ قال : لا ، قال : فكيف ذلك ؟ قال : لأننا إذا طبخنا أنضجنا ، وإذا مضغنا دققنا ، ولا نكظ المعدة ولا نخليها .

تلك هى الفضائل التى يجنيها الإنجليزى من الألعاب ، يتعوّدها فى المدرسة منذ صباه وتلازمه ملازمة الظل مدى الحياة .

وأثر هذه الألعاب فى الأخلاق على النمط السابق ظاهر لاينكر، قال به جميع المربين الانجليز بلا استثناء، وتواصوا به، وأغروا الناس باتباعه حتى سرى حب هذه الألعاب فى دمائهم وتمكن من نفوسهم ، لا يثنون

صدورهم عنها من كِـبَرة ولا يذرونها من عمى . وهذا مستر فوست Fawcett ،فى أخرياته قدذهبت عيناه وكان مع ذلك يتزلج ويركب الخيل.

و(أنتونى ترولوب)وقـد لوت الشيخوخة من عوده كان يحضر جواده ليصـطاد الثعالب . ويعرف كل انجليزى ما كان من أمر بلمرستون وكلفه بالذهاب إلى ميدان سباق أبسوم (Epsom) إذ كانوا يرفعونه إلى ظهر فرسه بجهد وتعب فإذا استوى عليه نسى شيخوخته وملك عنانه وأمِـن حِرانه .

* * *

إذا أنا أطنبت فى الرياضة البدنية واهتمام الانجليز بها ذلك الاهتمام، وإعظامهم إياها ذلك الإعظام ، وأخذهم بها من المهد إلى اللحد ، فلقد كانت من أهم العوامل فى نهوضهم وتطورهم ذلك التطور الذى أدهش العالم بأسره .

قال مسيو (Pierre de Coubertin) : « ما كان الانجليز ـ من مائة سنة خلت ولا من ستين ـ على مانراهم عليه الآن من شدة تمسكهم بعاداتهم ونشاطهم فى الخارج وسهولة انقيادهم إلى حكامهم وتفانيهم فى حب وطنهم . ولـكنهم هبوا من رقدتهم ونشطوا من عقالهم وقطعوا كل صلة بالماضى وبنوا لأنفسهم ذلك البناء الشامخ وهذا المجد الطريف الذى لم يشهد العالم مثله.ولا ريب عندى فى أن للتربية الصحية المؤسسة على الرياضة البدنية إلى أقصى حد مستطاع وللحرية الحقيقية التامة دخلا كبيراً فى هذا الانقلاب العجيب »

ذلك عن الانجليز، وأما الفرنسيون فكانوا يسخرون من هذه الرياضات الجسمية، ويعتقدون أن العناية بإنماء أجسام الأطفال وتعهد الأبدان بالتقوية مفسدة للأطفال أى مفسدة، إذ يقولون إن المادة هى مَعين الشر وَعتاد الفساد، وإن صفاء البصيرة وبلوغ الأرواح درجاتها من الكمال إنما يكون بإهمال الجسم وكسر شرته وإضعاف حيوانيته . وقد غالى (بسكال) أحد فلاسفتهم فى مذهب المتصوفة إلى حد أنه كان يلبس شعاراً من شعر خشن كرءوس الإبر على جلده، خيفة أن يخدعه الترف أو تلهيه الراحة . وأكثر من ذلك أنه كان يشد حول وسطه نطاقاً من مسامير دقيقة خيفة أن يشعر بلذة التوفيق إلى استنباط حل قضية من الهندسة، وكان بها مولعاً وعليها مكباً . فكان مذهبهم فى قول أبى الفتح البستى :

أقبل على النفس واستكمل فضائلها

فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ولم يُقلع الفرنسيون عن احتقار الرياضة البدنية والزراية بمن كان يحبها من التلاميذ إلا من عهد غير بعيد .

مذهبه فى التربية :

لندع الآن ضرب الأمثلة وسرد الحوادث المختلفة إلى البحث فى الخطة العامة التى جعلها (توماس أرنولد) أساساً لمذهبه فى التربية فنقول :

كانت المدرسة فى نظر ذلك المربى العالم كدار كبيرة من دور القضاء،

يتدافع فيها سيلان : سيل من القوة الهادية إلى الخير ، الصادرة عن قضاة هذه الحكومة، وهم الناظر والمدرسون ، وسيل من المقاومة العشواء من التلاميذ الذين يرادون على الإنابة إلى القانون والمضى فى سواء السبيل . وكانت الحكمة والحيطة والبلاء الحسن مما يبذله أولئك المدرسون هي القوة التى يجب أن تكون لها الغلبة لتحسن الحال وتلين شكيمة الأطفال ؛ ومن أجل ذلك كان من الكياسة منح نصيب صالح من هذه القوة للجهة التى تنشأ عنها المقاومة بتسليط عدة من زعمائها وتمكينهم بقدر من الحكم تأليفاً لهم واستظهاراً بهم على من عداهم من الأطفال .

وذلك بعينه هو أحد مظاهر المبدأ الإنجليزى العام الذى يمكن تصويره فى مثل آخر ، وهو أنهُ لضمان النجاح فى تقرير حال على ماهي عليه ، أو المحافظة على سلامة نظام قائم فى نفسه ، لابد من إغراء الناس به وحملهم عليهِ وتزيينه لأعينهم حتى يكون فتنةً لهم ويكونوا هم حماة له وشيعةً على المتنكبين عنه . وقد كان الرجاء فى تطبيق مبدأ اجتماعى كهذا على جماعة من الأطفال غير كبير لما لا يخفى على الذين مارسوا التعليم وخبروا غرائز الأطفال وسبروا خفة أحلام الشباب . غير أن توماس أرنولد لم يُحجم لحظة عن العمل بذلك المبدأ فى مدرسته ، وهى جُرأة لن يُقدم عليها إلا من عظمت ثِقتُه بعلمهِ وعمله ، وقوى اعتماده على نفسه ومقدِرته . وقد نجح توماس فى ذلك نجاحاً باهراً ، فوضع الثقة فى المدرسين والمتقدمين من التلاميذ فى الفرقة السادسة ، وأقام المدرسين أوصياء على التلاميذ ، وعهد إلى كل واحد منهم بمراقبة

زمرة من التلاميذ الخارجية ، ورياسة بيت من بيوت الداخلية الملحقة بالمدرسة (Boarding Houses) لاتكاد عدتهم تجاوز الثلاثين، يسكنون معه فى داره ويأكلون على مائدته، ويظلون فى وصايته سبع سنين يدرس فيها طباعهم ويسبر غور خواطرهم فيرشد عقولهم إلى الصواب ويَهدى قلوبهم إلى الخير، حتى يصل بهم إلى أقصى مايستطاع من الرقى والكمال.

وقد كان تلاميذ الداخلية من قبل فى عُهدة أناس مُقاولين ليسوا من أمور التربية على شىء ، فوضعوا الكسب المادى نصب أعينهم وتركوا حبل التلاميذ على غاربهم فيما هو من التهذيب والتعليم، حتى ساءت الحال واضطرب النظام وانحط مستوى الأخلاق.

وقد خول توماس تلاميذ الفرقة السادسة سلطة تامة على تلاميذ الفرق الأخرى ، وعينهم معيدين من أول واجباتهم مساعدة المدرسة على حفظ النظام وتوصيل المبادئ القويمة إلى إخوانهم ، لأنهُ لم يكن يرى رأى معاصريه فى ترك الأطفال يستقلون بأمورهم إلى حد أنهم يواجهون الحوادث بأنفسهم ويتصرفون فيها وحدهم خيفة أن تفسُد مبادؤهم وتَهجن عاداتهم وهم فى هذه السن قلما يميزون بين النافع والضار، والحسن والقبيح . ولذلك جعل المتقدمين منهم وسطاء بينهم وبين المدرسين، ينقلون إليهم التعاليم الصحيحة، وينشرون فيهم المبادئ العالية، ويحببون إليهم الأخلاق الفاضلة ، ويكونون هم البادئين العمل بها ، والقائلين لإخوانهم : هلم إلى تقليدنا والنسج على منوالنا .

كان توماس يقول : إن مثل هؤلاء المساعدين كمثل ضباط الجيوش

البرية والبحرية إذا وثقتُ منهم فليس فى انكلترا وظيفة أوثرها على وظيفتى ، وإذا لم أثق بمعونتهم فالاستقالة محتمة .

ويخيل لى وأنا أنقل هذا عنه أنى أمام رئيس حكومة يتكلم عن وزرائه ، وكذلك كان توماس يكثر الاجتماع بهم ويدعوهم إلى شرب الشاى معه ، يخوض فى الحديث معهم ، ويحاسبهم على الفعلة من أفعالهم ، والكلمة تخرج من أفواههم ؛ فكانت هذه الاجتماعات مدرسة ثانية للتفكير فى الحياة والاستقلال فى الرأى والتقدير للعاقبة مع احترام المبادئ المرسومة والقواعد المقررة . وكان الغرض الذى يرمى إليه توماس من وراء ذلك هو تعويد التلاميذ حكمَ أنفسهم - من حداثة سنهم - على قواعد العدل والتروى والحكمة ، لأنهم بعد المدرسة سيقلدون المناصب ويتسلمون زمام الأحكام اذ كانوا من أبناء العِلْية وأهل الولاية .

وكان لهم عدا ذلك اجتماعات أخرى فى المدرسة يمرنون فيها على الخطابة (Debating societies) والخوض فى فنون شتى من القول على مايتراءى لهم من سياسة ومن أدب وتاريخ ، وإذا كانت الخطابة فى شأن سياسى أخذ الاجتماع صورة مجلس نيابى صغير تجرى فيه المناقشة على التقاليد والرسوم النيابية ، ويتنادون فيما بينهم بنائب مقاطعة كذا ، وحضرة العضو المحترم ، كما يفعل النواب الكبار والوزراء ... يجعلون ذلك ذريعة لدراسة بلادهم ، ومعرفة مواقع أملاكهم . فقد كان المتكلم منهم عن إقليم ما ، يجب عليه أن يلم إلماماً بأحوال ذلك الإقليم تجارية كانت أم اقتصادية أو صناعية أو زراعية أو غيرها ؛ وكان الوزرا.

منهم يجلسون أمام المعارضين الذين كثيراً ما كانوا يسقطونهم . وكان رئيس الوزراء هو الذى يفتح المجلس ، وهو الذى يعلن انفضاضه .

حدّث مسيو دى هبنر (M. de Hubner) النمسوى أن حرية المناقشة فى تلك المجالس كانت بالغة غايتها حتى فى غير انجلترا من البلاد التابعة لها ، قال : « دخلت مرة إحدى الكليات الهندية والطلاب يتناقشون فى حفلة من هذه الحفلات فى موضوع غريب ، وهو : أليس الأفضل للهند أن تتخلص من النير الإنجليزى ؟ وكان المشرفون عليهم من الأساتذة الانجليز ، ومع ذلك لم يقم منهم من ينكر ذلك القول » .

يقول دى كوبرتين الفرنسى : « إننا معشر الفرنسيين لا نستطيع أن نسمح لطلابنا بمثل هذه الحرية ، لأن اختلاف الرأى عندنا يؤدى إلى شحناء قد تسوء عاقبتها ، أما عند الانجليز فمجالس الخطابات بينهم هى بساط يطوى بما فيه . ولقد يكون الرجل من حزب وابنه من حزب معارض له وليس لهذا الخلاف أقل أثر فى رابطة الأسرة التى بينهما »

وإنى لأرى أنّ تفوق الانكليزى فى هذا المضمار يرجع الفضل فيه إلى كثرة المِرانة وطول المِراس ، فقد أخذوا أنفسهم بحرية المناقشة منذ نعومة أظفارهم ، فصارت لهم عادة راسخة فى كل أطوار حياتهم ، وصارت صدورهم رحبة لقبولها دون أن تؤثّر فيها أو تنال منها ، فلقد يتسع مجال الجدال بين اثنين منهم تتباعد آراؤهما وتختلف مذاهبهما ، فلا تجد من كلا المتناظرين إلا صدراً فسيحاً وأناة طويلة وقبولا لكل ما يتحرك به لسان صاحبه .

أين نحن من كلا الفريقين فى حرية المناقشة ؟

إذا أحسنا الظن بأنفسنا قلنا إننا كالفرنسيين فى هذا الموضوع، ولكن لا نكذب الحقيقة إذا قلنا إننا أشد منهم تطرفاً فى تقييد المناقشة، وأضيق مجالا لقبول صراحتها وإطلاق العنان لحرية الرأى فيها، فإنك لتجد المناظرة بيننا مطوقة بأغلال المجاملة أعناقها، مغلولة بقيود الاحتراس أيديها، فإن بدا لأحد المتناظرين أو لكليهما أن يفكا عنهما ربقة تلك المجاملة و يُطلقا أنفسهما من قيود كتمان الرأى الصريح والإفضاء بالفكر الحر، فقلما تنتهى مناقشتهما بسلام، وما ذاك إلا أننا لم نعود أنفسنا الصراحة الكاشفة فى المجادلة، ولم نأخذها بالتمكن من معرفة أساليب المناقشة وآداب البحث والمناظرة .

وجدير بمن يريدون أن يتبوءوا مراكز الرياسة ويضعوا أنفسهم من الناس موضع الزّعامة، أن تتسع صدورهم للمناقشة وتطيب نفوسهم لسماع الانتقاد والإصغاء إلى ما قد يخالف آراءهم، ليستشفوا بواطن الصدور، ويخترقوا حجب الضمائر، ويقفوا على ما تنطوى عليه قلوب الناس من مختلف الآراء وشتى المذاهب، ويعرفوا أن الألسنة ترجمان الأفئدة فلا ينبغى أن يعقلوها، وأن الصدور هى مقر الحرية فلا يضيقوا ما فسحه الله منها، فاذا نحن أغلقنا صدورنا دون قبول ما تأتى به صراحة المباثّة وحرية المناقشة فقد جنينا على الحرية جناية لا غفران لها .

ولقد كان لنا فى خيرة سلفنا أسوة حسنة وقدوة صالحة لمن كان

يريد سعة الصدر وإطلاق حرية الفكر ورياضة النفس على إذعانها لذلك ؛ وإن بين دفات كتب التاريخ والآداب العربية لأمثلة راقية لما كان يصدر عن الخلفاء والملوك وقادة الأمة من حلم لا تُحَل حَبْوته، وأناة لا تخشى بادرتها ، فانطلقت الألسنة من العقال، ونطقت بما شاءت من المقال، وانتصرت الحرية الفكرية، وانتشرت الشجاعة الادبية، فلقد كان لهؤلاء السادة ـ نضر الله وجوههم ـ مقامات حسان وأندية ينتابها القول والفعل ومجالس يشفي بأحلامها الجهل، يسمعون بها العظات ممن لا يؤبه له وتصغى أسماعهم إلى مُرّ الانتقاد وشديد الجدال ممن قد يكون ضعيف المُنّة ليس له من الأمر شيء . ولقد كان من هؤلاء الملوك من لو شاء لبرى الرقاب وأطار الهامات عن الأعناق بكلمة تلفظها شفتاه فيجرى بها قلم القضاء ولكنهم كانوا أرحب صدراً وأرق فكراً من أن يدفنوا الآراء فى الصدور وأن يئدوا حرية المناقشة وهم مطالبون باستحيائها .

ومما يؤثر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنـه ، فى رياضته نفسه وكبحه جماحها ، أنه نادى : الصلاة جامعة ، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس ، لقد رأيتنى أرعى غنما لخالات لى فكن يقبضن لى القبضة من التمر فأظل اليوم وأى يوم ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : والله يا أمير المؤمنين مازدت على أن قصرت بنفسك ، فقال ويحك يا ابن عوف ، إنى خلوت فحدثتنى نفسى فقالت : أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك ؟ فأردت أن أعرفها قدرها .

أما أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان فقد ضربت بحلمه الأمثال

ولهجت بحسن سياسته الألسنة ، ولقد أحاطت به مدة خلافته أحوال وحوادث لولا حسن دهائه وسياسته وطول أناته وحلمه ماأتيح له أن يبقى زعيم أمة يعلم أن فيها من لا تقرعينه بخلافته، ولقد حذا حذوه فى ذلك كثير ممن خلفه من بنى أمية وبنى العباس،أخذوا بيد الحق وشدوا أزره وقاموا بنصرة المجادلة والإبقاء على حرية المناقشة ، غير مفتونين برأيهم ولا راكبين لهوام رءوسهم ، فرأى الناس فى أيامهم مجال القول ذا سعة فقالوا ، وميدان حرية الآراء فسيحاً فجالوا ، فما كتموا عظة ولا أغضوا العين على قذى ، فأفادوا واستفادوا.

خرج الزُّهرىُّ من عند هشام بن عبد الملك فقال : مارأيت كاليوم ولا سمعت كأربع كلمات تكلم بهن رجل عند هشام دخل عليه فقال : ياأمير المؤمنين ! احفظ عنى أربع كلمات فيهن صلاح ملكك واستقامة رعيتك ، قال ماهنَّ؟ قال : لا تَعِد عدة لا تثق من نفسك بإنجازها ، ولا يغرنك المرتقى وإن كان سهلا إذا كان المنحدر وعراً ، واعلم أن للأعمال جزاء فاتق العواقب ، وأن للأمور بغتات فكن على حذر. قال عيسى ابن دأب : فحدثت بهذا الحديث الخليفة المهدى وفى يده لقمة قد رفعها إلى فيه فأمسكها وقال: ويحك ! أعد على ، فقلت : يا أمير المؤمنين أسغ لقمتك ، فقال : حديثك أشهى إلىَّ .

فحق لنا أن نقتدى بهؤلاء وأمثالهم ممن أيدوا حرية المناقشة،وبسطوا ألسنة الناس فى صراحة القول والمباحثة ، أولئك الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب .

ولعمر الحق إن ذلك منهم لدليل على عقل راجح وعلم غزير ، فإن المرء لا يفسح صدره لسماع رأى غيره إلا إذا هذب العلم نفسه ولطف من طباعه .

وما أحكم الفيلسوف الفرنسى مونتين (Montaigne) فى قوله : «إن مثل الناس فى ازدياد تواضعهم ولين جانبهم ، كلما ازداد علمهم ، مثل سنابل القمح تظهر فى أول أمرها وهى خلوٌ من الحب شامخة متعالية حتى إذا امتلأ جوفها وتم نُضجها احدودبت سيقانها وانحنت رءوسها »

وكان توماس يقوّم التلاميذ بالتقريب والملاينة ، يحترم رأيهم وكلامهم ، ولم يشك فى قول صغير ولا كبير منهم كى لا يثلم كرامته أو يكسر شرته ، ولم يعوز أحداً إلى حجة على قول أو شاهد على عمل ، فعنده قولهم صدق وعملهم حق ورأيهم محترم ، وكفاء هذه الثقة كان لا يطلب إليهم إلا الصراحة فى القول واحترام الحق وتقديس الحقيقة . وقد شاع فى المدرسة كلها وذاع فى أنحاء المدينة أن أكبر جرم يقترفه التلميذ فى رجبى (Rugby) هو الكذب على أرنولد ، وجزاء من يفعل ذلك أن يفصل أبداً عن المدرسة [١] .

---

(١) إن فكرة توماس أرنولد فى أن المدرسة ينبغى أن تكون أشبه بحكومة غير مركزيه (أو لامركزية كما يقولون) Gouvernement décentralisé ، تتوزع السلطة فيها على أكثر من فرد واحد ، غير أنه من الضرورى أن يشعر التلاميذ بوجود الوازع الأكبر الذى يرونه من حين إلى آخر يشرف عليهم ويتفقد حالهم دون أن يكثر من التداخل فى أمورهم . . . تذكرنى بقول العامة (هوب بعصا العز ولا تضرب بها) وقول النبى صلى الله عليه وسلم «علق سوطك حيث يراه أهلك» .

وقد نقش توماس أرنولد فى أذهان الأجيال التى رباها شناعة الكذب وقبحه نقشاً لا يمحوه كر الغداة ولا مر العشى . وقد سرى مبدؤه هذا وهو (ابتياع الصدق بالثقة) على سهولته سريان الكهرباء فى السلك فعم الأسر والأندية ، وأسلم له الانجليز فى كل مكان،وآمنوا بأنه أنجع دواء لاستئصال الكذب من النفوس ، فأقبلوا على أولادهم منذ نعومة أظفارهم يغرسون فى قلوبهم حب الحق واحترام الحقيقة حتى امتزجت الصراحة بدمائهم وسرى الصدق فى عروقهم . وإن أعظم سوأة يُراع لها الانجليزى ويقشعر منها بدنه ، لهى وصفك إياه بالكذاب Liar ولا غرابة فى عيافِ القوم مَعَرَّةَ الكذب وغسلهم أنفسهم من دنسه فهو يودى بحياة الأمم كما يودى بحياة الأفراد .

وهذه آثار سلفنا الصالح تفيض بالبراءة من ذلك الخلق (الكذب) والتمدح بالصدق والصراحة والمباهاة بهما والتعلق بأسبابهما،فهذا دريد ابن الصمة على جاهليته فى مرثيته المشهورة لأخيه عبد الله يُعزى نفسه عنه بقوله :

وهونَ وجدى أننى لم أقل له
كذبتَ ولم أبخل بما ملكت يدى

وتلك أحاديث الخلفاء وأخبار الوفود ومقامات الأعراب بين أيدى الملوك تنطق بحكمة ألسنتهم والصدق فى قولهم وفعلهم والصراحة البالغة فى حديثهم .

روى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما : من ترى أن نوليه حمص ؟ فقال : رجلا صحيحاً منك صحيحاً لك . قال : تكون أنت ذلك الرجل ؟ قال : لا تنتفعُ بى مع سوء ظنى بك وسوء ظنك بى .

هذه صراحة رجل وإليكم صراحة امرأة :

حج معاوية بعد عام الجماعة فسأل عن امرأة من بنى كنانة كانت تنزل بالحجون يقال لها الدارمية الحجونية ، فأخبر بسلامتها فبعث إليها فلما جاءت قال : أتدرين لم بعثت إليكِ ؟ قالت : لا يعلم الغيب إلا الله . قال: بعثت إليكِ لأسألك علامَ أحببت علياً وأبغضتنى، وواليته وعاديتنى؟ قالت : أوتعفينى؟ قال: لا أعفيك . قالت: أما إذ أبيت فإنى أحببت علياً على عدله فى الرعية وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر ، وطلبتك ما ليس لك بحق ، وواليتُ علياً على ما عقد له رسول الله من الولاء وحبِّه المساكين وإعظامه لأهل الدين ، وعاديتك على سفك الدماء وجورك فى القضا وحكمك بالهوى . قال : هل رأيت علياً ؟ قالت : إى والله . قال : فكيف رأيته ؟ قالت: رأيته والله لم يفتنه الملك الذى فتنك ، ولم تشغله النعمة التى شغلتك. قال : فهل لك من حاجة؟ قالت: أوَ تفعل إذا سألتك ؟ قال نعم . قالت: تعطينى مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها ، قال: تصنعين بها ماذا ؟ قالت : أغذو بألبانها الصغار ، وأستحيي بها الكبار ، وأكتسب بها المكارم ، وأُصلح بها بين العشائر ، قال : فإن أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل على بن أبى

طالب ؟ قالت : سبحان الله أوَ دونه ! فأنشأ معاوية يقول :

إذا لم أعـد بالحلم منى عليكم

فمن ذا الذى بعـدى يؤمل للحلم ؟

خذيها هنيئاً واذكرى فعـل ماجد

جزاكِ على حرب العـداوة بالسلم

ثم قال : أما والله لو كان علىّ حياً ما أعطاكِ منها شيئاً ، قالت : لا والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين .

ذاك حديث امرأة تساق إليها الدنيا عفواً ، ويكال لها المال كيلاً لتنزل عن رأيها أو تغير اعتقادها فلم تفعل .

والشواهد أكثر من أن تذكر على ما كان لهذا السلف الصالح من علو النفس وكرم الأخلاق والتمسك بالمبادىء والدفاع عن الحق والنفرة الشديدة من التملق للقوة ، وما منا إلا من يعرف ذلك ؛ ولكن ليس فى معرفة الفضائل كفاية ، بل الكفاية أن يعمل بها إلى النهاية

شـكوتُ وما الشكوى لمثلى عادة

ولـكن تفيض الكأس عند امتلائها

* * *

تلك هى كلمتنا عن التربية فى انجلترا والدعائم الكبرى التى يقـوم عليها صرحها ؛ وقد رأينا أن نشفعها بكلمة عن التربية فى أمريكا لما بينهما من تشابه فى الطريقة واتحاد فى الوجهة .

التربيـــة فى أمريكا

التربية فى امريكا

وموازنتها بالتربية فى الامم اللاتينية

تمهيد

حضرة صاحب المعالى وزير المعارف ! سيداتى وسادتى !

أبدأ بتقديم الشكر الجزيل لحضراتكم لتلبيتكم دعوة النقابة وتفضلكم بالحضور لاستماع محاضراتها،ففى ذلك دليل ظاهر على عطفكم ومعاونتكم لها على المضى فيما اختطته لنفسها من القيام على حركة التربية والتعليم فى البلاد،لعلمكم أن ليس للأمة أن ترقى حتى تسلك هذه السبيل ، وأن مصر الفتية الناهضة لابد لها أن تسير إلى الأمام ، وأن تحتذى فى سيرها مثال الأمم الراقية ، التى لم تصل إلى ما وصلت إليه من عظمة ومنعة إلا بعد أن بذلت جهوداً وتجشمت صعاباً وذاقت آلاماً تنوء بحملها الجبال .

أما الأمم التى لم تمرن طويلا على عراك الدهر ، ولم تألف مقاومة الصعاب وتذليلها فسريعة العطب والفناء ، لأن عدم استكمال تربيتها فى ميدان الجهاد والمقاومة يجعلها عاجزة عن دفع عوادى الأيام وطوارئ الحدثان .

وماحياة الأفراد والأمم إلاجهاد دائم، لذلك كان حقاً على المدرسة أن تهيء النابتة لهذه الحياة،وأن تعدّهم بالأساليب الحكيمة لكى يضعوا

قدمهم ثابتة فى المعترك ؛ ولكى يصبروا ويتجلدوا ويقاوموا حتى يغلبوا ويفوزوا .

فكل تربية لا ترمى إلى هذه الغاية السامية هى والعدم سواء، لأنها لا تطابق طبيعة الوجود فى شىء ، وكذلك كل تعليم لا يعد النشء بوسائل الكفاح فى ميدان الحياة العملية الحقة إنما هو تعليم عقيم لا خير فيه .

إن نقابة المعلمين بمثابرتها على إلقاء المحاضرات وعقد المؤتمرات فى شئون التربية ، إنما تؤدى واجباً عليها نحو العلم الذى هى أمينة عليه ، ورافعة رايته باليمين إذ تفتح للإصلاح العام باباً وتمهد للرقى طريقاً، وهى بإذن الله ماضية فى هذه السبيل بفضل اتحاد أبنائها وبفضل تضامنهم ونشاطهم وغيرتهم على المصلحة العملية، تخدمها فى غرضها النبيل صحيفتها التى تنم عن حسن سعيهم وتنشر مباحثهم على الناس.

* * *

وبعد ، فقد كنت يوماً أجيل النظر فى الكتب الجديدة بإحدى المكتبات العامة ، فلفتنى عنوان ضخم لكتاب «روح التربية»، وما كان هذا العنوان ليستهوينى وحده إلى اقتنائه لولا أنى أبصرت اسم مؤلفه الكاتب الجهبذ الدكتور جوستاف لوبون، الذى نوه كما تعلمون بحضارة العرب وشاد بذكرهم فى كتابه الذائع الصيت « تاريخ حضارة العرب»، والذى ترجم له المرحوم فتحى باشا زغلول كتاب « روح الاجتماع » .

أما السفر الذى نحن بصدده اليوم فتمتاز الطبعة الأخيرة منه بفصل ممتع فى طرق التربية والتعليم فى أمريكا ؛ نقله عن كتاب (مسيو

بويز) ناظر مدرسة (شارل روا) من أعمال بلچيكا ؛ الذى ساح فى أمريكا أخيراً ، وشرح طرق التربية والتعليم فيها شرحاً كان له أعظم وقع فى نفوس الأمم الأوربية جميعاً .

والذى يتصفح هذا الكتاب يتبين منه البون الشاسع بين حضارة أوربا وحضارة أمريكا ؛ وقبل أن يشرح الدكتور جوستاف لوبون تلك الطرق أنحى باللائمة — فى الباب الأول من كتابه — على تعليم الجامعات فى فرنسا ، لأنه مبنى كله على استظهار الكتب دون أن يكون للتأمل والتفكير والبحث والتنقيب أثر فيه .

أما أساتذة الأمريكان فقد نجحوا بأساليبهم الحكيمة فى بث روح الملاحظة فى النشء من بدء حياتهم ، وفى تنمية قوة الحكم ودقة التصور وصقل أخلاقهم صقلا متيناً دون أن يكون للكتب فى كل ذلك شأن يذكر ، ثم يقول :

« نعم إن فى جامعات فرنسا فئة من نوابغ الطلاب حرروا عقولهم من قيود التعليم العقيم فى تلك الجامعات ، وكوّنوا أنفسهم بأنفسهم ؛ وبفضل جهودهم وحدهم بقيت فرنسا إلى اليوم متبوئة مكانة علمية بين الأمم ؛ ولكن السواد الأعظم من الطلاب لايزالون يرسفون فى السلاسل والأغلال التى قيدتهم بها الجامعة ، وسيظلون حياتهم متمسكين بتعاليم أساتذتهم القديمة ، عاجزين كل العجز عن الخروج عليها أو الانحراف عنها ، مع أنهم هم الذين تقوم عليهم حضارة الأمة ، وكان أولى واجب على الجامعات أن توجه كل عنايتها إلى توسيع معلوماتهم

وترقية مداركهم،لأنهم عصب الأمة و ملاك حضارتها،فكيف ترقى فرنسا إذا ظلت تلك الطبقة الوسطى منها فى أسر الجامعة لاتجد من يفك عنها الأغلال وينير لها السبيل ؟ »

ولقد بلغ من تفشى تلك الطرق العقيمة فى التربية والتعليم فى فرنسا أن مدرسة من أرقى مدارسها، وهى مدرسة الهندسة (سنترال) التى كان ينبغى أن تكون أبعد المدارس عن الحفظ والتسميع يقنع طلابها من التعليم باستظهار العلوم كلها حتى الرياضيات منها، ولكنها لا تلبث أن تزول من عقولهم إذا فرغوا من الامتحان، لأنها لم تصل إلى أذهانهم إلا من طريق الحافظة.

وهذا المسيو بلتان الذى تربى فى هذه المدرسة وهو الآن يشغل وظيفة مفتش بمصلحة المعادن يقول لنا :

«إن التعليم الذى لاوجهة له إلا أداء الامتحان يفقد كل ميزة علمية، ولا ينمى إلا قوة الحافظة، ولما كان طالب الهندسة فى بلادنا لاعمل له إلا أن يحفظ دروسه من الكتب دون أن يكلف عملا شخصياً يستلزم البحث والتنقيب والابتكار ،فليس هناك إذن مقياس صحيح نعتمد عليه فى تقدير قيمته العلمية »

ولهذا نرى المتفوقين فى الامتحانات غالباً هم أمضى الطلبة حفظاً وأوعاهم ذكراً،وإن كانوا أضعفهم تصوراً وذكاء،ومنهم تختار الحكومة موظفيها لسبقهم فى حلبة الامتحانات، وعلى ذلك فالحكومة فى اختيارها الرجال لوظائفها لاتعتمد على صفوة أبنائها من حيث مواهب الفطنة والذكاء .

ولقد وقع فى السنوات الأخيرة حادث ببلاد الهند أثبت للانجليز خطأهم فى التعويل على الامتحانات. ذلك أن الجرائد الوطنية تذمرت من طريقة تعيين الموظفين للخدمة الادارية العليا Civil Service ، واقترحت أن يكون انتخابهم بالامتحان، فقبل الانجليز هذا الرأى فكانت النتيجة أن فاز (البمبو) من أهالى البنغال على الأوربيين فى الامتحانات، نظراً لما أشتهروا به من قوة الحافظة وسرعة الاستظهار ، غير أنهم مالبثوا حين تولوا الحكم أن تجلى فيهم نقص كبير فى الأخلاق وسوء تصرف فى الإدارة العامة كادا يقودان الهند إلى الخراب لولا أن الانجليز بادروا بالعدول عن هذه الطريقة إلى أسلوب آخر يحرم (البمبو) الاستفادة من هذه الميزة الطبيعية ، بعد أن ثبت لهم أن الامتحانات عاجزة عن كشف المخبوء من أخلاق المتحنين وذكائهم ، وأن استظهار الكتب وحده لا يؤدى إلى سداد الرأى وبعد النظر فى الأمور ولا يطبع فى النفوس عاطفة العدل والإنصاف .

والحقيقة الناصعة أن الوظائف الإدارية الكبرى لاتتطلب نبوغاً كبيراً فى العلم ، ولكنها تتطلب ـ أولا وقبل كل شىء ـ أخلاقاً متينة كالعدل والقدرة على ضبط النفس فى جميع المواطن .

يقول جوستاف لوبون : إنه حدث له فى أثناء زيارته للهند أن تعرف إلى موظف انجليزى كبير كان كثيراً مايخرج وحده ليلا إلى الغابات الشاسعة لاصطياد النمور ، فسأله عن سبب ذلك ، فقال له : إنه كثيراً ما يشعر بضعف فى عزيمته وعجز عن مقاومة نفسه والتغلب عليها ، فلم

يجد علاجاً يعودها الصبر والأناة ورباطة الجأش فى أدق المواطن وأحرج المراكز خيراً من أن يقضى الساعات بل الليالى يرتقب مرور النمر ليقتله ، عالماً تمام العلم أنه إذا أخطأ المرمى ولم يصبه فى مقتله مدة ثلاث الثوانى التى يمر فيها ، فهو هالك لامحالة .

والتاريخ شاهد عدل على أن الأمم العظيمة لم تقم إلا بالأخلاق القوية وصفات الرجولة الحقة ، كالتنبه والتفكر والرأى والابتكار والنظام والتضامن والثبات والإرادة ؛ تلك هي الصفات الخلقيـة التى يجب على المربين أن يبثوها فى النشء وينموها على الدوام ، ولن يصلوا إلى هذه الغاية إلا أن يكثروا من وضع التلاميذ فى المواطن والظروف التى تحتم عليهم إعمال الفكر والروية قبل الإقدام على اتخاذ قرار حاسم فى موضوع من الموضوعات ، وأن يجبروهم بعد أن صحت عزيمتهم على التنفيذ أن يمضوا فيه إلى النهاية .

عزم الشاعر الانجليزى « وردسورث Wordsworth » مرة على تسلق جبل للتنزه والرياضة ، وبينما هو يصعد إذ هبت عاصفة شديدة ، فاستمر فى الصعود على الرغم من قصف الريح ، وهو يخاطب نفسه بقوله: « إن العدول عن مشروع قام فى سبيله خطر صغير ، لهو خطر على الأخلاق كبير » ؛ فالمثابرة والإرادة هما من أقوم الأخلاق التى يمتاز بها أفراد الأمم الراقية .

نعود إلى الكلام على العلم المدون فى الكتب Science livresque ؛ ذلك العلم الذى ينعاه الدكتور جوستاف لوبون على الجامعة . يتساءل : ما العمل

لتلافى ذلك الخطر الداهم ؛ ونحن من ثلاثين عاماً نرى الناس تضج من عيوب هذا التعليم وآثاره السيئة فى البلاد ، وهؤلاء رجال الجامعة هم أسبق من يعترف بهذه الحقيقة المؤلمة ؛ ولكنهم كلما أرادوا مداواة العلة لا يتوجهون إلا إلى المناهج وتنقيحها ؛ والحال أن الداء الوبيل كامن فى طرق التعليم لا فى مناهجه ؟

يقول مسيو ليمان (وهو من أكبر مديرى الجامعة) أمام لجنة التحقيق البرلمانية : « إن التعليم عندنا فى جميع أنواعه قد هوى إلى قرار سحيق ليس بعده قرار ، ولا أدل على ذلك من الخدمات الجليلة التى قام بها خريجو جامعات ألمانيا للصناعة ، وعجز خريجى جامعاتنا عن مجاراتهم فيها.

« فألمانيا تخرج كل عام عدداً عظيماً من العمال المتنورين الماهرين الذين تحتاج إليهم أوربا وأمريكا فى مصانعها ومعاملها .

« وبينما العلوم والصناعات تنمو على اطراد فى ألمانيا إذ بها عندنا فى تدهور يزداد يوماً بعد يوم ؛ ومرجع هذا التقهقر فى اعتقادى هو أن طرق التربية والتعليم فى فرنسا نقلها اليسوعيون عن بلاد الصين ونبتت فى مدرسة (لويزلوجران) القديمة التى أسسها هؤلاء القساوسة العائدون إلى فرنسا من بلاد الشرق الأقصى . ومنها انتشرت فى البلاد كلها ، ولا تزال هذه الطرق متأصلة إلى اليوم فى نفوس المعلمين مالكة عليهم مشاعرهم جميعاً »

فالعلة إذن إنما هى فى وسائل التربية وطرق التعليم لا فى المناهج نفسها ، بدليل أن المناهج واحدة أو تكاد تكون واحدة فى ألمانيا

وفرنسا ، ولكن شتان مابين النتيجتين فالعبرة بالمدرس الكفء لا بالمنهاج الجذاب الخلاب .

وعادةُ السيف أن يُزهَى بجوهره ‏ ‏ ‏ ‏ وليس يعمل إلا فى يدى بطل

* * *

إن الألمان أمة فطنت من زمن بعيد إلى فكرة هى العقدة الحيوية فى التربية والتعليم ، ألا وهى حمل مدرسى الكليات على أن يهتموا كل الاهتمام بالطلاب ، وعلى أن يبذلوا ما فى وسعهم لتشويقهم إلى العلم .

والسبب فى ذلك أن الطلبة هم الذين يقومون بدفع رواتب الاساتذة ، ولما كان لكل علم من العلوم عدد كبير من المدرسين الأحرار ، فإن الطالب يتجه طبعاً نحو الأستاذ الذى يجيد التدريس ويتقن طرقه ؛ لذلك نرى المدرسين يتنافسون فى العناية بتثقيف الطلبة وفى اجتذاب أكبر عدد ممكن منهم إلى دروسهم ليتسع لهم سبيل الرزق ، فتراهم يعمدون تارة إلى الابتكار فى طرق التدريس ، وتارة فى نشر أبحاثهم العلمية القيمة، علماً منهم بأن هذه هى الطريقة الفذة التى توصلهم إلى نيل المناصب العالية والوظائف الدارّة . أما مدرس الكلية فى فرنسا فوظف حكومى يتقاضى راتباً ثابتاً،وليس له أقل مصلحة فى أن يستهوى عقول طلبته ، وأن يشوقهم إلى العلم ويحببه إليهم ، ولو أنه كان يتقاضى راتبه منهم لاضطر إلى تغيير طرقه فى التعليم وإلا سقط فى ميدان المسابقة وحلّ محلّه من هو أصلح منه ؛ وبفضل هذه المنافسة الحرة فى التدريس أصبحت الجامعات فى ألمانيا وقد توافرت لديها هيئة محترَمة

من كبار العلماء والمدرسين لانظير لها فى العالم المتمدين .

لذلك يقول جوستاف لو بون :

« إننا إذا أردنا أن ننهض من الهوة التى وقعنا فيها ، فعلينا أن نقلد الألمان ، وعلينا أن نبدأ بالسير فى الطريق الذى سلكوه ووصلوا فيه إلى النهاية » .

ولقد فكر الألمان طويلا فى الكلمة الحكيمة التى فاه بها (ليبنتز)

Donnez - moi l'Education et je changerai la face de l'Europe avant un siécle.

ومعناها « سلمنى قياد التربية وأنا كفيل بتغيير وجه أوربا قبل قرن واحد من الزمان ».

ننتقل بعدهذا التمهيد إلى الموضوع الأصلى وهو التربية فى أمريكا

* * *

التربية والتعليم فى أمريكا :

يقول الدكتور جوستاف لوبون : « إن للموازنة دخلا كبيراً فى تكوين عقولنا وتحصيل معارفنا ، ويجدر بنا لكى ندرك كنه أسباب انحطاط التعليم فى الجامعات عندنا أن نوازنه بالتربية فى أرقى بلاد العالم تربية ، وأشدها عناية بأمرها ، ألا وهى أمريكا.

«إن المجلات التى تتصدى لشئون التربية فى الممالك المتحدة كثيرة، ولكنها لاتجدينا نفعاً كبيراً لأنهامدبجة بيراع رجال الجامعات أنفسهم، ولهم فيها اعتباراتهم الخاصة ووجهة نظرهم الخاص ، لذلك كان لنشر السفر البديع الذى وضعه حديثاً « مسيو بويز » ناظر مدرسة (الملك شارل)

فى طرق التربية الامريكية رنة وضجة بلغت عنان السماء فى فرنسا ، وأعجبوا أيما إعجاب بما علموه من نظريات الأمريكيين فى التربية، وقالوا إن مثل تلك التربية خليقة أن تخلق إنساناً أرقى من إنساننا »

وهاك ما خطته يراعة عالم من أكبر علماء فرنسا « مسيو لوشاتلييه » ، قرأ هذا الكتاب فعرف للأمريكان فى تربيتهم المزايا الآتية :—

قال : « إن أول عاطفة تملك على الإنسان نفسه عند قراءة كتاب مسيو بويز عاطفة اغتباط بحضارةٍ أرقى حقاً من حضارتنا: اعتقاد شامل وإيمان ثابت بحسنات التربية وفضلها ، حرية تامة تتمتع بها المدارس على اختلاف أنواعها وتبيح لها أن تيحرقى رقياً متناسباً ، وأن تُجرى من التجارب العلمية ماتشاء — بالغة النفقات ما بلغت — ، ثم إجلال المدرسة إجلالاً يقصيها عن السياسة ويحصنها من المعارك السياسية على شدتها وحدتها عند الامريكيين، وأخيراً فلسفة عميقة فى التربية تملأ الفرد حياة ونشاطاً ، وفى كل ذلك دلالة على رقى عقل وتهذيب فكر قلَّ أن يكون لغير تلك البلاد »

وها كم صحيفةً بديعة من ذلك الكتاب النفيس جمعت أمهات مسائل التربية والتعليم :

« ينثر المدرس بدقة ومهارة الصعابَ أمام التلاميذ مرتبة مدرجة ليواجهوها، فينظروا فيحكموا فيظفروا ويفوزوا، العمل الجسمانى يسبق العمل الفكرى دائماً أو يوازنه، حتى إن أبعد العلوم عن الحس عندنا

وأكثرها جرياً وراء التصور والخيال تقدم إليهم فى أشكال محسة تقع عليها أنظارهم وتلمسها أيديهم ، فيتعاون على سرعة إدخالها فى أذهانهم مهارة اليد ودقة الفكر .

فعلم الجغرافيا أعمال يدوية محضة ، ودروس اللغة والإنشاء تعلم فى المعامل لشدة ارتباطها بالرسم والحفر والصب ، إذ من الرسوم والصور والمجسمات تنتزع الأفكار وأساليب التعبير .

الحركة فى أرق صورها والأشغال اليدوية التى تحترف بها جميع المدارس على السواء وتدين بقيمتها التهذيبية ، هما أحسن درس وخير تمرين للنفس على الصبر والثبات والإرادة .

التعليم كله فى كلمة : يعمل الجسم مع العقل جنباً لجنب دائماً . والتعليم الثانوى الذى هو حلقة الاتصال بين طور الطفولة وطور الشباب يسير على هذا النمط بعينه : قرن العلم بالعمل « Instruction par l'action» مع التوسع فى ذلك كلما ارتقت مدارك التلاميذ فتزداد المسائل المطلوب منهم حلها صعوبة ، كما يزداد الغرض المطلوب الوصول إليه بعداً ، والعقبات عراقةً وكآدةً .

تحرير العقل والعاطفة من كل وصية ورقابة . انتقاص سيطرة الأساتذة تدريجاً مقابل نصيب صالح من التبعة والمسئولية تلقى على عاتق الشبان والشابات تدريجاً كذلك ، ذلك هو الغرض الأسمى الذى ترمى إليه التربية .

يقبل التلاميـذ على العمل بحرية تامة كأنهم وحدهم فى الدنيا بلا رقيب ، ويحبب إليهم السرور يأتى من طريق الجهد والمعاناة والفرح ينشأ عن عراك الصعوبات ومكابدة العقبات ،ويدربون على ضبط النفس والاقتـدار على زجرها وقمعهـا "Self control" ؛ كل أولئك هو مهمة المدرسة العظمى ووظيفتها الكبرى،فلا الحقائق ولا النظريات تلق شفهياً على التلاميذ ،لأن الأمريكيين ينفرون النفور كله من النظريات المهيأة المجهزة ومن التعريفات والتصورات ، إلا إذا خلقها العمل وأنتجتها التجارب .

لم يبق فى المدارس كلها من أثر لتلك الطرق التى ترى الفائدة كلها فى تلقين العلوم عن طريق الشرح والكلام ،دون أن يترجمها التلاميـذ بالأفعال والأعمال، ويرى المدرسون أن التعليم على العموم ـ والعلمى منه على الخصوص ـ لا يمكن أن يكون تعليماً منتجاً مفيداً إذا لم يمرن التلاميذ على كشف الحقائق وحل المسائل العلميـة بأنفسهم ، وتلك طريقـة الاستكشـاف من جديد Rediscovery المتبعة فى المعامل والمصانع دائماً ، ولم يبق للدروس النظرية التى تعطى فى الفصول بطريقة الإلقاء قبـل بدء الدروس العملية التطبيقية أومعها أو بعدها أهمية تذكر .أما المذكرات التى يكتبها التلاميذ بأنفسهم فى أثناء الدراسة العملية بالمعامل والمصانع التى يصفون فيها مشاهداتهم وتجاريبهم الخاصة،فإنها قطب الرحى وأساس التعليم والمقياس الصحيح الذى يسبر به غور التدريس،لأنها هى وحدها التى تدل دلالة صحيحة على كفاية التلاميذ ومبلغ استعدادهم واقتدارهم على تلمس

أسرار النظريات واستنباط قوانينها من ملاحظة الأدوات والأجهزة .

ولا يعير الأساتذة أهمية ما لتلك المذكرات التي يلتقطها التلاميذ من أفواههم أثناء الدراسة النظرية ، والتي لها الصيت الذائع والقدح المعلى في جميع المدارس الأوربية .

وفي مدارس التعليم العالي يستمر الفوز للجهد والغلبة للابتكار والاختراع ، والدعامة الكبرى التي يشاد عليها التدريس فيها هي ترك الطلبة يجرون التجارب العلمية بأنفسهم دون أن يتجاوز تدخل الأساتذة في شئونهم حد النصح والإرشاد ، وليس لهم في ذلك من غرض سوى استجلاء الاستعدادات الحقيقية لكل تلميذ وتبين ملكاته وقرائحه وقدرته على العمل والاستنباط .

غرس بذور الإرادة في أفئدة الأطفال والشبان وإنماء حب العمل والمثابرة عليه في قلوبهم من بدء حياتهم والإسراع في نقلهم من طور التبعية إلى طور الاستقلال ، وإعدادهم بالطرق العلمية المحكمة لأن يتولوا شئونهم بأنفسهم ، وألا يعولوا في أمورهم إلا على جهودهم Self Support ، تلك على مايظهر أعظم الأماني وأرفع الغايات التي تطمح إليها أنظار القائمين بشئون التربية والتعليم في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية .

تربية العمال :

أما تربية العمال في المدارس الصناعية على اختلاف أنواعها ، فإنها ترتكز كذلك على طريقة التعليم بالمحسات والتجارب ، ولكن مع التوسع

فيها إلى أقصى حد وأبعد مدى ، حتى إن العامل الأمريكى الحالى ليعتبر فى نظر الأوربيين القدوة المثلى والمثل الأعلى الذى يطمحون إليه فى ترقية عمالهم على مدى الأيام ، لأنه فى الغالب رجل مستنير العقل مدرب الفكر واسع الحيلة وبخاصة فى الحرف والصناعات الراقية .

أما عهد العامل فى الزمن السالف - الذى كان لا يتجاوز علمه حد القوة العضلية والتقاليد القديمة وطرق الأسلاف المتوارثة - فقد مضى وانقضى ، وأصبحت التربية فى جميع المدارس الصناعية مبنية على طريقة الاقتصاد فى الأيدى العاملة ، وأن يستبدل بها شغل الآلات الميكانيكية الحديثة الدقيقة Saving Labour التى لا تتطلب من قوى العامل الجسمانية قدر ما تتطلبه من قوة فكره ودقة ملاحظته وحضور بديهته فى اتخاذ القرارات السريعة لتلافى الطوارئ العارضة ؛ ولقد أحدثت سرعة التغيير والتحسين فى الآلات الصناعية الحديثة وطرق إدارتها صفات جديدة فى العامل الأمريكى ، عقلية أكثر منها جسمانية ، وتعمل جميع تلك المدارس على تنمية تلك الصفات فى العمال وترسيخها فى أذهانهم لتصبح على مدى الأيام سجية لهم وغريزة فيهم .

وفى تلك المدارس تبنى الدراسة النظرية على المشاهدات والمحسات كما فى مدارس التعليم العام ؛ وتستند الدروس الشفهية إلى التمرينات التجريبية والأعمال اليدوية التى من شأنها أن تضيف إلى المعلومات الأساسية فى مختلف الحرف والصناعات قوة المراقبة وتنبه الذهن ومهارة اليد وحذق الصنعة .

وليس للاخصائى أثر ما فى تلك المدارس،لأنها تحاول أن تربى العمال تربية صناعية عامة توسع بها مداركهم وتنمى فيهم حاسة التنفيذ من جهة،ومن جهة أخرى تجنبهم خمود الذهن وضيق الصدر وملل النفس، تلك التى تستولى عليهم من جراء مزاولة حرفة واحدة وتكرار عمل واحد على وتيرة واحدة كما هى الحال فى صناعة الوحدات المتماثلة كالسيارات المتنوعة التى أصبحت المعامل تخرج منها الملايين .

وإذا قيست الأعمال بنتائجها كان لنا من عظيم مقدرة العمال فى أمريكا على الإنشاء والاختراع والإنتاج بمعونة آلات بلغت من الدقة مبلغاً عظيماً أكبر دليل على أن تلك التربية الفنية الأمريكية هى أنجع أنواع التربية وأشدها فعلاً فى النفوس .

وليس فيما وراء المحيط الأطلنطى أثر ما لتلك الخرافة التى رسخت فى نفوس أهل أوربا واستعصى استئصالها من عقولهم ؛ وهى احتقار الأعمال اليدوية وازدراؤها ، فليس هناك أمريكى واحد يعتبرها وصمة مخجلة أو عملا مخلا بالشرف ، فلا القضاة ولا الأساتذة يعتبرون أسمى منزلة وأرقى عقلا من إخوانهم الأذكياء من عمال المطابع ورؤساء المعامل .

أما الموظفون الكتابيون فى مصالح الحكومة فقد عرفوا من زمن بعيد مكانتهم من المجتمع ، ووطدوا أنفسهم على كسب لا يتجاوز خمسين أو خمسة وسبعين فرنكا فى الأسبوع ، فى حين أن البنَّاءَ أو النجار أو الحداد أو السباك يبلغ كسبه مائة وعشرين فرنكا مع تساوى مدة العمل .

ولقد تأصل حب العمل فى طباع أهل أمريكا وشغفوا بمزاولة الأعمال ،حتى إن كل أمريكى عامل فى جوهره ، وهم يقدرون الرجال بأعمالهم وكفايتهم،ويزنونهم بما يحدثون وما ينتجون، ولا يؤمنون بتلك الفكرة التى يؤمن بها الأوربى ويدين بها من أن الألقاب والشهادات العلمية تنيل حاملها شيئاً من النبل العقلى والشرف الفكرى.

ويلاحظ أن السبب العلمى النفسى (البسيكولوجى) الذى يدعو المربين الأمريكيين إلى التعلق بأهداب العمل ويحبب الأعمال اليدوية إلى تلاميذهم لهذا الحد ، هو أنهم يعتقدون أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين حركة أجزاء الجسم وبين الخليات المخية المحركة (Cellules Motrices) التى هى مراكز الإرادة العملية. فاذا اقتصر على فهم النظريات وإدراكها دون أن يعنى بتنمية القوة العضلية لكل عضو من أعضاء الجسم قويت خليات المخ المدركة وخمدت الخليات المحركة ، ونشأ عن ذلك وهن العزيمة وضعف الإرادة وإن وجد الفكر والتصور والذكاء .

ولا بد للتربية الصحيحة أن تصرف كل همها إلى تنمية هذه القوى على السواء ، حتى تخرج رجالاً يقرنون العلم بالعمل ، ويعقبون القول بالتنفيذ ، وذلك ماتصبو إليه نفوس الأمريكيين وتطمح أنظارهم إليه فى تربية أبنائهم .

تقسيم التعليم :

ينقسم التعليم فى أمريكا إلى أدوار أربعة ، يستغرق كل دور منها

أربع سنوات فيكون مجموع ما يقضيه الولد فى المدرسة ست عشرة سنة وهى :

١— التعليم الأولى من ٦ إلى ١٠ سنوات Primary

٢— التعليم الابتدائى من ١٠ إلى ١٤ سنة Grammar Grades

٣— التعليم الثانوى من ١٤ إلى ١٨ سنة High Schools

وإذا كان التعليم الثانوى فنياً من ١٤ إلى ١٨ سنة أيضاً يسمى Technical Schools

٤— التعليم الفنى العالى من ١٨ سنة إلى ٢٢ سنة ويسمى Institute of Technology.

وجميع أولاد الأمريكيين يمرون بلا استثناء بالدورين الأول والثانى، ويزيد الإقبال على التعليم الثانوى يوماً فيوماً حتى بين طبقات العمال، غير أن الكثيرين يغادرونه بعد مضى سنتين عند ما يبلغون السادسة عشرة من أعمارهم، إما للبحث عن وظائف فى المحال التجارية والصناعية تقوم بحاجاتهم المعاشية، وإما للدخول فى المدارس الفنية التى تقوم بتأهيلهم لإدارة حركة المعامل .

أما التعليم الفنى العالى فلا يغشاه إلا صفوة الشبان وخلاصتهم ؛ على أن الكثيرين يشكون من طول مدته، لأنه يؤخر موعد دخولهم فى معترك الحياة العملية .

ولقد عنى الأمريكيون عناية خاصة بثلاثة الأدوار الأولى من أدوار التعليم، وقد كانت موضع درسهم وبحثهم مدة طويلة حتى أصبح

التعليم يسير فيها على نمط واحد وطبق أساليب واحدة فى جميع أرجاء الممالك المتحدة الأمريكية .

والدعامة الكبرى التى يشاد عليها صرح التعليم فى أدواره الأولى هى تعليم الأشغال اليدوية،وغايتهم من تدريب التلاميذ عليها أن يبثوا فيهم روح الابتكار والتنفيذ،أما الابتكار فبواعثه دروس الرسم والهندسة والملاحظة ، وأما التنفيذ فيكون بإبرازهم ما ابتدعته أفكارهم إلى حيز الوجود بصنع أيديهم .

وفى مدارس نيويورك يتعلم الأطفال صوغ الأشكال من عجينة مرنة لإدراك الأبعاد الثلاثة وصنع الأشكال الورقية وهى ذات بعدين فقط ، وصنع الأسلاك والخيوط فى أشكال مختلفة ممثلة هندسة البعد الواحد .

وجل مدارس أمريكا تحذو حذو مدارس نيويورك فى اختيار موضوعات الرسم والأشغال اليدوية فى المدارس الابتدائية ، إذ يدور حول فكرة أساسية هى لفت التلاميذ إلى ما يقع تحت أبصارهم وفى أفق ملاحظاتهم كالمنازل وأشغالها وواجباتها وبواعث السرور فيها ، ثم يلى ذلك حياة المجتمع وما يتبعها من وسائل النقل ومن مشاغل الناس وملاهيهم ، ثم تليها الحياة المدرسية فالأجازات السنوية ، فدراسة المناظر الطبيعية وتلك مايسمونها بمراكز الرغبة أو الشوق Interest Centars

ومن المحتم على المدرس قبل أن يخوض فى موضوع من تلك الموضوعات أن يثير شوق التلاميذ إليه بمناقشة تجتذب أنظارهم وتدفعهم

إلى الرغبــة فى البحث عنه فيندفعون إلى العمل فرحين مسرورين بما يوحيــه الموضوع فى نفوسهم من إحساسات قديمة وذكريات سابقة ، وبذلك يقبلون على تنفيذه إقبال الهائم به، كمن يريد تحقيق فكرة شخصية قامت فى نفسه ويبرز إلى عالم الملموسات فكراً جال فى خاطره، فاندفاعه يكون بباعث من إرادته وقوة صادقة من عزيمته؛ ولا غرابة فحين يوجد الشوق تنشط الإرادة ويصدق العزم ويصح التنفيذ .

وعلم الرسم سرعان ما يتحول فى المدارس الأولية إلى فن جميل ، فيخرج الأطفال إلى الحدائق والمتنزهات ليرسموا ما يقع تحت أبصارهم من المناظر الطبيعية المختلفة ؛ وهذا النوع من الرسم (الرسم من الطبيعة مباشرة) يحبه الأمريكيون ويحضون عليه ، لأنه يعلم الأطفال من صغرهم كيف يترجمون ما يجول فى أفكارهم بالأشكال الجميلة والرسوم الأنيقة . ويتعلم الطفل كذلك فى المدارس الأولية الرسم بالألوان والفرجون (الفرشة) والماء والريشة وقلم الرصاص ، كما يتعلم رسم الوجوه البشرية ويحذقها بسرعة ، لأنهم يتخذون من وجوههم أنفسهم نماذج ينقلون عنها .

أما الفكرة السائدة فى المدارس الأوربية ــ وهى تمرين اليد والعين فقط فى رسم الأشكال الهندسية ونقــل النماذج الصناعية ــ فلا يقبلها الأمريكيون فى مدارسهم .

فلاحة البساتين :

فى مدينة واشنطون خمسة وأربعون ألف طفل يشتغلون بفلاحة

البساتين، ويقام فيها كل سنة معرض عام تعرض فيه النباتات والخضروات والأزهار والثمار التي يعهد إلى التلاميذ فى غرسها ونموها بأنفسهم، وتعرض مع تلك الحاصلات أعمالهم المدرسية النظرية، وكلها لا تخرج عن معلومات مستمدة من تلك الحدائق .

وفى هذه المدارس يحوم تعليم العلوم كلها من جغرافيا وحساب ودروس أشياء وأشغال يدوية حول تلك الحدائق الصغيرة ويتلقى التلاميذ فيها معلومات حية طريقة محسة عن طبيعة الأرض ورطوبتها وخصبها ونمو النبات فيها وظهور البراعم (الأكمام) والأوراق والأزهار والثمار وأثر الفصول فيها .

فلو قرأت مذكرة كل طفل لعرفت منها تاريخ البذر وخروج النبت ونمو الساق وملاحظاتهم على أدوار نمو النبات وظهور البراعم وانبثاق أزهارها وإيناع أثمارها وجنيها .

هذا مجمل مناهج التعليم الأولى فى أمريكا ؛ فاذا انتقلوا منه إلى التعليم الابتدائى تدرجوا إلى ما هو أرقى وأوسع فى تلك العلوم عينها وما يجد عليها ولا ينبو عنها ، وكذلك حالهم إذا ما انتقلوا إلى التعليم الثانوى فإنهم يزدادون نمواً وبسطة واتساعاً فى المعارف مع حرصهم على ربط هذه الأدوار الثلاثة بعضها ببعض ، حتى كأنها هيكل جسم واحد يتم تكوينه فى الدور الأول ولا يزيده ما يلى من الأدوار إلا عظما وقوة ونمواً .

التعليم الثانوى فى امريكا*

تمهيد

حضرات أصحاب المعالى والسعادة! سيداتى وسادتى!

أبدأ محاضرتى بتقديم الشكر الجزيل لحضراتكم لتفضلكم بالحضور لسماعها، وكل ماأرجو أن يكون لمحاضرات نقابة المعلمين النشيطة الغيورة صَدى فى نفوسكم ونصيبٌ صالح من اهتمامكم والتفاتكم، فإن مسائل التربية والتعليم ليست وقفاً على فريق من الأُمة دون فريق، ولا طائفة دون طائفة، بل هى ملك للجميع ويجب أن يهتم لها الجميع.

ولم أر أمة أدركت هذه الحقيقة الناصعة وقدرتها قدرها إلا الأُمة الأمريكية، فترى أبواب المدارس ـ على اختلاف أنواعها ـ مفتحة لكل زائر، صغيراً كان أو كبيراً، غنياً أو فقيراً، محامياً أو طبيباً، مزارعاً أو تاجراً أو عاملاً ... الخ

كل هؤلاء يرون واجباً عليهم أن يزوروا المدارس من حين لآخر ليتفقدوا سير الدروس بها وليبدوا ما قد يعنُّ لهم من الملاحظات.

وإذا أراد ذوو اليسار منهم أن يظهروا سرورهم من تلك المدارس فعندهم ألف طريقة لإظهارها، والأمريكان فى هذا أجود من الريح.

بمثل هذا التشجيع يشعر المدرسون والقائمون بأمر التربية والتعليم أن وراءهم أمة ترقب حركاتهم وتهتم لأُمورهم وتفرح لرقيهم فيتضاعف

---

* هذه هى المحاضرة الثانية من « التربية فى أمريكا وموازنتها بالتربية فى الأمم اللاتينية »، وقد ألقيت على ملأ من وزراء الدولة ورجال التعليم بنقابة المعلمين فى مايو سنة ١٩٢٥.

اهتمامهم بأمر تلاميذهم ويزدادون همة ونشاطاً ، ولذلك ارتقت الأمة الأمريكية رقياً يحسدها عليه أكبر الأمم الأوربية حضارة ورقياً .

إن وزير المعارف وحده ، مهما أوتى من العلم والحكمة، بل عشرين معه من نوابغ رجال التعليم ، لا يستطيعون أن يقوموا بأعباء هذه المهمة على وجهها الأتم إلا إذا شعروا بأن من ورائهم أمة يعتمدون عليها ، تزودهم بالنصح والإرشاد وتشجعهم بالمال ؛ بهذا وحده ترتقى التربية والتعليم وبالتالى ترتقى الأمم .

كثيراً مانقرأ ونسمع أن وفود الأعيان تقصد إلى وزارة الداخلية لأمور ربما لاتكون من أهم شئون الدولة، ولم نسمع ولم نقرأ أنهم عرجوا مرة على وزارة المعارف أو المدارس لتفقد أحوال التعليم والسؤال عن المناهج الجديدة وماتنوى الوزارة إدخاله عليها من التحسين .

ونحن لانستطيع أن نجارى الأمم الراقية ، ولا أن نتبوأ مكاناً محترماً بينها ، إلا إذا احتذينا مثالها ونسجنا على منوالها،ولا بد للوصول إلى ما وصلوا إليه من أن نغير كثيراً من أخلاقنا وأطوارنا . وكل من سار على الدرب وصل .

* * *

يحسن بنا،ونحن على أهبة إنشاء جامعة مصرية ، أن نخص التعليم الثانوى بشىء من الشرح والإيضاح ، لأنه الحد الوسط بين التعليم الابتدائى والعالى،ويجب أن يكون من السعة والمتانة بحيث يُعد الطلاب

إعداداً وافياً، إما للدخول فى الجامعات وإما لسد وظائف الحياة الحقيقية، أى الحياة العملية كالصناعة والزراعة والتجارة.

وقد عرضت عقدة تلك الدراسة المتوسطة على بساط البحث فى أمريكا، كما كانت موضع الجدل والمناقشة فى أوربا بل فى جميع البلدان المتحضرة التى يهمها أن تحكم الرابطة بين الدراستين الابتدائية والعالية، وقد حلتها كل أمة على الوجه الذى يلتئم مع أغراضها من التربية ومراميها من التعليم .

وقد ارتأى الأمريكيون فى هذا الصدد ـ كما رأى كثير من الأمم الأوربية ـ أن يكون هذا التعليم المتوسط عامًّا وخاصًّا فى آن واحد: عاماً بأن تفرض على التلاميذ كلهم دراسة عدد معلوم من الموضوعات الهامة كلغة البلاد لمدة ثلاث سنوات أو أربع، والرياضات لمدة سنتين، وقد يضم إليهما فى بعض الأحيان التاريخ والجغرافيا والتاريخ الطبيعى، وخاصاً بأن يضاف إلى تلك الأصول المشتركة علوم أخرى يختار الطالب من بينها ما يتمشى مع الغرض الذى يريد الوصول إليه : كاللغات القديمة (يونانية ولاتينية) أو اللغات الحديثة أو العلوم الطبيعية أو إمساك الدفاتر أو قياس المساحات وما إلى ذلك .

وقد تستغرق دراسة العلوم الخاصة ٧٠ ٪ من زمن الدراسة فى بعض المدارس و٤٠ ٪ فى البعض الآخر.

هذا فيما يتعلق بنظام الدروس وتوزيعها : أما ما يتعلق بالغاية التى يسعى إليها الأمريكيون من هذا التعليم المتوسط : فهى التوصل إلى

نظام يكفل تكوين رجالٍ ذوى جد ونشاط ، أضف إلى ذلك عنايتهم الكبرى ببث روح الاستقلال فى نفوس تلاميذهم من بدء حياتهم، فهم يتخلون تدريجاً عن سلطتهم ليتسنى لهؤلاء التلاميذ أن يتدرجوا فى مباشرة أعمالهم ومراقبتها بأنفسهم ، ويمرنوا على الابتكار والاختراع ، وألا يعتمدوا فى شىء إلا على إرشاد عقولهم وهداية أفكارهم .

والمثل الأعلى الذى يتطلع إليه كل أمريكى فى ذلك، هو قول الصانع الأمريكى الكبير (باترسن) عن حادث وقع له أيام صباه، ذلك أنه قال لأبيه مرة : إنه فى حاجة إلى مِزلق (قبقاب للسير على الجليد)، فقال له: «يابنى أمامك الغاب ، خذ لك فأساً واحتطب لك حملا ، وبعه فى المدينة واشتر بثمنه إن شئت مزلقاً » .

وقول رئيس جمهوريتهم (روزفلت) فى أحد مؤلفاته « لايتسنى لمجتمع من المجتمعات أن يرقى رقياً صحيحاً إلا إذا عاش أفراده من رجال ونساء عيشة نقية ساذجة صحية ، وربّوا أبناءهم على اقتحام العقبات وتذليل الصعاب ، لا على تجنبها والفرار منها ، وعودوهم أن ينتزعوا الفوز والنصر فى الحياة من طريق الجهد والمعاناة ، وإن الرجل الجدير بهذا النعت لهو الجلْد الصبور النشيط الذى يكد ويكدح ليل نهار لحفظ كيانه وإسعاد كل من يعيش تحت كنفه »

لذلك ولأسباب نفسية « بسيكولوچية » ذكرناها قبلا ، عُنِى الأمريكيون عناية خاصة بتدريس مادة الأشغال اليدوية، التى أصبحت ولها المنزلة الأولى بين فروع التعليم فى تحريك الجسم وإنماء القوة العضلية

وتقوية الإرادة العملية؛وهذا الموضوع الذى بلغ عندهم مبلغاً عظيما من الأهمية إجبارى فى مقرر الدراسة الثانوية الفنية،واختيارى فى المدارس الثانوية العادية،إلا أن التلاميذ مع ذلك يقبلون على مزاولته إقبالا عظيماً لما انطبعت عليه نفوسهم من حبه فى المدارس الأولية الابتدائية .

ولا يختلف التعليم فى هذين النوعين من المدارس الثانوية إلا فى هذه النقطة ،أما باقى العلوم من تاريخ وجغرافيا وطبيعة وكيمياء فمفروضة فيهما على السواء،كما أنه لا فرق بين تعليم البنين والبنات فى تلك المدارس إلا فى نوع تلك الأشغال اليدوية ، فبينما الذكور يشتغلون فى الخشب والحديد وصهر المعادن يشتغل الإناث بالعلوم والفنون المنزلية كالطهى والغسل أو التفصيل والتطريز ، وفيما عدا ذلك يدرس الجنسان جنباً لجنب التاريخ والجغرافيا والرياضة على السواء وطبقاً لبرنامج واحد .

ترون من هذا أولاً أن التفريع فى العلوم يبدأ فى المدارس الثانوية الأمريكية من السنة الأولى ، أما فى مدارسنا بمصر فمن السنة الثالثة، وسيكون من السنة الرابعة فى المنهاج الجديد ؛وفى اعتقادى أن الأمريكان مصيبون فى رأيهم،لأن التفكير فى التخصص مع المحافظة على الثقافة العامة يترك للذهن مجالاً أوسع للتفكير فى الغاية المطلوب الوصول إليها، ولا شك أن فعل الزمن المديد أغرس للرغبة فى العلم وثبات العزم على بلوغ القصد .

علل المربون متانة الحب الذى يشعر به الانسان نحو رفيقه فى المدرسة بأنه لم يكن ابن حادثة ، بل فعل الزمان المديد فنبت فى النفس

فى رفق وهوادة رويداً رويداً،حتى تغلغل فى طياتها،واستوى كما تستوى الأزهار على سوقها،أماحب المفاجأة والمباغتة فلا يقيم فى القلب إلا ريثما يخرج منه،على أن التفريع فى العلوم للاخصاء يبدأ فى كثير من المدارس الحرة الأوربيـة منذ التعليم الابتدائى ، وما ذلك إلا إيماناً بأن الشغف الحقيقى بالعلوم لايكون إلا من فعل الزمن المتطاول ، فاذا نوى الطفل وهو فى طفولته أنه سيصير طبيباً مثلاً ، ثم دأب على أن يرى من وقت لآخر مايذكره بهذا المصير غرس حبه فى قلبه تدريجاً وصبغ له الأمل والخيال ذلك المصير بالصبغ الجميل فيزداد به شغفاً وحباً .

سمعت سنة ١٩٢٢ فى مؤتمر التربية الخلق الدولى مربية سويسرية تخطب أمام هيئة المؤتمر فى كيفية تربية الحب البنوى عند النساء ، فقالت: «يجب أن نُشعر البنتَ بحياة الزوجية المستقبلة من يوم أن تشعر بوجودها، فتكون لعبتها تمثـال عروس تداعبه وتلهو به ، ثم تتدرج إلى أدوات الشراب والطعام التى تناسب لعبها ، ثم إلى متاع شبيه بمتاع المنازل ، ثم إذا شدت وعقلت وشبت وترعرعت وكل إليها الإشراف على تربيـة طفل من أطفال الملاجىء تقوم بنشأته ورعايته مدة سنتين، كأنها أمه تحنو عليه ويسـعدها أن يكون صحيحاً معافى ، فلا ينتهى بها ذلك الدور إلا وهى ربة منزل ماهرة ، قد شغفت بحيـاتها الجديدة حبـاً وتأصل فى روعها أن سعادتها لاتكون إلا فى منزلها . وإنه على تعلقها بأبنائها وغيرتها على تقويتهم وتهذيبهم تتوقف حياة الوطن وسعادة الأمة »

لذلك يقول المربى العربى : « اطبع الطين ما كان رطباً ، واغمز العود ما كان لدناً » .

وترون ثانياً أن التعليم الثانوى عندهم ليس علمياً خالصاً كما عندنا ، بل إنهم أنشئوا مدارس خاصة بالتعليم العلمى وإعداد الطلاب للتعليم العالى من غير أن يضحوا بالتربية العلمية الفنية High-schools كما أنشئوا مدارس ثانوية أخرى لها حظها من العلم أيضاً ، ولكن عنايتها بالحياة العملية أشد ، والذين يخرجون منها يستطيعون أن ينصرفوا إلى فروع الحياة العملية الحقة . Technical Schools

ثم ترون ثالثاً أن نصيب البنت من التعليم لا يكاد يختلف عن نصيب الولد فى شىء إلا فى نوع الأشغال اليدوية ، أما الثقافة العامة فواحدة فيهما ؛ والسبب فى عناية الأمريكان بتربية البنت تربية علمية كاملة هو اعتقادهم أن المرأة تجود بكل ما منحت وتعطى كل ما وهبت ، فاذا ما هذبت وتثقفت دفعها كرم طبعها وصفاء جوهرها إلى التفانى فى إيصال جميع معلوماتها إلى أبنائها وتلاميذها فى غير شح ولا بخل ، فهم يؤمنون أن مستقبل بلادهم بين يدى المرأة وأن عليها وحدها تتوقف سعادة الأجيال المقبلة المتعاقبة ، لذلك هم لا يدخرون وسعاً فى تهذيبها وترقيتها إلى أبعد حد مستطاع ؛ وإن الذى يرى المطابخ ومصانع تفصيل الملابس الملحقة بكل مدرسة ثانوية لتهوله ضخامة بنائها واتساع أرجائها ، وفيها تتعلم الزوجة المستقبلة بالطرق العلمية التدريجية كل ما من شأنه أن يضمن لها استقلالا حقيقياً داخل حدود بيتها .

ولا يرى الأمريكان رأى الأوربيين فى فصل البنت عن الولد فى المدارس ، لأنهم يعتقدون أن تعليم البنات فى مدارس خاصة بهن — كما هو الحال فى مدارس أوربا — تعليم سطحى صناعى لاخير فيه .

ولكى تقفوا على تدريس مادة الأعمال اليدوية فى تلك المدارس، أذكر لكم نماذج من تعليم الطبيعة والكيمياء والهندسة ، لأن طريقة تدريسها واحدة؛ ولايفوتنى قبل عرض تلك النماذج أن أذكر حضراتكم بأن الأمريكيين هم المخترعون لمعامل الكيمياء والطبيعة التى نراها اليوم منتشرة فى جميع البلدان ، ولا يُعلم أن مدرسة ثانوية أوربية وصلت فى التعليم من طريق العمل Learning by doing إلى ما وصلت إليه المدارس الثانوية الأمريكية.

يقول مسيو بويز : إنه زار ما يقرب من عشرين معملا من تلك المعامل ، ورأى الطلبة وهم يعملون بها بكل ما أوتوا من جد ونشاط ؛ وقدر مالها من الأثر النافع والفعل الصحيح فى خفة حركاتهم وإيقاظ عقولهم؛ وقد كان موضوع التجربة التى أجراها التلاميذ أمامه فى مدرسة "Crane Manual Training School" تحقيق قوانين البندول ، ورأى أن الشبان والشواب عند ما فرغوا من العمل وانتهت التجارب أقبلوا على مذكراتهم ، ودونوا فيها بكل بساطة وبكل اختصار ما يأتى :

قوانين البندول — وذبذبات البندول الصغيرة متساوية فى الزمن — لاعلاقة لمدة الذبذبات بالكتلة — المدة تناسب الجزر التربيعى لطول البندول . انتهى

فليس بين الظاهرة الناتجة وعقل التلميذ وعينه محل لذلك الحشو الممل من الجمل والاصطلاحات والتعريفات التي يجب استظهارها، بل إن الحقيقة المجردة العارية هي التي تتجلى أمام أعينهم ثم تدخل في ذاكرتهم كأنها ملكهم الخاص .

وتسير التجارب طبقاً لرؤوس مسائل مختصرة من متون الكتب Text books تبين الغاية من كل تجربة والاحتياطات التي يجب اتخاذها تحاشياً للوقوع في الخطأ .

وإلى حضراتكم نموذجاً من نماذج التجارب الكيميائية التي كان يجريها طلبة مدرسة "Mac Kinley Training High School of Chicago" أثناء زيارة مسيو بويز لها (التغيرات الكيميائية للنحاس)

(١) خذ قطعة نحاس وتأملها . هل يشاهد عليها تغيرات ظاهرة إذا سخنتها في أنبوبة اختبار ؟ وهل تذوب في الماء ؟ ما صفات النحاس الأخرى ؟

(٢) ضع قطعة صغيرة من النحاس في أنبوبة اختبار بها حامض أزوتيك مركز . دوّن بدقة وعناية ما يطرأ من الظواهر ومتى انتهى تأثير حامض الأزوتيك صب السائل في جفنة من الصيني وبخره بوضع الجفنة على شبكة معدنية فوق مصباح بنزن . سخن بهدوء واحذر أن تسخن بشدة إذا ابتدأ التجفيف .

(٣) بعد التبريد أجر على الجسم الحادث نفس التجارب التي أجريتها على النحاس وفق ما هو مبين برقم ١

(٤) هل إذا بخرت ثلاث أو أربع نقط من حامض الأزوتيك تحصل على ما حصلت عليه عند مابخرت النحاس وحامض الأزوتيك ؟

وازن بين رقم ٣ ورقم ١ ثم استنبط - مع ملاحظة ما جاء برقم ٤- نتائجك ودافع عنها بالحجج القاطعة استناداً إلى ما اكتسبته من التثبت والخبرة فى العمل .

يقول مسيو بويز : إن من يعلم مدى كراهية تلاميذنا لدراسة علم الكيمياء من الكتب والمختصرات والمذكرات يأخذه الدهش حينما يرى السرور بادياً على وجوه التلاميذ الأمريكيين وهم يتعلمون بالأدوات والأجهزة ذلك العلم النفيس الذى لم تعد تخفى أهميته العظمى على أحد سواء أفى قيمته التهذيبية أم فى تطبيقاته الصناعية .

إن الأثر الذى يبقى فى أذهاننا بعد مغادرة المدرسة من دراسة علم الكيمياء - التى نسميها تجاوزاً بالكيمياء العملية لا لسبب سوى أن المدرس يُجرى من حين لآخر بعض التجارب بمرأى من التلاميذ - هو أن النظريات والقوانين هي أصل العلم والأساس الذى يشاد عليه ، أما الحقائق والتجارب ففى المنزلة الثانية ولا تأتى بعدُ إلا لتحاول - ولو بالإكراه - تأييد تلك النظريات وإثباتها،وإن علم الكيمياء بحذافيره معلق على النظرية الذرية التى لو أغفلت لأوصد باب الاجتهاد ولاستحال التحليل واستعصى الاختراع ؛ وإن المبتدىء من الطلاب ليخيل إليه أنه بلغ ذروة الرقى إذا عرف أن الماء هو ايد ٢ ،وإن لم يكن يدرك لذلك الرمز أصلا ولا معنى .

أما فى أمريكا فإن النظريات والقوانين تستكشف استكشافاً بالعمل والتجربة كما قدمنا ، ولا شك فى أن هذه هى الطريقة المثلى للتدرج فى الابتكار والاختراع .

فبينما ترزح مدارسنا تحت عبء تلك الطرق العتيقة التى تقف التلميذ موقف المستمع المتقبل لا الممثل الفاعل ، إذ بمدارس الأمريكان تجاوبها بكل افتخار بما تنعم به من الطرق الحديثة التى ترمى دائماً وبكل الوسائل الممكنة إلى استخراج ما كمن فى التلميذ من جهود وملكات وإرادة ومنطق ومهارة ، وتوجهها جميعاً للعمل جنباً لجنب ، متخذةلها فى ذلك كله شعارهم المشهور "push — Help Yourself" ومعناه:

ما حك جلدك مثل ظفرك   فتول أنت جميع أمرك

ليأخذوا الأطفال من حداثة أسنانهم بالاعتماد على النفس والجرأة على الخوض فى غمار الحياة وتجربة أمورها واقتحام عقباتها مهما كلفهم ذلك ،فهم يعلمون الطالب كيف يكون وصولياً ، ولكن على أرقى وأشرف أساليب الوصولية Arrivisme

تأثير هذه التربية الاستقلالية فى نفوس الامريكان

كان طبيعياً بعد ذلك أن نفهم من تربية تطرق ذلك الطريق وترمى دائماً إلى إعداد كل فرد لأن يقوم بنفسه ويستقل بأموره فى هذا المعترك ، أن الأمريكان قوم بلغوا من جمود العواطف وقساوة

القلب مبلغاً عظيما، فلا يعنيهم أمر الجائع ولا يشغلهم شأن البائس، وهذا نتيجة ما يسميه الافرنج الفردية المتطرفة «L'individualisme â outrance»؛ غير أن من ينعم النظر فى أخلاقهم الاجتماعية يرى أنهم يفهمون من الصدقة والإحسان معنى غير المعنى الذى تفهمه الحضارة القديمة، ذلك أنهم بحثوا عن علة الشقاء فاجتهدوا فى ملافاتها، وعرفوا مكمن الداء فعمدوا إلى استئصاله؛ عرفوا أن علة الفقر الجهل فأقاموا دور الكتب بكل سبيل وفتحوا مدارس لكل طالب وأوجدوا عملا لكل عامل ووسيلة لكل مستطيع، فليسوا مثل الأمم القديمة تداوى ظاهر العلة وتبرىء اليوم ما ينتقض غداً فتطعم الجائع وتسد حاجة المحتاج، وهى بذلك إنما تعطل جمهوراً كبيراً تحتاج البلاد إلى جهوده وتعوده الرحمة الضارة وتحرم الوطن الانتفاع بوجوده، فلا هى أحسنت إلى هؤلاء ولا إلى الوطن بهذا الأسلوب من الشفقة والرأفة .

والآن أعرج بحضراتكم على فرنسا التى ترسف فى قيود طرق التربية العتيقة العقيمة، كما يعترف به كبار علمائها وكتابها، والتى لا تزال إلى اليوم تئن أنيناً مراً من ذلك المرض الاجتماعى الخطير الذى نجحت أمريكا نجاحاً باهراً فى استئصال شأفته من بلادها بفضل تربيتها الحقة وتعليمها الصحيح، ذلك المرض هو وجود جيش عرمرم من أبنائها العاطلين وجلهم من الذين قضوا شبابهم بالمدارس والجامعات وحصلوا منها على الشهادات والدرجات والألقاب العلمية العالية .

يقول جوستاف لوبون : إن الدعامة الكبرى التى يشاد عليها صرح التعليم فى مدارسنا الثانوية والعالية هى حفظ الكتب الضخمة واستظهار الشروح المطولة وشحن الأدمغة بنظريات لا تستقر فيها إلا ريثما تنقضى أيام الامتحان ، شأن كل علم يصل إلى العقل من طريق السماع وليس للنظر فيه مجال .

وإذا كان الشاعر العربى يقول فى مجال السياسة : السيف أصدق أنباءً من الكتب ، فأنا أقول فى مجال التربية والتعليم : العين أصدق أنباءً من الأذن .

والروح السارية فى الجامعات بل فى المعاهد العلمية كلها ، هو الاعتقاد بأن قيمة الرجال تقاس بمقدار ما يطيقون أن يحفظوا وما يستطيعون أن يسمعوا ، فلا فرق عندنا بين خريجى الجامعات وحاملى البكالوريا إلا أن الصنف الأول يخزن فى ذاكرته من المعلومات أكثر من الصنف الثانى ، وليس إذن بغريب أن يضؤل الإنتاج العلمى الفرنسى وتنحط مكانته العلمية بين الأمم .

نحن نعترف بأن عندنا مهندسين وأطباء وأساتذة يفوقون مناظريهم من الأمم الأخرى علماً ، ولكنهم للأسف إذا وضعوا قدمهم فى ميدان الحياة العملية الحرة أظهروا من الخبل والعجز ما لا يشرف رجال الجامعة الذين خلقوهم خلقاً صناعياً ، والذين وصفهم الناس بحق أنهم علماء بلهاء Iaiots Savants ، أما إذا منحتهم الحكومة وظائف فيها فإن ذلك النقص الفاحش والعجز الظاهر يظل مخبوءاً مستوراً ولا يظهر جلياً إلا

عند مزاولة الأعمال الحرة ولا سيما الصناعات والحرف التى تتطلب مهارة ودقة كحرفة المهندس مثلا . وإليكم أقوال أحد الأساتذة أمام لجنة التحقيق :

إن المهندس الألمانى عند خروجه من مدرسة فريبرج Fribourg مثلاً ، يستطيع أن يباشر العمل من فوره ، وله قيمة فنية يعترف بها رؤساء المعامل والمصانع الكبيرة ؛ أما المهندس الفرنسى الخارج من (سنترال) الذى يعلم من العلم النظرى ما لا يعلمه المهندس الألمانى ، فإنه قل أن ينتفع به فى هذا المضمار ، لأنه كما يقولون : Apte à tout مستعد لكل شىء bon à rien ولا ينفع بشىء .

ولذلك يختار رؤساء المعامل والمصانع فى فرنسا عمالهم من خريجى مدارس الفنون والصنائع بها ، ويؤثرونهم على المتخرجين فى مدرسة سنترال .

وما ينطبق على المهندس ينطبق على الجندى والطبيب والمعلم وغيرهم . كتب مسيو (دوسوسير) أحد ضباط البحرية الفرنسية مقالا فى كيفية تعليم تلاميذ المدرسة الحربية الرماية ، قال فيه : إن هؤلاء الشبان يقضون الأيام والشهور فى حفظ نظرية الرماية من الكتب ، والمدافع أمامهم ، وليس لأحد أن يلمسها بيده ، ثم يمر الممتحنون فيمنحون أعلى الدرجات لمن يحسنون الحفظ ويجيدون التسميع ، ولو أننا أردنا خيراً بأبنائنا وتوخينا معهم طرق التربية الحقة لتركناهم يضعون

أيديهم فى العجينة مباشرة ، ويفكون المدافع قطعة قطعة ، ثم يعيدون تركيبها المرة تلو المرة؛ وإنى لواثق أن التلميذ الذى يطلق مدفعاً بعد حله وتركيبه بيده يعرف من نظرية الرماية والتصويب أضعاف مايعرفه منها مَن حفظها من الكتب واستظهرها من الشرح .

لانريد أن نسترسل فى إيراد الأدلة والشواهد الصادرة عن أفاضل الكتاب والعلماء ولا سيما الذين ساحوا فى الدنيا وجاسوا خلال الأمم وخبروا أحوال الشعوب ووقفوا على أسرار رقيها أو انحطاطها مثل (مسيو دوسوسير) المتقدم الذكر ، لأن الانسان يكاد يخجل من تكرار أمور كهذه أضحت واضحة وضوح البدهيات ، غير أن من يراها بعينه يدرك مدى تأثير عقلية رجال الجامعة فى جميع معاهد التعليم، ومبلغ ماجروه علينا من الويلات بفضل طرقهم العقيمة فى التربية والتعليم ، فلقد صيرتنا أمة تتعلق بأهداب النظريات بعيدة عن الحقائق عاجزة عن تكييف الظروف والانثناء أمام الضرورات، قصيرة النظر فى الحكم على الأشياء والبصر بعواقب الأمور ، ولا بد من أن نعترف صراحة أن تعليمنا الحالى لا يتمشى مع التطور الحديث ، ولا يتفق مع احتياجات هذا العصر، بل إنه من أهم عوامل الانحطاط الاقتصادى الذى تعانيه فرنسا اليوم ، وإنه ليحزننا كل الحزن أن نُوازِن بين رقينا البطىء فى الشئون التجارية والصناعية وبين ذلك التفوق الظاهر والنجاح الباهر الذى أحرزته الأمم المجاورة لنا فى هذا الميدان ولا سيما الألمان .

وكيف لاتكون الموازنة محزنة والنتيجة سيئة وقد جرينا فى تقدير

الرجال فى سن العشرين على قاعدة ترتيب الشهادات التى أحرزوها من الحكومة ،ومن هؤلاء دون غيرهم تختار الحكومة من يتولى شؤونها ويقوم بخدمتها .

أما الأفراد الذين قاموا بأنفسهم وعولوا على جهودهم ونبغوا نبوغاً عظيما فى المدارس الحرة ،فلا تنظر إليهم الحكومة ولا تستفيد من علمهم ونبوغهم،لا لسبب سوى أنهم لم يطبعوا بطابعها ولم يحرزوا ألقابها.

وقد ترتب على ذلك اندفاع الشباب كلهم وراء الشهادات، مضحين فى سبيل الحصول عليها بقواهم الجسمانية والعقلية، نابذين وراء ظهورهم وظائف الحياة الحقيقية النافعة التى لا يتسنى لأمة أن تقوم بدونها ، وهى التجارة والصناعة والزراعة والاستعمار وهكذا ، فكانت النتيجة المحتومة من تهافت الشباب على الدراسة النظرية أن ازدادت جموع العاطلين من الحاصلين على تلك الشهادات وزاد عددهم عن حاجة الحكومة وأصبحوا عيالا على المجتمع ؛ وماذا تصنع الحكومة بذلك الجيش العرمرم من حاملى البكلوريا والليسانس وغيرها ؟ لاشك أن هؤلاء الشبان ، وقد أعدتهم المدرسة للتوظف ليس غير ، ينزعون إلى العبث بالنظام العام ويجنحون إلى الثورة لأنهم يظنون أنهم ذهبوا ضحية ظلم الحكومة وجورها .

يقول الكاتب الفرنسوى « ليون سى » : إن التعليم الثانوى جنى على فرنسا جناية عظمى ، لأنه كان من أهم العوامل التى ساعدت على نمو الاشتراكية وانتشارها فيها من جراء تلك الزيادة المطردة فى عدد

حاملى الشهادات العليا الذين لم تستطع الحكومة أن تجد لهم عملا فى مصالحها .

وإن أظهر الأدلة على ذلك وأوضحها لهو ذلك الطالب الفوضوى (إميل هنرى) الذى بعد أن حصل على البكالوريا وأتم دراسته العالية فى مدرسة الهندسة حكم عليه بالإعدام شنقاً .

إن العلم الناقص خطر لأنه يحمل الطلبة على احتقار الأعمال النافعة من جهة ، ومن جهة أخرى يحرك أطماعهم ويفتح شهياتهم دون أن يمنحهم الوسائل لإرضاء تلك المطامع وإشباع تلك الشهوات .

إن هؤلاء البائسين من حاملى الشهادات العالية مر العلم على أذهانهم فى المدرسة مرور السحاب دون أن يفهموا له معنى أو يدركوا له غرضاً ، فأصبحوا لذلك عاجزين عن فهم الحياة الاجتماعية وإدراك نظرياتها المتشعبة المعقدة ، وأصبحوا لا يرون منها إلا ما يبدو لهم من مظالم موهومة وجور مزعوم .

يزداد عدد هذا الجيش الكبير كل يوم ولا بد أن يزداد كلما عظم نفور الناس من الأعمال اليدوية ،وتدل الأرقام والإحصاءات على أنه فى سنة ١٨٥٠ كان عدد الأسر التى قدمت أبناءها للتعليم الثانوى عشرين ألفاً ؛ واليوم ارتفع ذلك العدد إلى عشرة أمثاله ، وسينبئنا المستقبل القريب عن الأسباب التى دعت إلى انحطاط الأمم اللاتينية وانقراضها من عالم الوجود ، ولا شك أن تعليم الجامعات يكون من أقوى معاول الهدم وأهم عوامل الفناء .

لقد بلغ من احتقار الفرنسيين للأعمال اليدوية أن كثيراً من العمال يكرهون أن يكون أبناؤهم مثلهم عمالاً يشتغلون بأيديهم ، وأن كثيراً من المزارعين لا يروقهم أن يخلفهم أولادهم فى حراثة الأرض ، ذلك لأنهم ولعوا بالتوظف وآثروا نخره على الرخاء والغنى اللذين تدرهما الأعمال الحرة .

ولقد كان من وراء ذلك أن صارت فرنسا تلتجئ إلى الاستعانة بالطليان والبلچيكيين لفلاحة الأرض والقيام بكثير من الأعمال اليدوية التى هى فى الواقع مصدر الثروة الحقيقية فى البلاد .

لم يقف الأمر عند استخدام الأجانب فى صميم البلاد، بل تجاوزه إلى المستعمرات ، فهذه بلاد الجزائر تموج بالسكان من أهل أسبانيا ومالطه، على حين تفيض مدن فرنسا بالكتبة والمستخدمين الذين قنعوا بالمرتب الضئيل ورضوا بالعيش الضنك (لأن الوظائف أيضاً كالسلع فى الأسواق خاضعة لناموس العرض والطلب)، والسبب فى ذلك راجع إلى أن التعليم الذى تلقوه بالمدارس لم يعدهم للمغامرة فى الحياة العملية إن لم يكن قد أقصاهم عنها . ولقد شعر المصلحون من رجال فرنسا بوخامة العاقبة من دوام هذه الحال ؛ فهذا مسيو هانوتو أحد وزراء فرنسا السابقين يصرح أمام لجنة التحقيق بوجوب تحويل عدد كبير من المدارس الثانوية الحالية إلى مدارس فنية ، ويقترح إدخال دروس الزراعة ضمن مقرراتها لأن فرنسا بلد زراعى ، وقد نجحت التجربة نجاحاً عظيما فى عدد صغير من تلك المدارس، ومنها مدرسة نيوبور

المشيدة فى الخلاء والتى كلفت الحكومة نفقات طائلة ، والتى كادت تغلق أبوابها لقلة الطلاب فيها، ولكنها مالبثت أن عادت إليها الحياة وماجت بالطلاب لما أدخلوا فيها الدروس الزراعية النظرية والعملية ، وفى هذا وحده دليل قاطع على وجوب أن تكون مناهج التعليم متغيرة طبقاً لطبيعة الإقليم وحاجة أهله ؛ فتضاف الزراعة إلى العلوم إذا كان الإقليم زراعياً ، ويحل محلها علم المحاسبة وإمساك الدفاتر إذا كان تجارياً وهكذا حتى تجد كل مقاطعة من أبنائها من يتولى تسيير أمورها وينهض بأعمالها كما هى الحال فى المدارس الانجليزية الثانوية .

ولقد قال « جول فرى » لما كان وزيراً للمعارف قولا حكيماً بشأن الأعمال اليدوية وضرورة تعليمها فى المدارس :

« إن اليوم الذى يتاح لنا فيه أن نضع المبرد والفارة بجانب بركار[1] الهندسة وكتاب التاريخ ؛ وننظر إلى جميع هذه المواد بعين واحدة ونعيرها اهتماماً واحداً .لهو اليوم الذى يقضى فيه على كثير من الترهات والأباطيل من عاداتنا وتزول عوامل التفريق بين طبقات الأمة وينبعث نور السلام الاجتماعى من حجر المدارس الابتدائية لينتشر فى جميع أرجاء البلاد ،وما ذلك على فرنسا بعزيز ،ولاسيما بعد أن نجحت أمريكا فى نشر تلك الطرق فى بلادها

« نعم إننا نباين الأمريكيين فى سرعة القبول للجديد لأن هذه الأمة حديثة لم تثقلها قيود الماضى من عادات وتقاليد ، أما نحن

(١) البرجل

الفرنسيين فقد يكون من الصعب علينا قبول الإصلاح لما لنا من سنن متبعة وعادات متأصلة ؛ وصعب على الإنسان هجران ما تعود واطراح ما شب عليه ، وتلك ميزة الأمريكيين علينا فهم ليس لديهم مثلنا جامعة تصم آذانها عن الإصلاح وتحارب كل إنشاء وتجديد

«لعل من سوء الحظ للأمم اللاتينية أن كان لها تاريخ قديم تعتز به ولا ترضى به بديلا، فكلما دعا داع للإصلاح نكصوا على أعقابهم «وقالو إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتفون »

لذلك لم يتح لهذه الأمم أن تخطو تلك الخطوات الواسعة إلى الإصلاح لأنها تلتفت إلى الماضى فاذا هى خطت خطوة رجع بها الشوق إلى قديمها فتقهقرت خطوات ؛ فنحن سنستمر فى جهاد عنيف مع هؤلاء الأموات، ولعلنا غير مستطيعين فى يوم من الأيام أن نجلى من أمامنا جيش تلك الأشباح القديمة المروعة ، فقد مضى نحو قرن من الزمان دارت فيه الرحى وحمى الوطيس بين القديم والحديث ولم يظهر أن النصر بجانب الأحياء إلى الآن »

الخلاصة:

نستخلص من كل ما تقدم أن التربية والتعليم على نوعين: أحدهما عماده الحفظ والثانى عماده التجربة ، أما النوع الأول فقليل الجدوى كما أشار إلى ذلك مونتين بقوله : Savoir par coeur n'est pas savoir ، ومعناه : ليس العلم بالاستظهار جديراً أن يسمى علماً . ويقول « كانت» فى هذا الصدد : «إذا لم يستطع الطفل أن يطبق قاعدة نحوية

تطبيقاً صحيحاً فلا فائدة من حفظه إياها لأنه يجهلها ؛ وإن الطفل الذى يعرف كيف يطبقها لهو الذى يعرفها حقاً وإن لم يحفظها »

وتسلك الأمم اللاتينية الطريقة الأولى ، أما الثانية فتسير عليها الأمم الانجلوسكسونية ولا سيما الأمريكان ؛ فالشاب اللاتينى يتعلم اللغة من الأجرومية والمعاجم ولا يحرك بها لسانه ، ويتعلم علم الطبيعة من الكتب دون أن يلمس بيده جهازاً من أجهزتها ؛ وإذا قدر له النجاح فى الحياة العملية فيما بعد فلا يكون إلا بعد أن يتجرد من معلوماته القديمة ويبدأ بتربية نفسه بنفسه من جديد. أما الشاب الأمريكى فقلَّ أن يفتح كتاب الأجرومية أو اللغة لأنه يتعلم اللغة بقراءتها والتكلم بها ، ويتعلم الطبيعة بالتمرن على ممارسة أدواتها وإدارة أجهزتها ؛ ويتعلم الهندسة بأن يبدأ بالدخول كعامل فى مصنع من المصانع حتى يمهر فيها بالعمل ثم يبدأ بعد ذلك بالنظريات ؛ وبهذه الطرق البسيطة وصل الانجليز والأمريكان إلى خلق بيئة علمية من النابغين الذين يندر وجود أمثالهم فى العالم . وإنما آثرتْ الأمم الأنجلوسكسونية طريقة التعليم والتربية بالتجربة والعمل على طريقة الحفظ والاستظهار ، لاجريا منها وراء المنفعة المباشرة التى تعود من ممارسة الأعمال ومزاولتها فحسب ، بل سعياً وراء غاية أرفع وأسمى وهى تنمية روح المراقبة وقوة التفكير فى النابتة ، لأن إجراء التجارب يستدعى النظر الصحيح إلى الأشياء ويتطلب التأمل والتفكير ، أما حفظ الدروس عن ظهر قلب فلا يتطلب ذوة من التعقل والتصور .

ولكى يقف حضراتكم على مبلغ تعلق الأمم الأنجلوسكسونية بأهداب التعليم العملى نقتطف كلمة حكيمة وجهها المستر بلاكى الأستاذ بجامعة أدنبرج إلى الشبان، قال :

«وصيتى للشبان أن يكون العمل ومراقبة الأشياء أول دراستهم، وأن يعلموا أن مناهل العلم العذبة وموارده الصافية لاتوجد فى الكتب بل فى الحياة نفسها وفى التجربة والمزاولة والمحاولة ،فاذا ماتقدم المرء إلى الحياة نشيطاً للعمل،جريئاً على التجريب،صبوراً على المزاولة؛ فذلك هو سر نجاحه ، وليست الكتب بجانب تلك الصفات والمزايا إلا مرشداً عند الهفوة ومنبهاً عند الغفلة وسادًّا للكثير مما يعرض من خلل أو يطرأ من نقص ، فالكتب إلى جانب التجربة مفيدة نافعة ولكنها وحدها لاطائل تحتها ولا خير فيها ، وما مثلها إلا كمثل المطر يهطل على أرض لم تقلبها فأس ولم يشقها محراث .»

ربما يتوهم أن الاعتماد على التجربة فى جميع فروع التعليم ولاسيما الأدبيات منها كالجغرافية والتاريخ وعلم الاخلاق ليس بالأمر الهين المستطاع ، والحقيقة أن تلك العلوم تلقن الآن للأطفال بالعمل والتجربة ليس إلا ؛ ففى درس الجغرافيا يخرج المدرس بتلاميذه إلى الغيطان والمتنزهات بعد أن يزود كلا منهم بالقلم الرصاص وبيت الإبرة (بوصلة الجيب) والورق المسطر على شكل مربعات صغيرة ليعلمهم كيف يرسمون منظر الأرض التى يمرون بها ومرتفعاتها ومنخفضاتها على الورق فى مستوى واحد بمقياس رسم معلوم مع المحافظة على الأبعاد والأوضاع

ولا يبدأ التلاميذ بالنظريات إلا بعد أن يحذقوا رسم الخرائط الجغرافية.

وفى درس التـاريخ يعتمد على مشاهدة ماخلفته كل أمة وراءها من مدنية وحضارة كالمبانى والنقوش والرسوم وما شا كلها ، وهذه رسوم يمكن مشاهدتها بالتردد على دور الآثار أو استعراضها بالفانوس السحرى أو السينماتوغراف . إن التـاريخ إذا درس للأطفال على هذا النحو فإنه يترك فى أذهانهم أثراً لن يمحى على ممر الأيام والأعوام ، أضف إلى ذلك أنه أنفع لهم من استظهار الوقائع الحربيـة وتواريخ الحوادث وسير الملوك من الكتب .

أما علم الأخلاق فيصح أن نقول إن أسلوباً غير أسلوب التجربة المباشرة فى تلقينه للنشء لا يجدى نفعاً ، وقد أشار إلى ذلك بسكال بقوله «إن الأخلاق الحقة تهزأ بعلم الأخلاق» ، يريد بذلك أن يقول إن من يظن أن الأخلاق تعلم بتلقين قواعدها من الكتب فقد جهل طبائع الأطفال جهلا عميقاً .

إن التجارب وحدها هى التى تعلم الرجال ، وإنها وحدهـا هى التى تعلم الأطفال أيضاً ، فلندع الأطفـال يميزون الخير من الشر بأنفسهم ، ولنعودهم من نعومة أظـافرهم أن يتحملوا تبعة الشر كلما وقعوا فيه . قيل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : فلان لا يعرف الشر ، قال: هـذا أحرى أن يقع فيه .

وهؤلاء سـكان الجزر الفقيرة الذين اضطرتهم قسـاوة الطبيعة وضنك العيش إلى الارتزاق من طريق عراك الحوادث ومكابدة الحيل

« والحاجة تفتق الحيلة» إلى التخلق بأخلاق الرجولة الصحيحة كالصبر والثبات والإرادة والدهاء والجرأة والإقدام ، لأنهم تلقوها بالتجربة ودرسوها بالعمل فكان لهاهذا التأصل فى نفوسهم والرسوخ فى طباعهم، ولا تكون أخلاق الأمم أخلاقاً صحيحة ثابتة إلا إذا غُرست فى نفوس ابنائها بالتجارب والممارسة زمناً مديداً ، وتلك هى الغاية التى تتجه إليها جهود المصلحين والغرض الأسمى الذى ترمى إليه التربية الحديثة التى وضع لها الدكتور جوستاف لوبون تعريفاً جديداً مختصراً جامعاً اتفق كبار المربين فى الأمم الراقية على اتخاذه أساساً تبنى عليه تربية النشئ وهو L'Education et l'art de faire passer le conscientdans l'inconscient,

ومعناه : إن التربية فن يوصل إلى جعل النظريات التى تفتقر إلى إعمال الفكر والروية ، عادات وغرائز فى النفس تصدر عنها من غير تأمل ولا تفكر لطول المرانة والمراس . وقد فطن أركان حرب الانكليز والأمريكان إلى هذا التعريف وقدروا أهميته قدرها فى التربية العسكرية على وجه الخصوص ، لأن الجندى فى ميدان القتال مسوق إلى العمل بغرائزه وعاداته، وهو يعتمد عليها أكثر من اعتماده على عقله وتصوره.

الخاتمة

إلى هنا فرغت من شرح أمهات مسائل التربية والتعليم فى أمريكا مع موازنتها، على قدر المستطاع، بمثلها فى الأمم الأوربية الراقية، وليس لى من غرض إلا أن أعرض ــ على مسامع حضرات المعلمين أو الغُيُر على التعليم فى مصر من أى طبقة كانوا ــ أفكاراً سليمة جديدة فى التربية

والتعليم كانت هى السبب الوحيد فى أن أصبحت الأمة الامريكية متبوئة مكانة سامية غبطها عليها أعظم الأمم الأوربية حضارة ورقياً.

أعرض تلك الأفكار الصحيحة وأنشرها بين الناس لاعتقادى أن الانسان يجب ألا يتردد فى نشر الأفكار الصائبة النافعة فى البيئة التى يعيش فيها ، فإنها كالبذور الصالحة لابد أن تنبت يوماً ولو أصابت أرضاً يابسة جامدة ، أعرضها وأنشرها بين طبقات المعلمين خصوصاً لعلهم ينسجون على منوالها ويحتذون مثالها فى مدارسنا أو يقتبسون منها على الأقل ما يناسب حالنا ويتفق مع ذوقنا.

قد يكون من الصعب أحياناً نقل طرق التربية والتعليم برمتها من أمة إلى أمة أخرى وربما لا يكون ،فاليابان مثلا وهى أمة جديدة لم تثقل كاهلها العادات المتوارثة والتقاليد المتعاقبة استطاعت أن تنقل نظام الجامعات فى ألمانيا بحذافيره فأينع وأثمر وأصبح لدى اليابان بيئة علمية لاتضارعها فى التثقيف وحب البحث والاختراع إلا البيئة الألمانية.

ومصرنا الجديدة الناهضة لايضيرها أن تقتبس من النظم الحديثة ما تشاء، فليست المدينة الا تقليداً وانقياداً بعد تحكيم العقل والذوق فى اختيار الأصلح والأنسب.

وإن قبول التبديل والتغيير وسرعة الإجابة لدعوة الإصلاح لمن أسرار نهوض الأمم ورقيها ، فهذا مونتسكيو يعزو رقى الرومان وتفوقهم إلى تلك المرونة فى طباعهم وسرعة أخذهم بالحسن متى ثبت لهم حسنه ، وقبولهم النافع والمفيد متى تحققوا نفعه ووثقوا من فائدته ،

حيث يقول : « إن من أهم الأسباب التى جعلت الرومان سادة الدنيا وقادة العالم أنهم ـ وهم يحاربون أمم الأرض جميعاً ويفوزون عليها الواحدة تلو الأخرى ـ لم يحجموا أبداً عن التخلى عن عاداتهم والتحلى بما يجدونه أنسب منها وأصلح ». ثم يقول بعد ذلك «ومن المدهش أن تلك الأمم التى نازلها الرومان فى جميع الأمكنة والأزمنة استسلمت للفناء استسلاماً ، دون أن تفطن إلى سبب تدورها وتبحث عن علة شقائها »

وهل لشقاء الأمم المغلوبة على أمرها من سبب سوى الجهل المخيم على عقول أبنائها واستئثار كل فرد منهم بحب الفخار مفضلا شهوته ومصلحته على مصلحة الوطن ؟ فالأثرة والأنانية هى الداء الدوى الذى ينخر عظامنا اليوم .

لقد أغريتكم أيها السادة بسلوك طريق الرومان فى سرعة قبول الجديد الموافق ،وليس ذلك طمعاً فى أن نسود العالم مثلهم ،ولكن طمعاً فى ألا يسودنا أحد ،وأن يكون بناؤنا بأيدينا واعتمادنا على أنفسنا،حتى نتبوأ بذلك مكاناً لائقاً بين الأمم .

وليس مرادى من التمدح بسرعة قبول الجديد والرضا بالتبديل والتغيير أن نقلب الأمور رأساً على عقب، فإن ذلك لاينبغى أن يكون سبيل أى مصلح . فرب عجلة تهب ريثاً ، ولو أن مصلحاً متعسفاً بدّل الأشياءَ جملة فإنها تواتيه حيناً ولكنها لاتلبث، إذا زال عنها استبداده وارتفع سلطانه . أن تعود إلى قديم شأنها وسابق عهدها .

إن الإصلاح الناجع، ولاسيما فى أساليب التربية والتعليم، هو ذلك الإصـلاح التدريجى المستمر الذى يحاكى الطبيعة فى فعلها، فهى التى كونت الجبال الرواسخ من ذرات الرمل الصغيرة بتراكم بعضها فوق بعض على مدى الأيام والأجيال.

فكرت وزارة معارفنا من عهد قريب فى تغيير مناهج التعليم وتنقيحها، ورأت أن تضيف إليها مواد جديدة كالمنطق والتربية الوطنية والتاريخ الطبيعى الخ. هذا حسن فى ذاته ولـكن نرجو أن تكون قد فكرت قبل أن تزيد تلك المواد الجديدة فى النقص من المواد القديمة، حتى لا ينوء التلاميذ بثقل الحمل والعبء الباهظ الذى يضطرهم إلى شحن أذهانهم بما لا يدوم فيها إلا ريثما ينقضى الامتحان. فلقد شاهدت بنفسى أثناء تفتيش المدارس الثانوية أن المدرسين يشكون من طول المناهج، ولذلك رأيتهم يهتمون بإتمام المقرر أكثر من اهتمامهم بتثقيف أذهان التلاميذ وتربية ملـكة التعقل والاستنباط فيهم، حيث لا يدعون لهم من الوقت ما يمكنهم من التفكير والتروى بحجة أن المقرر أطول من أن يسمح لهم بالمناقشة والاستقصاء.

ليس من الضرورى أن يـكون تنقيح مناهج التعليم بالزيادة فى المواد، بل قد يكون بحذف بعضها واختزال البعض الآخر، فسر التعليم هو فى القليل الشائق المفهوم الذى يدعو إلى الاستنباط ويعوّد الحكم الصحيح على الأشياء والتبصر فى عواقبها. التعليم الصحيح كما يقولون «كيفٌ لا كمٌّ».

وتلك نقطة أساسية وفكرة جوهرية فى موضوع التعليم نحب أن نوجه إليها الأنظار توجيهاً خاصاً ، وإن كنا نعتقد أنها لا تعزب عن فطنة وزير المعارف الذى لم يأل جهداً ولم يدخر وسعاً فى سبيل الإصلاح والتجديد من يوم أن تسلم مقاليد التربية والتعليم .

على أننا نرحب بكل زيادة فى مقرر الدراسة تنمى فى النشء أخلاق الرجولة الصحيحة ، كالعمل اليدوى الذى يحبب إليهم الحركة ويعودهم الصبر والثبات والمقاومة فى معالجة شئون الحياة .

سمعنا أن وزارة المعارف اعتزمت إنشاء أقسام لفلاحة البساتين ، وتلك فكرة جميلة تشكر عليها ، وأملنا أن تتوسع فى هذا المنهاج من التعليم وتعممه فى المدارس الأولية والابتدائية كما توسع فيه الأمريكان على نحو ما سمعتم فى المقال السابق ، وأن تقتدى بها المدارس الأهلية الغنية كالجمعية الخيرية الاسلامية وجمعية المساعى المشكورة التى تملك نحو ألف وأربعمائة فدان . كان الواجب على تلك المدارس الحرة ألا تسير على منهاج التعليم النظرى أسوة بالحكومة ، بل تقصر جهودها على تنمية هذا النوع من التعليم خدمة لأبناء إقليمها حتى يخرج منهم الصالحون للحياة العملية الزراعية ولا نرى منهم المتهافتين على الوظائف .

وفى اعتقادى أنه لو استمرت الحال فى مصر على ما نرى من العناية بالتعليم العلمى دون التعليم الفنى لوقعنا بعد بضع سنوات فى تلك المشكلة الاجتماعية الخطيرة الواقعة فيها أوربا اليوم ، وهى مشكلة العاطلين من حملة الشهادات على نحو ما ذكره جوستاف لوبون عن فرنسا .

وقد سمعنا كذلك أن الوزارة اعتزمت تدريس التاريخ الطبيعى بفروعه من حيوان ونبات وجماد، فسدت بذلك نقصاً كبيراً لازم التعليم فى مصر مدة الثلاثين عاماً الأخيرة، وأكبر أملنا ألا تقتصر فى تدريسه على النظريات وشرحها بين جدران المدارس، بل المأمول أن يخرج التلاميذ فى فهم هذا العلم إلى العمل والمشاهدة بأنفسهم فى الحقول والبساتين حتى تعشق أنفسهم تلك المعيشة وتستريح إليها وتقنع بها . وأرى أن يبدأ بدراسة هذا العلم الجليل الأثر فى تنمية قوة الملاحظة من السنة الأولى .

جاء فى تقرير اللجنة البرلمانية الفرنسية أن عدد التلاميذ الذين يعدون أنفسهم للعلوم النظرية فى المدارس الثانوية ١٨٠٠٠٠، وأن عدد من يتخصص لفروع الحياة العملية من زراعة وتجارة وصناعة لا يتجاوز ٢٢٠٠٠ أعنى بنسبة ٨ من النوع الأول إلى واحد من النوع الثانى، والأولى أن تعكس النسبة، لأن الأمم لا تعيش بالمحامين والمهندسين فحسب، بل رغد عيشها من كد المنتجين من الزراع والصناع والتجار، وهؤلاء هم نحو تسعة أعشار الأمة فلا بد أن يكون لهم من المدارس ما يناسب عددهم .

وها كم ما جاء فى تقرير لجنة التجارة والصناعة المنشأة بقرار من مجلس الوزراء بتاريخ ٨ مارس سنة ١٩١٦ برياسة حضرة صاحب المعالى اسماعيل صدقى باشا « تقترح اللجنة إدخال التعليم التجارى الأولى فى المدارس الأولية والتشجيع على توسيع دائرة الدروس التجارية الليلية

فى المدن العظيمة لأنه من اللازم أن يؤثر التعليم التجارى تأثيره المطلوب فى الطبقات الوسطى والفقيرة من الأهالى على الأخص، لأنها دون غيرها هى التى حافظت إلى الآن على الروح التجارية وتقاليدها، خلافاً للطبقة العليا عندنا، فقد بقيت ميالة إلى السيادة وإلى وظائف الحكومة».

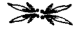
واقترحت إدخال المحاسبة وإمساك الدفاتر فى المدارس الثانوية، إذا سنحت الفرصة لتعديل مناهج التعليم أو توسيعها فى هذه المدارس .

وخيراً فعلت وزارة المعارف فى إجابة هذه الأمنية بإدخالها علم إمساك الدفاتر ضمن مقرر الدراسة الثانوية ، فإن دراسة هذا العلم وعلم التاريخ الطبيعى تفتح المجال أمام الراغبين فى الالتحاق بمدارس التجارة أو الزراعة العليا ، وبذلك يصبح التفريع شاملا لخمسة أقسام عظيمة .

ورجاؤنا الأخير إلى وزارة المعارف ، قبل أن تبت فى تغيير المناهج وتنقيحها ، أن تقتدى بالأمم الراقية فتعرض ما ارتآه رجالها على أهل الذكر فى بلادها ، ففى مصر وزراء سابقون للمعارف ومديرون أداروا المدارس ومعلمون تركوا التعليم ؛ هؤلاء يحسن أن يشتركوا فى الأمر ليُبدوا آراءهم الصالحة . فهذه انكلترا استأنست برأى كل عالم حين شاءت تغيير المناهج ، فأخرجت لجنتها للناس تقريرها فى واحد وعشرين مجلداً بعد سنتين كاملتين فى البحث والتنقيب ، وهذه اللجنة البرلمانية فى فرنسا أخرجت تقريرها فى ستة مجلدات ضخمة ؛ والتقريران يموجان بالآراء الصائبة والانتقادات الصحيحة لكل ذى رأى ولكل

منتقد ،ثم فيهما التاريخ الصادق لمساوئ التعليم وعيوبه مشفوعاً بالعلاج النافع والدواء الناجع .

وإنى فى الختام أرجو أن أكون قد أصبت المرمى فى نقل هذه الآراء السديدة الجديدة فى التربية والتعليم من اللغات الأجنبية إلى لغتنا العربية السمحة ، كما أرجو أن يكون لها من الأثر فى نفوس المصريين ما كان لها فى نفوس الأوربيين الذين اعترفوا بأنها كشفت لهم الغطاء عن حقائق وأسرار فى شئون التربية والتعليم غابت عن أذهانهم واستعصت على أفهامهم ،وأنهم سيتخذونها مثالا يحتذونه فى تهذيب النابتة ، ونبراساً يستضيئون بنوره فى إعداد الأجيال المقبلة للكفاح والنضال فى ميدان الحياة العملية الحقة ، فعسى أن نقتدى بهم ونجرى على سننهم ، والله ولى التوفيق .







قطعتان من الخزف مزينتان برسوم ملونة تحت طبقة من المينا ، على القطعة العليا صورة غزال يرتع بين فروع نباتية تقليدية ، وعلى السفلى صورة طائر محلق فى الجو (القرن الثامن الهجرى — الرابع عشر الميلادى)

تربيـــة الذوق السليم

وأثر الفنون الجميلة فيها

تربيـــة الذوق السليم

وأثر الفنون الجميلة فيها *

اهداء

صحيفة التربية الحكيمة هى الطبيعة المشهودة . ومبادئ التهذيب العملية هى الرؤية والتجربة وإنعام النظر فى المحسات .

والكون العام هو المربى الأول والمرشد الأكبر الذى لا ينضب فيض إرشاده لامتلائه من الحياة والانسجام .

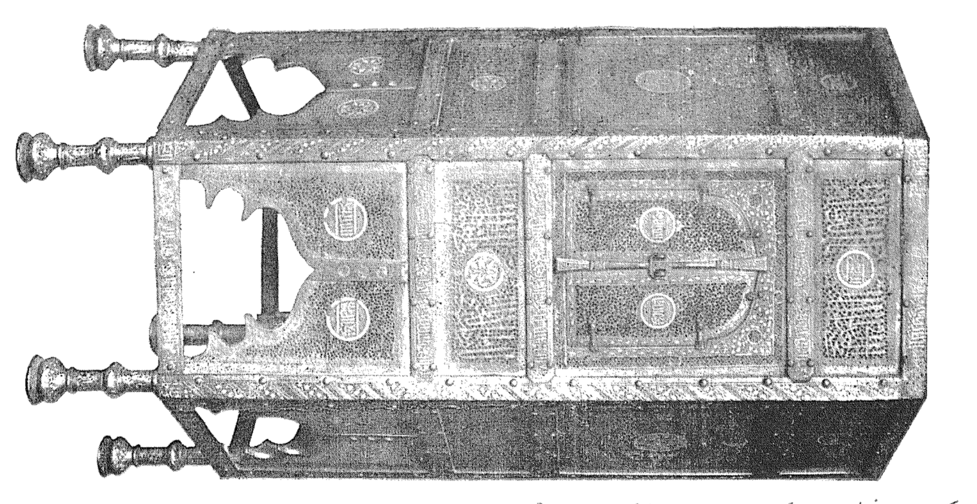
وللطبيعة ظواهر عـديدة تحمل الحواس آثارهـا إلى الذهن ؛ والإنسان بما يدركه عقله منها يتعلم كيف يسير فى دنياه، وكيف يهتدى إلى ما فيه سعادته، فينظم حياته الفردية ويدبر شئونه الاجتماعية.

لهذا كانت الدعائم الكبرى التى يقوم عليها صرح التربية والتعليم فى أرقى دول العالم مدنية وحضارة هى المشاهـدة والنظر الصحيح فى هذا الكون، وإدراك ما فيه من ألغاز وأسرار وجمال؛ إذ لا حاسة أصدق من الإبصار برؤية العين واللمس بقبضة اليد فى نقل صور الدنيا الخارجية إلى المخ وتسهيل انطباعها فى الذهن وتغلغل معانيها فى النفس .

أما شحن الذهن بما يثقله وأخذ الحافظة بما يرهقها فطريقة بالية،

---

* ألقيت هذه المحاضرة على ملأ من وزراء الدولة وكبار رجال التعليم بمؤتمر التعليم الأولى المنعقد فى يوليو سنة ١٩٢٥ بمدينة القاهرة .



كرسي من نحاس على شكل منشور ذي ستة أضلاع ، مخرم ومنقوش ومكفت بالذهب والفضة ، والكتابات المنقوشة على هذا الكرسي بعضها بالنسخ وبعضها بالكوفي ، وهي باسم السلطان محمد الناصر بن قلاوون ، ومنقوش على أرجلها كتابة تشمل اسم الصانع محمد بن سنقر البغدادي ، وتاريخ صنعه سنة ٧٢٨ هـ — ١٣٢٧ م

وكذلك حصر النشء بين الجدران المقفلة والاقتصار على الكتاب وتلقين المعلومات دون تجربة أو نظر إلى محسوس فأسلوب عقيم .

لقد حان لنا أن نترك تلك الأساليب العتيقة وأن نأخذ النشء بالتربية العملية لافتين نظره إلى صحيفة الطبيعة العامة لنربى فيه ملكات الملاحظة وحب الاستطلاع والموازنة والاستنباط .

إن صحيفة الطبيعة التى لا تُلقن ولا تستظهر لأوسع من صحائف الكتب وأجمع لمعانى الحياة وأبلغ فى الدلالة عليها من كراسات تملى عليه فيحفظها .

وإن مصر ليست بالبلاد الجدبة ، بل هى ذلك الوادى الأخضر الذى يشقه النيل السعيد وتكتنفه الهضاب والنجاد، وبه آثار أول مدنية وأقدم حضارة تشهد لأجدادنا وآبائنا بما كان لهم من نبوغ فى الفن وعراقة فى المجد والسلطان ، فهو لذلك تلك المدرسة الطبيعية التى يجب أن يتعلم فيها النشء المصرى ، وأن نبسط بين أيديهم وتحت أعينهم صفحاتها الفنية العجيبة الخالدة لنقوى فى نفوسهم الروح القومية والاعتزاز بذكريات الماضى المجيد .

فإلى عشاق الطبيعة وأهل الفن والمعلمين والمتعلمين أهدى هذه الرسالة الوجيزة ، لعلهم يجدون فيها ما يساعد على تقوية عاطفة الجمال و« تربية الذوق السليم » .

تمهيد

إن التربية الصحيحة هي التي ترمى إلى غايات ثلاث :

حب الحق الذى هو نتيجة التربية العقلية . وحب الخير الذى هو نتيجة التربيــة الُخلقية . وحب الجمال الذى هو نتيجة التربية الذوقية ، ولـكل غاية من هذه الغايات الثلاث سبيل يوصل إليها. فسبيل التربية العقلية العلم . وسبيل التربية الخلقية الدين والأخلاق . وسبيل التربية الذوقية الفن الجميل .

* * *

على أن العلم بكشفه بعض القوانين الطبيعية يعمل فى الحقيقة على تسخير الطبيعة فى تذليل مصاعب الحيــاة . والأخلاق تعمل دائماً على التضييق عليها بالضغط على النفوس البشرية والمباعدة بينها وبين شهواتها. والأديان تعمل على الازدراء بالدنيا وتحقيرها ومقتها .

فنهوض الأمم بالعــــلم والدين والأخلاق رقى محصور فى دائرة الضرورة المادية، ولـكن الانسانية لا تعيش بالخبز والماء فحسب، بل لا بد لها من التمتع بشىء من السعادة والهناء وسكينة البال والانتقال من ميدان الضرورة ومجال الحاجة إلى بحبوحة العيش وساحة الحرية ؛ ولا شىء يكفل لها ذلك إلا الفنون الجميلة ، فهى لغة العواطف والوجدانات التى تتحرك فى عالم الضمير حرة مستقلة ،دون أن يكون للاستعباد أو الإذلال أثر فيها، وهى التى تصعد بالانسان ساعات من هذه الدنيا وهمومها



قرصة كرسي من نحاس مخرم ومنقوش ومكفت بالذهب والفضة . والكتابات التي عليه تتضمن اسم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، ومنقوش على أحد أرجله إمضاء صانعه محمد بن سنقر البغدادي، وتاريخ صنعه سنة ٧٢٨هـ — ١٣٢٧م

ومتاعبها إلى سماء السعادة والرفاهية،ولذلك لايحكم التاريخ على الأمم إلا بمبلغ رقيها فى الفنون الجميلة ونصيبها منها ، لأنها هى التى تنم عن صدق الحس وقوة الشعور وحقيقة العواطف ومبلغ الاقتدار على الإدراك والإبداع والابتكار والاختراع وإبراز مايستكن فى ضمائر النفوس الطليقة من صور رشيقة وأشكال مبدعة جميلة.

فالاختراع والابتكار من المميزات الأساسية للفنون الجميلة ،ولهذا ينفرد الانسان بها دون الحيوان؛ فالنملة مثلا على عجيب صنعها،لايتأتى لها أن تكون صَناعاً (Artiste) [١] لأنها لاتخترع ولاتبتكر، بل إن نملة اليوم تبنى مسا كنها كما كانت تبنيها النملة منذ القدم.

إذاً الفنون الجميلة ركن من أركان التربية الحديثة الصحيحة، وبدونه تكون سائرة سير الأعرج الذى يتبين فيه العجز ويظهر عليه القبح ؛ ولا يتسنى لأولى الأمر فى أمة ما أن ينهضوا بها نهوضاً فنياً يربى الذوق ويخلق العاطفة إلا إذا اتخذوا الفنون الجميلة ، من رسم وتصوير وموسيقى وغناء، عصاهم التى عليها يتكئون وعدتهم التى بها يصنعون . وها نحن أولاء ذاكرون عن كل أصل من تلك الأصول كلمة موجزة تبين علاقته بالتربية وتشرح تأثيره فى نمو الذوق .

---

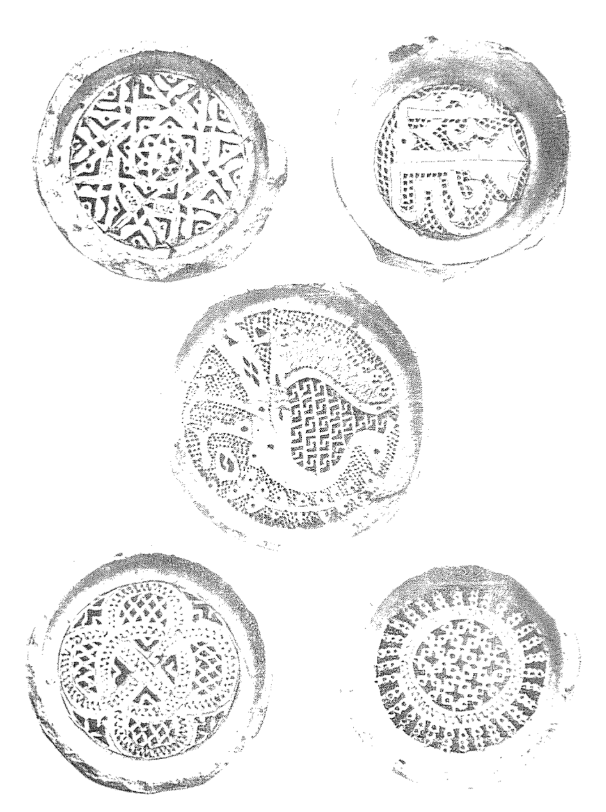
(١) رجل صَنَع وصنع اليدين أى حاذق دقيق ، وامرأة صَناع ، ويقال أيضا :رجل مِفَنّ يأتى بالعجائب ،وامرأة مِفَنّة (Artiste)

الرسم والتصوير

يقولون إن التربيـة الذوقية هى تعويد النفس الاستمتاع بالحسن وتذوق الجميل من الأشياء والأفعال،وأساس ذلك كله النظر الصحيح، وخير ما ينظر إليه فى هذا الـكون الطبيعة، فهى كتاب مفتوح أمام الأعين قد حوى من آيات الجمال وإحكام الصنع مايبهر العقل ويسترعى الفـكر ويثير الوجدان .ويلحق بمناظر الطبيعة التحف الفنية والطرف الأثرية التى ابتدعتها اليد الصناع .

خطب المسيو ليج وزير المعارف الفرنسية ســـابقاً فى إحدى الحفلات المدرسية فقال : « لا شيء يشد العزائم ويقوى الهمم ويهذب الطبع وينقى النفس مثل النظر الصحيح إلى مظاهر الطبيعة والتأمل فى دقائق التحف الفنية والطرف الأثرية،إذ ينبعث منها ما يُـشعر بالعظمة والقدرة التى تباعد بين الإنسان وبين الغرائز السافلة ، وتثير فى صدره الطموح إلى المعالى والنزوع إلى الـكمال »

فاذا لم يُرب الإنسـان من الصغر على النظر إلى عجـائب ما خلق الله من حيوان ونبات وجماد ، ولم يوجه فـكره إلى التأمل فى حسن ترتيبه وتنسيقه وبديع تقسيمه وتصنيفه، ويجتهد فى كشف اللثام عن أسراره وكنوزه، فقد حُرم لذة لا تعدِلها لذة ، وضاعت منه غبطة ومسرة ،حاجته إليها لا تقل عن حاجته إلى الغذاء والشراب، فإن فى السرور والفرح قوة تحبب إلى الإنسـان العمل وتخفف عنه عبء



شبابيك قلل من فخار عثر من [illegible]ينا . زخارفها منقوشة بدقة فائقة ، بأطراز مشابهة للدنتلا . ومرسوم بالشباك الأوسط طاووس واقف ، وناشر ذيله بعجب وعظمة .

الحياة ، وكم يكون الفلاح سعيداً إذا عرف كيف يتذوق جمال الطبيعة التي تحوطه بهائها وجلالها .

كان هربرت سبنسر في صغره يحب التنزه في الخلوات والمتنزهات، وكان ولوعاً بعمل المجموعات من النبات والحشرات ، فلما كبر كتب هذه العبارة « من لم يعتد في صغره التجول في الخلاء وتنسيق مجموعات من النبات والحشرات صعب عليه أن يفقه ما انطوت عليه المروج الخضراء والحقول الزهراء من رائق الشعر ورائع النظم »

وكان داروين على عكس ذلك في صغره ، فلما كبر رثى حاله وندب حظه على إهماله تلك التربية في الصغر حتى فقد تذوقها في الكبر ، وكان يقول : « إن عدم العمل على تذوق الحسن وإهمال تربية عاطفة الجمال لهو فقدان السعادة ذاتها، على أن ذلك الإهمال قد يخمد شعلة الذكاء ويضر ضرراً بليغاً بالأخلاق » .

في التربية الذوقية كما في التربية العقلية والخلقية يحسن التدرج مع الأطفال وعرض المناظر التي تتناسب مع أسنانهم وتتمشى مع إدراكهم ، أما الأشياء العظيمة فقد يهولهم منظرها ويخيفهم مرآها فتفوتهم الفائدة المطلوبة .

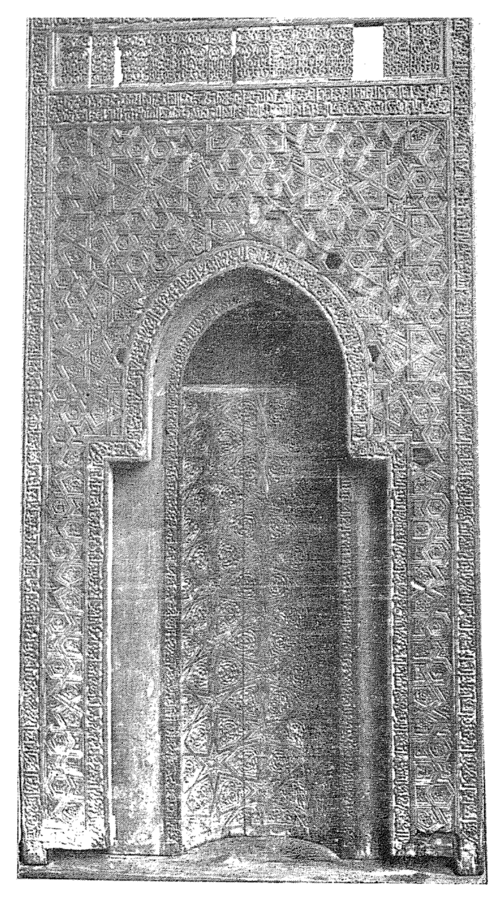
يقول الكاتب الفرنسي « بيرلوتي » إنه كانت ترتعد فرائصه عند رؤية البحر أيام طفولته ، كما إن منظر الجبل العظيم الارتفاع قد يهول الرائي فيظن الظنون ويفر منه خوفاً من سقوط حجر أو انهيال سفح أو غير ذلك مما يخطر ببال الكبير فما بالنا بالصغير !ومن منا لم يعتره

الدهش عند رؤية هرم الجيزة الأكبر لأول مرة فى حياته ؟

والمناظر التى تعجب الأطفال وتلائمهم : هى كما يقول سبنسر: الأزهار والطيور والحشرات والبحيرات وغيرها .

وأهم من النظر إليها اشتراكهم مع الطبيعة فى توليدها ومراقبة تفريخها ونموها ، لأن الانسان لايستطيع أن يدرك جمال الطبيعة تماماً إلاإذا زرع بنفسه النبات وسقى جذوره وراقب نموه،ولذلك تهتم المدارس الحديثة بإعطاء التلاميذ قطعاً من الأرض يفلحونها بأنفسهم.ففى مدينة وشنطون وحدها خمسة وأربعون ألف طفل يشتغلون بفلاحة البساتين، ويقام فيها كل سنة معرض عام تعرض فيه النباتات والخضروات والأزهار والثمار التى يعهد إلى التلاميذ فى غرسها وإنمائها ،وتعرض معها أعمالهم المدرسية النظرية وكلها لا تخرج عن معلومات مستمدة من الحدائق ، بل إن تعليم العلوم كلها من حساب وجغرافيا وأشياء وأشغال يدوية يدور هناك حول تلك الحدائق الصغيرة .

فمناظر الطبيعة خير ما يتدرج فيه الطفل لتربية ذوقه وإنماء عاطفة الجمال فى نفسه : وكلما تقدم وجد ما يناسبه ويلائمه؛ فإن جمال الكون واسع المدى بعيد الغور يبدو لذوى الفطن والنظر فى كل شىء ؛ فالكواكب الزاهرة والسحب الماطرة والأمواج المتكسرة ، حتى السكون العميق فى الليل البهيم، والصحارى القاحلة تحدق بالوادى الخصيب ، فى كل ذلك جمال وأى جمال . وإن شجرة البلوط المنفردة بارتفاع السمك وسط الغابة الغبياء فى نظر المغرم بحب الطبيعة



محراب من خشب منقوش بالحفر ، زخرفته الرئيسية عبارة عن أطباق نجمية
لشكل كثيرة الأضلاع ، مكونة من حشوات صغيرة يحيط بها إطار منقوش به
كتابات كوفية مشجرة تتضمن نصاً تاريخياً ، يجعلنا نحدد تاريخ صنعه بمنتصف
لقرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) وأصله من مشهد السيدة رقيه .

كالبيت المفرد من القصيدة العصماء فى نظر الشاعر القدير. وأى إنسان منا لم يأخذ منه العجب مأخذه عند رؤية ثور البقر متمشياً على الأرض يجتر طعامه بهدوء وسكون، ويقلب طرفه من حين إلى حين فيما حوله من فضاء دون اهتمام، كأنه راهب طلق الدنيا وزهد فى الحياة، قانعاً بالقليل من العيش فى جانب الدعة والسكون الذى يراه فى صومعته وعلى قمة الجبل.

ولا يظن أحد أن البحر الهائج المائج الذى تتلاطم أمواجه وتصطخب مياهه، خلو من الجمال فإنه جميل جمالا رائعاً لاتساعه الهائل الذى لا يحيط به النظر، وما هذا الاضطراب والاصطخاب إلا شعار رقيق يحجب وراءه جمالا ليس بعده جمال، كخمار المرأة الحسناء تداعبه الريح فيزيدها ذلك بهجة وجمالا.

على أن الفن الجميل، وإن كان يستمد من الطبيعة فى كل شىء، فإنه كذلك يعاونها ويساعدها ويضيف إليها جمالا على جمال. فالقصر الذى يشاد على قمة ربوة لاشك يزيدها بهاء وحسناً، والمدينة البيضاء التى تبنى على شاطىء البحر تزيد منظر أفقه رواء وجمالا. فالفن الجميل والطبيعة العامة متعشقان يتم أحدهما جمال الآخر، كما تتم نغمة مزمار الراعى مناظر الأودية البهيجة التى يرتع فيها، وكما يتوافق صوت الصياد مع نغمات الأمواج فى البحر الذى يصطاد فيه.

وما أحسن ماقال ابن مماتى الأندلسى يصف جزيرة الروضة بمصر وامتزاج محاسنها بمحاسن النيل.

جزيرة مصر لا عـدتك مسرة
ولا زالت اللـذات فيك اتصالهـا
فـكم فيك من شمس على غصن بانة
يميت ويحي هجرهـا ووصالهـا
مغانيك فوق النيل أضحت هوادجاً
ومختلفات المـوج فيـك حبالها
ومن أعجب الأشياء أنك جنة
تمُد على أهـل الضـلال ظـلالهـا

وقد تتجمل الطبيعة على قبحها بالفن الجميل ، فقد يـكون المنظر الطبيعي قبيحاً تستوحش منه العين ،وتنفر منه النفس ، فإذا ماتناولته يد صناع أخرجت منه صورة تسترعى العين وتستوقف التـأمل . ذلك كمنظر الثعبان تسر النفوس بصورته وتستوحش من رؤيته .

من هنا كان للرسم فى ترقية الذوق أهمية عظيمة ومزية كبرى .

وقد تخرج الأيدى الصناع من الرسوم والصور ما تـكون محل إعجاب الفن ، فمن تزاويق تأخذ بالألباب إلى زخارف تروع الأفئدة، ولـكن تـكون هذه أجمل وأروع إذا كانت تاريخية أثرية قد أكسبها جلال القدم روعة وعظمة،ومنحها إجماع الأجيال الماضية ما جعلها إماماً وقدوة ،حتى صار مثلها مثل المنائر القائمة فى البحار على الصخور الراسية، تتضاءل أمامها أمواج الأذواق المختلفة والمشاعر المتقلبة .

فذاك شئ عن مظاهر الطبيعة ونماذج الصناعة، وبخاصة الأثرى منها ، وإنه لجدير بمن يديم التأمل فيها وينعم النظر فى أشكالها ودقائقها أن يكتسب ملكة الحكم على الجمال وقوة الشعور بالحسن . (١)

وهذا غاية فى تربية الذوق ليست بعدها غاية ، ولهذا عنى الناس أشد العناية فى جميع البلاد المتحضرة بهذا النوع من التربية ، ورفعوه إلى مستوى التربيتين العقلية والخلقية .

فللأمريكيين ولع شديد وعناية فائقة بتدريس العلوم الطبيعية، ويخصص الوقت الكافى لها فى مناهج الدراسة، ولا تكاد تخلو مجلة من مجلاتهم من مقال أو عدة مقالات عن النبات والحيوان ،محلاة بالرسوم الجميلة والأشكال البديعة . وقد أنشأوا كثيراً من مدارسهم وسط الحقول والمروج ، ليكون التلاميذ على اتصال مستمر بالطبيعة ، وهم الذين اخترعوا عيد الشجرة احتفالاً بالأشجار وبث احترامها فى نفوس النشء .

وقد تقدم آنفاً شئ من عنايتهم بفلاحة البساتين، واتخاذ الحدائق وسيلة لتدريس شتى العلوم فى الدور الأول من التعليم ، وسرعان ما يتحول علم

(١) على الآباء والأمهات إذا خرجوا مع أبنائهم إلى الخلوات والمتنزهات ، أن يلفتوهم إلى محاسن الطبيعة وجمال الفن ، فاذا رأوا الشمس عند شروقها مثلا قالوا لهم : انظروا إلى هذه الشمس المشرقة ما أجملها وما أبهاها ! وإذا وقع بصرهم على منارة عالية قالوا لهم انظروا إلى تلك المنارة الشامخة وتأملوها فما أحسن قوامها وما أبدع شكلها !

بهذه الطريقة البسيطة نجح كثير من المربين فى غرس عاطفة الجمال فى الأطفال من بدء نشأتهم .

الرسم فى تلك المدارس الأولية إلى فن جميل، فتخرج الأطفال إلى الحدائق والمتنزهات، ليرسموا ما يقع تحت أبصارهم من المناظر الطبيعية المختلفة، وهذا النوع من الرسم (الرسم من الطبيعة مباشرة) يحبه الأمريكيون ويحضون عليه، لأنه يعلم الأطفال من صغرهم كيف يترجمون مايجول بأفكارهم بالأشكال الجميلة والرسوم الأنيقة، ويتعلم الطفل كذلك فى المدارس الأولية الرسم بالألوان والفرجون (الفرشة) والماء والريشة وقلم الرصاص، كما يتعلم رسم الوجوه البشرية ويحذقها بسرعة، لأنهم يتخذون من وجوههم نماذج ينقلون عنها.

والفرنسيون يقدسون جمال الطبيعة ويهيمون بمحاسنها، وها هى ذى فقرة لأحد كتابهم فى حب الأشجار، قال:

« ألم يكن حب الأشجار من الفضائل؟ أليست هى التى تأتينا بالخشب والثمر، وتزين البيوت والحدائق والشوارع، وتظلنا صيفاً وتقينا المطر شتاء، وتلطف حرارة الجو، وتنقى الهواء، وتحمينا من الرياح العاصفة، وتقف انهيار الثلوج الهاجمة وكثبان الرمال السافية، ألا إن من أحب الشجر فقد أحب الوطن، وحب الوطن من الإيمان»

وقد عنى الانجليز بهذا النوع من التربية أيما عناية، وعملوا على تشجيعه وأكثروا من دراسة الفنون والصنائع، إذ تجلت لهم الفائدة، وعظمت أمامهم النتيجة، وإن لديهم إدارة خاصة بهذا النوع من التعليم تعمل على ترقيته والنهوض به فى جميع أرجاء المملكة البريطانية، تسمى إدارة العلوم والفنون.



قطعة نسيج من كتان مزينة بجامات بها صور طيور بألوان مختلفة ، من أحمر وأزرق وأصفر ، بأعلاها وأسفلها سطران من كتابة كوفية تقليدية تجعلنا نعزوها إلى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى)

أما فى ألمانيا فقد بلغ من عنايتهم بهذه العلوم ، أن كان الامبراطور نفسه يهتم بها وينصح الأمة فى كل فرصة أن تبذل غاية جهدها فى دراسة الفنون الجميلة . وقد كان منه أن وقف خطيباً سنة ١٩٠١ فهنأ المصورين والنقاشين والحفارين الذين قاموا بتزيين دهليز النصر ببرلين بالرسوم البديعة والتماثيل العجيبة ، وها كم بعض ماقال فى هذا الموضوع:

« إن المثل الأعلى لرقى الأمم ، وبلوغ أوج الحضارة ، وذروة المدنية الصحيحة ، لهو الغاية العظمى والنهاية القصوى التى يرمى إليها الفن . ومع أنه من المحتم علينا أن نهيئ لطبقات العمال الذين يكدون ويكدحون طول يومهم عيشة يتيسر لهم معها أن يقدروا الحسن ويذوقوا لذة الفرح بالجميل ، ويخرجوا عن دائرة أفكارهم العادية ، ويسبحوا هنيهة من الزمن فى غياض الجمال ... إلى أن قال :

« ألا إن تربية العامل لمن أكبر ما تعنى به الأمم الحية ، فإذا أردنا أن نكون ونظل مثالا تحتذيه الأمم الأخرى ، فعلى الأمة بأسرها أن تشترك فى هذا العمل ، وتعمل على معاضدته وإعلاء شأنه ، وإذا شاء الفن أن يأتى بالغرض المطلوب منه ، فلا بد له من أن ينفذ إلى الطبقة الدنيا من الأمة ، إذ أن لكل رجل ــ كائناً من كان ــ شعوراً يميز به الحسن من القبيح » .

الموسيقى

الطرب غريزي فى الإنسان ،مولود معه ، يؤيد ذلك الفقرات والعظام المثقبة ، المهيأة للزمير والصفير ، التى عثر عليها علماء الجيولوجيا فى المغارات التى قطن بها الإنسان أول ظهوره على سطح الأرض . فلا يبعد أن يكون الإنسان قد تغنى قبل أن يتكلم . على أن كل شيء فى الوجود يتغنى ويترنم ، فالطيور بتغريدها، والأشجار بحفيفها،والمياه بخريرها ، فما بالك بالإنسان والغناء له من ضرورات الحياة ، وكثيراً ما يغنيهعن طعامه وشرابهوسائر لذاته ؟ وها كم حكاية فى الموضوع :

« نقل المبرد فى كامله عن عمر الوادى أنه قال : أقبلت من مكة أريد المدينة، فجعلت أسير فى صَمرد من الأرض ،فسمعت غناءً لم أسمع مثله،فقلت:والله لأتوصلن إليه ولو بذَهاب نفسي،فانحدرت إليه فإذا عبد أسود،فقلت له:أعد عليّ ما سمعت،فقال لى: والله لو كان عندى قرى أقريك لفعلت ،ولكنى أجعلهقراك،فإنى ربما غنيت هذا الصوت وأنا جائع فأشبع،وربما غنيته وأنا عطشان فأروى ، وربما غنيته وأنا كسلان فأنشط ، ثم انبرى يغنيني :

وكنت إذا مازرت سُعدى بأرضها
أرى الأرض تطوى لى ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ودَّ جليسها
إذا ماقضت أحدوثة لو تعيدها

قال عمر : فحفظته عنه، ثم تغنيت به على الحال التى وصفها، فإذا هو كما ذكر »

والموسيقى من أهم أنواع الفنون الجميلة ، لأنها أقواها أثراً فى النفس ،وأسرعها نفاذاً إلى القلب ، وإذا اقترن بها الغناء بالأصوات الموضوعة على نسق التلحين وأصول النغم ، ضاعف أثرها فى القلب وسريانها فى النفس ،فإن الله جلت قدرته لم يخلق شيئاً أوقع فى القلب وأشد اختلاساً للعقول من الصوت الحسن، كذلك كانت العرب تقول.

والغناء بالأصوات الموضوعة هو الذى يناسب التعليم العام لبساطته وكثرة تداوله، ولا سيما إذا كان إجماعياً لأنه إذ ذاك ينمى فى الأطفال غرائز الألفة والتضامن والاتحاد .

وليست الموسيقى فناً كمالياً لا يقصد منه إلا الفرح والسرور ، كما يتوهم بعض الناس، وإنما هى أداة عجيبة قوية على لطافتها ورقتها ، ذات أثر فعال فى ترقية الأخلاق وتقويم النفوس . نعم ليس فى مُكنة أحد أن يكشف الغطاء عن السر فى تأثير الموسيقى فى الطبائع البشرية، ويصل إلى تعليل فعلها البالغ فى النفوس ،فإنها ظاهرة تدرك وتحس أكثر من أن تحلل وتعلل ، وكلنا يعلم أن ذلك التأثير المدهش، يخترق الجسم والنفس معاً اختراق الكهرباء للسلك،ويتغلغل فى أعماق القلب وحظائر النفس إلى مدى بعيد .

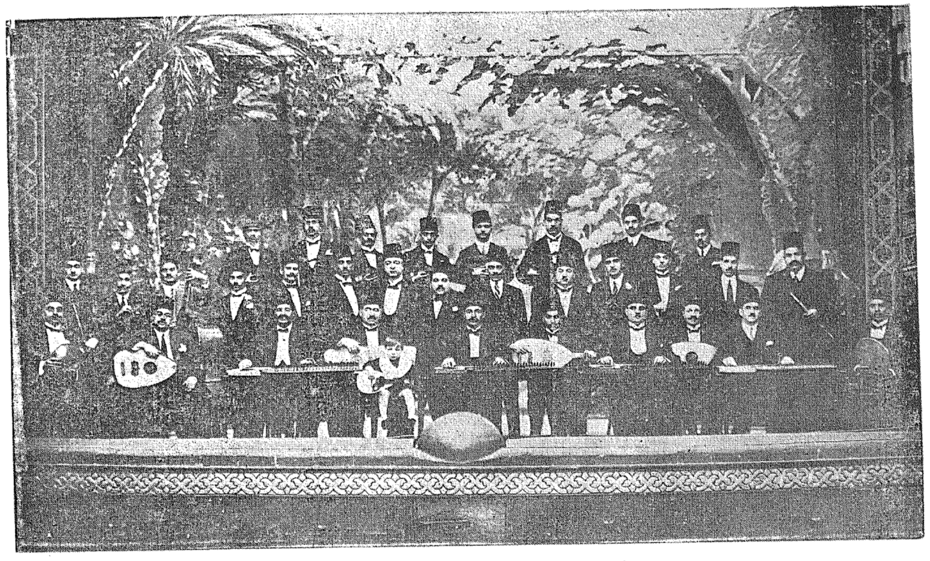
نعم الأصوات الموسيقية غامضة مبهمة لاتنص على اتباع فضائل معينة، كما هى الحال فى درس الأخلاق،ولكنها مع ذلك تحدث فى الجسم

والنفس معاً هزة تسمو بالإنسان إلى ذروة الفضائل عموماً، وهذا الغموض وذاك الإبهام، هو السر فى قوة تأثيرها فى القلب، وشدة تحريكها للنفس، لأن المعقولات ليس لها قيمة تذكر فيما له علاقة بالعواطف والميول فى الزمر والجماعات، إذ هى مقصورة على تربية العقل، مع أن فى النفوس البشرية مناطق أخرى أكثر عمقاً وأبعد غوراً من منطقة العقل وهى مناطق الميول والعواطف والإرادات.

فاذا أردنا أن نربى الأطفال تربية كاملة، لا ينبغى أن نقتصر على تربية عقولهم، بل يجب أن نذهب إلى قرارة نفوسهم وأعماق قلوبهم، ونغذيها بالنغمات الموسيقية، فهى الكفيلة بتحريك عواطفهم وإثارة وجداناتهم، والنهوض بهم إلى الفضائل العالية والأخلاق السامية.

أما إذا حرمت المدارس الغناء فإنها تكون معامل تعليم تخرج قرائح مضبوطة وأذهاناً صحيحة، ولكنها لا تخرج نفوساً حية كبيرة، وما بال مدارسنا اليوم تخلو من الغناء والتاريخ ينبئنا فى قديمه وحديثه أن مصر مهد الموسيقى وموطن الغناء، فإن أول قطعة موسيقية فى تاريخ الإنسان هى تلك القطعة المصرية القديمة المكتوبة على ورق البردى باللغة الهيروغلوفية والمحفوظة إلى اليوم فى أحد متاحف باريس.

وهذا عهد محيى مصر المصلح الكبير محمد على، وإنه منا لقريب، ينبئنا بأنه أسس مدرسة الموسيقى فى الخانقاه بمصر سنه ١٨٢٤ وكانت فى عداد المدارس العالية وكان بها ١٥٠ تلميذاً.



فرقة الحفلات بالمعهد الملكي للموسيقى العربية بالقاهرة

كما أسس لذلك مدرسة العزف بالنخيلة سنة ١٨٢٩ ، ومدرسة الآلاتية بالقاهرة سنة ١٨٣٤.

وهذه الأمة الإنجليزية قد عنيت بأمر الموسيقى فى مدارسها، وخصصت لها أوقاتاً فى مناهجها ،وشجعت التلاميذ على النبوغ فيها بطرق شتى، منها أن النابغين فى الألعاب الرياضية يكلفون أن يتغنوا بما حصلوا عليه من الجوائز والمكافآت فى مضمار الألعاب الرياضية بالشعر الملحن على الموسيقى، ثم تحفظ المدرسة هذه الأغانى فى كراسات ذخائر لها لا تظهرها إلا فى الحفلات الرسمية الكبرى ، فتوزعها على التلاميذ الحاليين للغناء فيها،وإن السعيد منهم من يحصل على كراسة أحد المشهورين من كبار الرجال ، الذين تربوا فى مدرستهم . ولقد مر أحد الأساتذة يوماً ، والتلاميذ فى حفلة من حفلاتهم هذه يفرحون ويمرحون ويغنون الأغانى الجميلة والأشعار الشائقة،فقال لهم :

« تغنوا يا أبنائى الأعزاء بمجد انجلترا التالد ، الذى طالما تغنى به كثير من كرام أبنائها قبلكم ،وكما سيتغنى به من نجباء الأبناء بعدكم ، وإذا وصلتم مثلى إلى آخر مرحلة من أعماركم ، فسترون هذه الأغانى ترن فى آذانكم كما يرن الصدى البعيد المدى بذكريات الشباب وحوادث الصبا »

ولعل أعظم المؤثرات فى حب الإنجليز لبلادهم والتغنى بمجدهم يرجع إلى الموسيقى .

ذهب العالم الفرنسى (دى كوبرتين) إلى انجلترا لفحص مناهج

التعليم بها، فلم ير فيها أثراً لتعليم حب الوطن، وكتب فى هذا الصدد ما يأتى:

« إن الطريقة المألوفة عندنا فى تعليم حب الوطن ، هى التضحية بالحياة فى ساحة الحرب، ولقد حادثت كثيراً من الانجليز فى هذا الموضوع، فرأيتهم لا ينظرون إلى هذه الطريقة بعين الاعتبار التى ننظر بها ، ولا يهتمون بشأنها بعض ما نهتم، وكم كان ذلك يدهشنى منهم، ويجرح عواطفى.

ولكنى بعد التروى وإنعام النظر، التجأت إلى أن أعترف بأن الوطنية فى هذه الأمة، التى فتحت جزءاً عظيماً من هذه المعمورة ، لا بقوة السلاح بل بالعمل والنشاط ، تلبس ثوباً غير الثوب الذى تلبسه عندنا، فالوطنية عند الانجيز لا تُعلم فى المدارس، ولا تؤخذ من الكتب ، وإنما هى نتيجة لازمة لتعليم فن الموسيقى ، فهى عندهم تنطوى تحت أنشودة واحدة ، يتغنون بها كلما سنحت الفرصة لتمجيد بلادهم وإعلاء شأنها. تلك الأنشودة هى « God save the King ليحى الملك » .

ذلك ماقاله هذا العالم البحاثة ، ثم ساق تأبيداً له وتوثيقاً الحكاية الآتية :

قال : كنت نازلا فى فُندق من فنادق لندن الكبيرة ، فرأيت ابن صاحب الفندق ، وكان حدثاً صغيراً ، جالساً فى حجرة (البيانو) يقرأ فى كتاب بغرام زائد بدليل أنه لم يكن يعير صوت (البيانو) أذناً مصغية، وبعد أن لعب الضيوف القطع الموسيقية التى أحبوا ضربها جاء دور النشيد الوطنى المذكور ، فأسرع الغلام واقفاً وقفة احترام وإجلال، دون أن يرفع عينيه من الكتاب .

ولما أن فرغ النشيد، جلس كما كان مكباً على قراءة كتابه اللذيذ، فعلام يدل ذلك؟ لاشك أنه يدل دلالة واضحة على أن احترام الملك وحب الوطن أصبح عندهم طبعاً، فسرى فى عروقهم، وامتزج بدمائهم، ونقش على ألواح صدورهم، حتى أصبح الواحد منهم يعمل مايحتاج إليه وطنه، وتطلبه خدمة بلاده بدافع فطرى من نفسه ولحمه ودمه، وكأن الحركة عندهم لخدمة الأوطان أصبحت من الحركات الاضطرارية التى تقوم بها الأعضاء دون استشارة الفكر أو أخذ رأى العقل .

* * *

وإنى أعتقد اعتقاداً جازماً صحة هذه النظرية وأعترف بأن للموسيقى والأناشيد فعلا بالغاً فى تربية العاطفة الوطنية، وتقويم الروح القومية.

فإنى وقد أربيت على الخمسين لا أزال أذكر أغنية ريفية كانت فتيات بلدتى (عمروس) يتغنين بها وأنا حدث صغير ، ولا أزال كلما ذكرتها أصبو إلى تلك القرية صبواً وأحن إليها حنيناً . تلك الأغنية الريفية الجميلة التى هى السر فى الهيام بذلك الوطن الصغير أولا والكبير ثانياً هى :

يابـــلدنا ياللى على علوه عيشك كويس وميتك حلوه

وإذا كان للأناشيد القومية تلك المكانة السامية فى التربية الوطنية، فلا أظن أن شاعر مصر الكبير شوقى وغيره من فحول الشعر وأمراء النظم أمثال: حافظ، ومطران، والهراوى، وعبد المطلب ، يضنون على أهل القرى بأناشيد تلائم أحوالهم، وتناسب أذواقهم وعاداتهم ، كما فاضت

قرائحهم الوقادة بالأشعار الجميلة والأناشيد الحكيمة على المتعلمين من أهالى المدن .

إنهم إن لبوا نداء أخيهم — ولا أخالهم إلا ملبين — يكونوا قد غرسوا حب الوطن فى أفئدة النشء ونقشوه على حبات قلوبهم ، ورفعوا راية الوطنية المصرية إلى مستوى أمثالها فى الأمم الراقية .

ولا يفوتنى لهذه المناسبة ، أن أثنى بالقلم وباللسان على ذلك النفر القليل من عشاق الموسيقى ومحبى الغناء من شباننا النابهين الأذكياء، الذين حداهم ميلهم إلى الفن والرغبة الأكيدة فى إنهاضه ، إلى إنشاء نادى الموسيقى الشرقى ، الذى يحق لكل مصرى أن يغتبط بالنجاح العظيم الذى صادفه على قرب عهده وحداثة سنه.

حقاً لقد ضرب لنا هؤلاء الفتيان وعلى رأسهم الشاب النشيط الأمين مصطفى بك رضا مثلا عالياً فى الصبر والثبات والمثابرة على العمل ، وأقاموا دليلا ناهضاً وبرهاناً ناطقاً، على أن النبوغ حب صميم، وصبر طويل ، ويقينى أنهم معيدون لنا عما قريب عهد المصلح الكبير محمد على وعهد المهدى والرشيد فلله دَرّهم ودَرّ كل أمة منا يقومون بأنفسهم يدعون إلى الخير والعمل المثمر الصالح ، وينهضون بمرفق من مرافق الدولة الحيوية ، وهى أكثر من أن تحصر ، وأوسع من أن تضيق عن جهود الناس كافة أفراداً وجماعات .

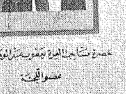














حضرة صاحب العزة محمد زكي علي بك
عضو اللجنة

جناب البارون رودلف دي ارلنجر
نائب رئيس فخري المؤتمر

حضرة صاحب السعادة عبد الفتاح صبري باشا
وكيل وزارة المعارف العمومية ونائب رئيس المؤتمر

حضرة صاحب العزة أنور نجيب الهلالي بك
عضو اللجنة

حضرة صاحب المعالي محمد حلمي عيسى باشا
وزير المعارف العمومية ورئيس المؤتمر

لجنة تنظيم مؤتمر الموسيقى العربية
الذي عقد بالقاهرة في سنة ١٩٣٢

حضرة صاحب العزة يعقوب [illegible] بك
عضو اللجنة

حضرة صاحب العزة مصطفى رضا بك
عضو اللجنة

دكتور محمود احمد الحفني
سكرتير عام المؤتمر

جناب المسيو [illegible] كانوني
عضو اللجنة

أهم الطرق العمليـــــة

لتربية الذوق السليم فى النشء

أولا : يجب أن تكون المدرسة وسط الحقول والخلوات ،لتصح أجسام الأطفال وعقولهم ،وليكونوا على اتصال مستمر بالطبيعة .

ثانياً : أن تخصص مساحة من الأرض بجوار المدرسة ، لتمرين التلاميذ على فلاحة البساتين ، فيعطى كل واحـد منهم قطعة صغيرة يزرعها ويتعهدها بنفسه على مثال مايجرى فى مدارس واشنطون .

ثالثاً: أن يكثر المـدرسون من الخروج مع التلاميذ إلى الحقول لتنسيق المجموعات من أزهار النبات وأوراقها والطيور والحشرات وغيرها ،ليتعودوا النظر الصحيح إلى الكائنات،ويتعرفوا ما أودعتهـا يد القدرة الإلهية من عجـائب وأسرار ، وأفاضت عليهـا من نضرة وجمـــال .

رابعاً : أن يعود التلاميذ من صغرهم، رسم المناظر التى تقع تحت بصرهم وفى دائرة عملهم من الطبيعة مباشرة ، كمايفعـل الأمريكيون فى مدارسهم .

خامساً : أن يتردد التلاميذ تحت إرشاد معلميهم على دور الآثار وأن يتأملوا الذخائر الأثرية والتحف الفنية،لتتربى فيهم ملكة الجمال وحب العمل الخالد والرغبة فى اقتناء النفيس مماترك الآباء والأجداد .

سادساً: أن يتغنى التلاميذ كل يوم بالأناشيد التى تناسب أسنانهم، وتتمشى مع مداركهم، ويحسن أن يكون غناؤهم معاً ليتغلغل حب الوطن فى نفوسهم، وتتوثق بينهم روابط الألفة والتضافر والاتحاد .

سابعاً : أن يقلل من جلوس التلاميذ أثناء التدريس ماأمكن، وأن يقترن التعليم بالحركة والعمل لكى يسير الجسم مع العقل جنباً إلى جنب :

(L'istruction par l'action)

ملاحظة : يجب ألا يعزب عن ذهن المدرس فى التربية الذوقية كما فى التربيتين العقلية والخلقية، أن عقل الطفل عند ولادته ليس صحيفة بيضاء خالية من كل نقش، ولا أرضاً قاحلة مجردة من كل غرس، كما كان يعتقد المربون قديماً، بل هو أداة فطرية فى الإنسان مجهزة بقوى ذاتية وميول وغرائز عقلية، تدخل إليها المؤثرات الخارجية من طريق الحواس فتحركها وتزيدها بالتكرار والاستمرار قوة ونماء ورقياً .

تلك الغرائز والميول المخلوقة مع الأطفال، هى للمفكر بمنزلة الهيكل العظمى للجسم، تربط أجزاءه وتجمع شتاته وتضم أوصاله .

وأهمها المحاكاة والمباراة والمنافسة، ولا سيما حب الاستطلاع الذى لايجعل الطفل يكتفى بمجرد النظر إلى الأشياء، بل يدفعه إلى استكشافها وتعرف ماظهر منها ومابطن، وإلى الاكثار من السؤال عن كل شئ يعنيه أولا يعنيه .

فعلى كل أب وأم ومدرس أن يتعهد هذه الغريزة القيمة ويحولها

إلى وجهتها ، وينميها ويقويها فى الطفل ماوجد إلى ذلك سبيلا، فيجيب عن أسئلته ويبعثه إلى السؤال .

وإن أقصى ماتطمح إليه أنظار المربين فى الوقت الحاضر ، هو تخفيف سلطانهم على تلاميذهم تدريجاً، حتى يقفوا منهم موقف المسئولين لا السائلين، والمرشدين لا المسيطرين المتحكمين .

ملاحظة

يلاحظ القارئ أن الأستاذ العمروسى بك حرص فى محاضرته هذه «تربية الذوق السليم وأثر الفنون الجميلة فيها» ، وفى محاضرته الأخرى « الفنون الجميلة عند العرب » ، على التنويه بالفن العربى الجميل ، ولذلك اختار مجموعة من روائع صور ذلك الفن ، الموجودة فى دار الآثار العربية ومتحفها الخاص ، مما يراه القارئ موضوعاً فى ثنايا الكتاب .

ولا غرو فى هذا ، فالأستاذ من أولئك القلائل الذين اختارهم جلالة مولانا الملك ليكونوا أعضاء عاملين فى لجنة حفظ الآثار العربية .

وقد صدر المرسوم الملكى بتجديد انتخابه مرة أخرى عضواً فى تلك اللجنة بتاريخ ٢٥ ذى الحجة سنة ١٣٥٠ (أول مايو سنة ١٩٣٢) .

وها هو ذا نص الكتاب المرسل إلى الأستاذ فى ذلك الشأن نثبته بنصه :

حضرة صاحب العزة أحمد فهمى العمروسى بك

أتشرف بأن أبلغ عزتكم أن المرسوم الملكى الصادر فى ٢٥ ذى الحجة سنة ١٣٥٠ (أول مايو سنة ١٩٣٢) بتعديل لجنة حفظ الآثار العربية، قد نص فيه على تعيين عزتكم من الأعضاء العاملين باللجنة المشار إليها.

وإنى ليسرنى أن أعرب لعزتكم فى الوقت نفسه عن عظيم ابتهاجى بتعضيدكم المتواصل فى العمل على حفظ الآثار العربية، واثقاً بأن اللجنة ستنال من ذلك فى مهمتها الجليلة ما يعود عليها بأكبر فائدة .

وتفضلوا عزتكم بقبول فائق الاحترام،،

٩ مايو سنة ١٩٣٢ وزير الأوقاف

ورئيس لجنة الآثار العربية

أحمد على





حشوتان فاخرتان من الخشب ، مزينتان بطرز مشابه لأحد أبواب القصور الفاطمية ، والفروع والزهور ورأسا الحصانين المرسومين على هاتين الحشوتين كلها منقوشة ومفرغة باعتناء تام (من القرن الرابع الهجرى — العاشر الميلادى)

العقل وكيف يتكون

العقل وكيف يتكون *

أتشرف بأن ألقى على حضراتكم معلومات إجمالية عن العقل وكيفية تكوينه لنستنبط منها ما قد يعود على التربية بالفائدة وبالأثر النافع فى التعليم .

وفى اعتقادى أنه موضوع جدير باهتمام العقلاء والمربين خاصة ، لأن الواجب على كل من يتصدى لتربيــة النشء وتثقيف عقوله بالعلوم والمعارف ، أن يُلم بأهم النظريات الفزيولوجية (علم وظائف الأعضاء) والمشاهدات النفسية الفلسفية ؛ يستوى فى ذلك المربى والوالد إذا أراد كلاهما أن يبنى العقول على أساس صحيح ويقومها على قواعد النظام والترتيب ؛ ذلك لأن النفس فى حالتها الراهنة ، أعنى فى حالة ملابستها الجسم واتصالها به ، لا يمكنها أن تفكر بدون المخ – وهو الأداة الوحيدة التى تستخدمها للقيام بأعمالها المتنوعة – كما أنه لا يمكنها أن ترى الدنيا الخارجية بدون العين ولا أن تسمع حركتها بدون الأذن .

ولقد دلت المشاهدات العلمية والأعمال التشريحية ، على أن كل فساد يطرأ على قوة من القوى العقلية ، يكون منشؤه فساداً فى بعض الخلايا المخية ، لذلك وجب علينا أن نبدأ القول بكلمة موجزة عن المجموع

---

* ألقيت هذه المحاضرة على ملأ من كبار رجال العلم والمعلمين بدار نقابتهم فى ٦ مارس سنة ١٩٢٢

العصبي المركب من المخ والمخيخ والنخاع المستطيل المـائلة لتجويف الجمجمة ، ثم يليها النخاع الشوكى المسترسل فى القناة الظهرية إلى القطن فالمجموع العقدى (أو العظيم السمباتوى) فالأعصـاب التى تربط تلك المراكز العصبية بجميع أجزاء الجسم .

وهي خيوط دقيقة جداً لدرجة أن كل عشرة آلاف منها لا يزيد سمكها على ملليمتر واحد ، وهى كما ترى فى شكل (٣) منبثة فى عامة أجزاء الجسم لتبلغ ما يقع من الحـوادث إلى المخ وتنقل ما يصدر عنه من الأوامر إلى محل الوقائع .

(١) المخ ـ مكون من طبقة سنجابية ذات تموج وتعرج ، هى مستقر الفكر والإرادة ولـكل وجهـة منها عمـل خاص من الأعمال العقلية المختلفة .

فمثلاً رأى العـالم بروكا سنة ١٨٦١ شخصاً فقد النطق إثر نوبة شللية ولـكنه كان يفهم ما يلقى عليـه

شكل ١

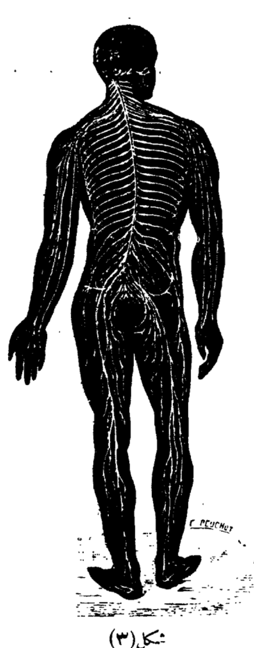
من الأسئلة ويجيب عنها تحريرياً،فلما مات المريض، فحص مخه فوجد بالتلفيف الثالث الجبهى خدشاً ، فاستنتج بعد مشاهدات كثيرة أنه مركز النطق أى مركز الذاكرة المحركة للألفاظ الشفوية ، وسمى ذلك الموضع بتلفيف بروكا .

والمخ مركز الأفعال المنعكسة الإرادية التى سنشرحها بعد .

(٢) المخيخ ـ لايزال حتىاليوم مجهول الآثار، إذ لم يعرف منها سوى تنظيمه لحركات الجسم ، بدليل أنه إذا استؤصل من الدماغ اختلت الحركات أوعدمت مع بقاء الفكر غير منقوص.

شكل (٢) العصب الرئوى المعدي
Nerf pneumo-gastrique

(٣) النخاع المستطيل ـ كتلة عصبية صغيرة ، أسفل المخيخ ذات أهمية عظمى فى الحياة . إذ بها نقطة (أسماها فلورنس : عقدة الحياة) هى منشأ العصب الرئوى المعدى المبين بالشكل الثانى ، وهو المنظم لحركات الرئتين والقلب،وإذا قطعت أو جرحت فقد الجسم الروح من فوره لانقطاع التنفس .



شكل (٣)

وبجانب عقدة الحياة نقطة إذا خدشت اختل إفراز السكر من الكبد وأصيب الشخص بالبول السكرى وهكذا.

(٤) النخاع الشوكى – ينزل فى القناة الظهرية إلى القطن. وهو مركز الأفعال المنعكسة غير الإرادية.

فلو وخز أى عضو من جسم نائم انسحب فى الحال من موضعه بدون أثر للمخ فيه، بل بأمر النخاع الشوكى الذى وصل اليه الأثر فأوحى بالحركة، ولذا تكون تلك الحركة مضطربة على غير هدى. فقد يصطدم العضو بما يؤذيه أثناء انسحابه، أما فى حالة اليقظة فإن النخاع الشوكى ينقل إلى المخ المؤثرات الخارجية، ويوصل الأوامر الصادرة عنه إلى الجهات المتأثرة.

فالمخ هو الذى يدير دولاب وظائف المخالطة، أى الحياة الحيوانية من إحساس وحركة؛ كما أنه يشرف على وظائف التغذية، أى الحياة النباتية كالهضم والتنفس والدورة الدموية والإفراز، لأنها وإن كانت آلية لا دخل للإرادة فيها إلا أنها مرتبطة بالمخ بدليل أن الانفعالات

النفسية القوية من شأنها أن تحدث اضطراباً فى دورة الدم والإفراز، وينشأ عن ذلك اصفرار الوجه والإغماء والسكتة المخية وذرف الدموع اضطراراً من العين ، وإن إجهاد المخ في المسائل العقلية ـ لاسيما بعد الأكل مباشرة ـ من شأنه أن يعوق عملية الهضم، إن لم نقل إنه يوقفها.

والذى يهمنا هنا هو أعمال الحياة الحيوانية التى تتجلى فى الإحساس والحركة، وتلك الأفعال، سواء أكانت بسيطة أم مركبة، كلها أفعال منعكسة إرادية، ولتقريب ذلك من الافهام نقول:

إن المؤثرات فى أى جهة من جهات الجسم ، ينتقل أثرها إلى المخ بواسطة أعصاب تسمى أعصاب الحس ،وهناك يتحول هذا التأثير إلى إدراك وعلم بواسطة الخلايا الحسية المخية ، التى بعد التمحيص والمداولة تصدر الأمر إلى الجهات المتأثرة من الجسم بواسطة أعصاب أخرى يقال لها أعصاب الحركة .

أمثلة توضح ذلك :

١— إذا شككنا أى نقطة من عضلة اللسان بإبرة مثلا ، فإن التأثير ينتقل إلى المخ فوراً بواسطة عصب الحس، فتتداول الخلية الحسية المخية المرتبطة بهذا العصب فى أمر ذلك المؤثر الخارجى، وتجيب عنه بإصدار أمرها بواسطة عصب الحركة إلى عضلة اللسان بالانسحاب والانقباض، تجنباً للخطر المحدق به.

٢— إذا وضعنا قطعة من السكر على اللسان، فإن الخلايا الحسية تصدر بعد التمحيص أمرها إلى الغدد اللعابية ، فتفرز مايكفى من اللعاب

لإذابة السكر وابتلاعه، لأنه ملائم للبغية بخلاف المسألة الأولى .

٣- الوردة فى الحديقة تعبق منها رائحة ذكية فيصدر المخ الأمر إلى الجذع والأطراف بالانحناء وقطف الوردة لملاءمتها للجسم .

وعلى هذا ، فالمخ والأعصاب يمكن تشبيهها بوزارة الداخلية للمملكة الجسمية ، فكما أن وزارة الداخلية مرتبطة مع جميع المدن بواسطة البرق والمسرة (التلغراف والتليفون) ، حتى إذا وصل إليها خبر حادث من الحوادث ، اجتمع الوزير بمن يشاركه فى الأمر ، وفحصوا الأخبار الواردة، ثم أصدروا أمرهم بما يجب اتباعه، فكذلك المخ يعمل على هذا النمط كما أوضحته لحضراتكم .

وإنما سميت تلك الأفعال المخية بالمنعكسة، لأنها تنعكس فى المخ على مثال انعكاس الصوت إذا قابل حائطاً أو جبلا (الصدى) .

ولنذكر الآن تجربة بسيطة ، لتمييز أعصاب الحس من أعصاب الحركة :

يقطع العصب البصرى (وهو عصب حسى ، لأنه ينقل الضوء إلى المخ فيبصر) خلف مقلة العين، ثم يؤثر فيه بمؤثر كهربائى أو ميكانيكى فى الطرف المتصل بالمخ فيحدث فيه ضوءاً، أما إذا أثر فى الطرف المتصل بالعين فإنه لا يحدث فيها أقل ضوء ، وبالعكس إذا قطع عصب الحركة بين العين والمخ ، وأثر فى النهاية المتصلة بالعين فإنها تتحرك ، أما إذا أثر فى النهاية المتصلة بالمخ فإنه لا يحدث شىء مطلقاً .

ويمكن إجراء التجربة بعينها على العصب السمعى أو الذوق أو أى عصب آخر .

ونتيجة هذه التجارب : أن العين لاتبصر بنفسها ولكنها آلة الإبصار للمخ ،وأن الأذن لاتسمع بنفسها ولكن المخ يسمع بواسطتها، وأنه هو الذى يحس ما يقع على الجسم من المهيجات المختلفة كالوخز والجرح والحرق وهكذا، وإن خيل إلينا أننا نشعر بألمها محل حدوثها ، أى فى نهايات الأعصاب التى تنقل تلك المؤثرات إلى المخ ، ومن هنا جاء اغترار المبتورة أطرافهم الذين يشعرون أحياناً بآلام شديدة فى أصابعهم وقد فصلت عنهم من زمن ليس بالقصير .

هذا وإن العجب ليأخذ منا مأخذه إذا فكرنا فى كيفية تحويل التأثيرات الخارجية إلى علم وإدراك بمجرد وصولها إلى تلك العجينة المخية،التى لايخرج تركيبها الكيميائى عن الماء والزلال والدهن والفوسفور وما شاكل ذلك .

حالة من أحوال النفس العجيبة،وموقف من مواقف الغيب التى استأثر الله تعالى بها ، فليس للإنسان إلا أن يقف أمامها وقفة إجلال وإكبار ، ويطأطئ الرأس خشية واحتراماً ، لأن العلم بحقيقة ذلك قد انفرد به الله جل وعلا ، والله لا يظهر على غيبه أحداً ؛ وسيظل أمر النفس سراً دفيناً وأمراً مكتوماً مهما جد الباحثون واجتهد المنقبون ،

لأنك إذا وضعت بين يدى أكبر عالم مدقق منقطع لهذا البحث جمجمتين لعالم وجاهل فإنه لايتأتى له بحال أن يفرق بينهما ويقرأ ما كمن فيهما.

من هذا ندرك قول الله عز وجل : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

على أن الإنسان لا يزال يجهل حقائق القوة الطبيعية التى يسخرها فى أغراضه ، ويتمتع بآثارها فى غدوه ورواحه من الضوء والحرارة والمغناطيس والكهرباء ، فكيف به إذا حاول كشف ما وراء الطبيعة وكله أسرار لا قبل للانسان بإدراك كنهها ؟



كيفية تكوين العقل

يقول بعض الفلاسفة إن الإنسان لا يفكر باختياره وإرادته، وإنه ليس فى وسعه إبراز فكرة واحدة من تلقاء نفسه ، أو من صميم فؤاده ولو بلغ الغاية من النبوغ والعبقرية ،لأن نفس الطفل عند ولادته قل أن يوجد فيها سوى بعض الغرائز والشهوات والدواعى المادية ، وأما الفكر فليس بفطرى فيها، بل ينبت تدريجاً ويكتسب بالتجربة من مخالطة الدنيا الخارجية وانفعال النفس بمؤثراتها الحسية والمعنوية التى لا تزال تتسرب إليها بلا انقطاع من طريق الحواس،فينطبع أثرها فيها كما ترتسم صور المرئيات بمرورها أمام الآلة المصورة ، وتتولد الأفكار فى النفس متتابعة تتابع الحوادث التى أوجدتها متنادية كل فكرة فيها تدعو أختها إليها بما بينهما من المناسبة والميل،فتتصل بها وتكون حلقة جديدة فى سلسلة أفكارنا ومعلوماتنا ،ثم تتصادم بالاحتكاك والمخالطة مع الأفكار القديمة المخزونة فى النفس فتحركها من سكونها وتثيرها من مكمنها وتبعثها من مرقدها ، وقد قال الشاعر العربى فى هذا المعنى :

إذا طال عمر المرء فى غير آفة ... أفادت له الأيام فى كرها عقلاً

ولست أجد شيئاً أشبه بالمعانى يدعو بعضها بعضاً إلى الذهن فتقيم فيه مؤتنسة متعارفة من شخص يلج مجتمعاً يعرف فيه ولو فرداً واحداً فإنه لا يلبث أن يجعله سلماً للتعارف بالباقين .

أما إذا لم يصادف من يعرفه فإنه يستمر قلقاً يمكث ما يمكث وكأنه في عزلة ثم لا يلبث أن يخرج شأن المعنى الغريب في سرعة الزوال من النفس .

وما مثل الفكر المرتب الذي تتغلغل فيه المعاني متآلفة متناسبة إلا كمثل أحجار (الدمينو) ترص بنظام ينتهي بإقفال الدائرة محكمة .

أما ذلكم الذي يشحن ذهنه بأنواع من المعلومات مفككة متنافرة فلا يمكن إلا أن يكون مضطرب الفكر مهوش الذهن ينتقل من موضوع إلى آخر دون أن يكون بينهما أقل مناسبة .

كان « طرفة بن العبد » عند بعض الملوك و « المسيب بن علس » ينشده شعراً في وصف جمل ، ثم حوله إلى وصف ناقة ، فقال طرفة : « استنوق الجمل » فذهب مثلا يضرب للرجل يكون في حديث أو صفة شيء ثم يخلطه بغيره وينتقل إليه .

لذلك يجب على المربين أن يعنوا باتخاذ ما عند الأطفال من المعلومات المنزلية أساساً يبنون عليه المعلومات التي يريدون تدريسها لهم إذا كانوا حديثي عهد بالتعليم ، ويخلق المناسبة والارتباط بين موضوع الدرس القديم والدرس الجديد ، حتى تكون المعلومات في أذهانهم كحلقات السلسلة الواحدة ليربط بعضها بعضاً .

وعلى ذلك لا تكون أفكارنا ملكا خالصاً لنا نحكم فيها ونتصرف في أمرها ، بل هي بنات الظروف والحوادث ونتاج الطوارىء الخارجية

تتجه معها وتسير فى مجراها دون أن يكون للإنسان منها سوى العلم بها والإذعان لقبولها كما هى من غير تغيير ولا تبديل كما قبل أبويه ودينه من قبل .

وليس منا من يجهل ما لتحول الأحوال،وتقلب صروف الدهر وحوادثه من التحكم فى أفكارنا والتسلط على مشاعرنا وأفعالنا ، فكم من أمر يبرمه الإنسان بعد الروية وتقليب النظر وإعمال الفكر، ثم لا يلبث أن يعرض له خاطر،أو يأتيه خطاب من صديق مثلا ، فيندم من فوره ويود لو كان قد سبق إلى نفسه ذلك الخاطر،أوعلم من قبل بما فى ذلك الخطاب حتى كان يتوقف عن إمضائه ولا يتعجل فى تنفيذه ، وكانت الأمور تأخذ طريقاً آخر غير الذى صارت فيه .

فقبل أن يسنح ذلك الخاطر،أويصل ذلك الخطاب،سارت حركة تنادى المعانى فى اتجاه خاص فأوصلت إلى نتيجة خاصة ، وبعد ذلك عرضت حالة جديدة غيرت وجه تداعى المعانى تغييراً كان من شأنه أن يؤدى حتما إلى نتيجة أخرى ،فالإنسان فى تصرفاته لا محالة خاضع للبيئة الحالية المحيطة به من كل مكان .

ذكرت بعض الجرائد الفرنسية منذ مدة نبأ انتحار موظف كبير وجهت إليه بعض التهم ، وبينما هو يحتضر انتهى إليه أن المخاوف التى أسلمته إلى اليأس قد بددت وزالت ،وتبين أنه برىء فتمتم قائلا:«سبق السيف العذل» ثم قضى نحبه بعد دقائق .

لكن ليس معنى ذلك أن يستسلم الانسان للحوادث ويلقى إليها زمام نفسه وينقاد لها انقياد العاجز الذى لا حول له ولا قوة، فإن العقل ينمو بكثرة المران والاستعمال والمزاولة ، كالذى يحصل لذوى الأسنان والشيوخ من الحنكة وصواب الرأى وكثرة التجربة ومعالجة الأمور بما أفادتهم إياه السنون وعلمتهم الحوادث، ثم هو يزداد نماء وقوة بالتعليم وحسن التربية وصلاح البيئة، فاذا قيض للانسان معاشرة الأخيار من الناس وتلقى العلوم من أفواه الأفاضل من الأساتذة والمربين، فإنه بلاشك لا يلبث أن تتغلغل فى ذهنه طائفة كبيرة من الأفكار الناضجة التى يصطفيها لنفسه مما جرب وتعلم فتصبح رأس ماله الذى يعتمد عليه فى مقاومة الحوادث : وسلاحه الذى يذود به عن نفسه فى معترك الأفكار، وتسمى هذه الأفكار المديرة . Idées dirctrices .

فاذا هجم على الانسان بعد السن اللائقة فكر جديد، والفكر يحرك فى الصدر شهوة والشهوة تقضى بالإنفاذ العاجل ، فماذا هو فاعل ياترى؟ إن الذى يقع هو أحد أمرين اثنين :

إما أن تجد الشهوة ساحة الضمير مجدبة فارغة من الموانع التى تكون عقبة فى طريقها ، فتنتهى طبعاً إلى الغرض الذى تطلبه من غير دفاع ولا منازعة إذ لم يعترضها من الضمير مقاوم فتغالبه . وإما أن يتصدى لها فكر من تلك الأفكار المديرة الراسخة فى النفس بالتجربة وطول الاختبار والتربية ، فتحاول وقفها عند حدها ومنعها من البلوغ إلى غرضها، وهنالك يتفاقم الخلاف بين الخصمين وينشب بينهما عراك هائل

على مرأى منا وتحت نظرنا ، يكون النصر فيه لأشدهما رسوخاً فى النفس وأقواهما امتلاكاً لعنانها وقيادة لها .

وإليكم مثلاً خيالياً يبين ذلك ويجليه للفهم، وينطبق على كثير من أمور هذه الحياة :

مر ثلاثة نفر فى يوم شديد الحر، وقد أجهدهم العطش ونال منهم الظمأ ، فأتوا فى طريقهم على كرم قد ينع ثمره ودنا جناه، فراقهم حسن منظره فطوعت لهم أنفسهم أكل شئ منـه .

وكان الأول منهم حسن التربية قد رسخت فى نفسه فكرة احترام ملك الغير فصحت عزيمته من فوره على ألا ينال من هـذه الفاكهة إلا إذا وجد البستانى ونقده ثمنها، أو يمضى فى سبيله متحملا ألم العطش مفضلاً داعى الحـكمة على الشهوة .

وكان الثـانى أقل تهذيباً منه فاندفع بتربيته إلى قطف عنقود من العنب ولـكنه قبل أن يطعم منه حبة نظر فرأى صاحبه فآثر الرجوع إلى رأى أخيه وعدل عن فـكره ونسج على منواله ، مرجحاً كفة العقـل بعد أن كانت مرجوحة، ومضى فى سبيله متحملا ألم العطش ملبياً داعى الحـكمة ونداء العقل .

وأما الثالث فـكان غلاماً حدثاً ليس عنده ماعند صاحبيه من وازع الحـكمة فهز كتفيه استهزاءً أمانتهما ونزاهة ضميرهما ، وشرع يأكل عنقوده مطمئناً هادئاً غير مكترث بزاجر من عقل ولا وازع من حكمة ، إذ كان ميدان الضمير عنده خالياً مما يصده عن هذه الشهوة

العمياء الضارية ، ولئن استمر مثل هذا الجاهل مسترسلا فى عمايته ولم يجد من يرشده إلى الخير ويكفه عن مراجعة الشر ليكونن فى كبره شيطاناً مريداً ولصاً كبيراً .

ترون من هذا أن شهوات النفس لاتقساوم إلا بالأفكار السليمة والعقائد المتمكنة التى رسخت فى النفس بالتهذيب والتربية والتعليم أكثر من رسوخ الشهوات فيها .

فإن كان بناء العقيدة واهياً وكانت تلك الأفكار السليمة غير متمكنة من النفس تمام التمكن قوى سلطان الشهوات عليها فانحازت النفس إلى جانبها .

صاحب الشهوة عبد فإذا ملك الشهوة أضحى ملكا

* * *

عجيب ذلك المزيج المسمى إنساناً، فإن إنسانيته قائمة بالروح والبدن معاً وهما أكثر متعارفين تناكراً وأكبر متقابلين تدابراً،فالروح وهى لطيفة شفافة إلـهية دائمة التحنان إلى الأفق الذى انفصلت منه،والبدن وهو معتم جبل من التراب لايفتأ يحن إلى طينته وينزع !والحياة قائمة به إلى جبلته،تطلب الروح أن تسمو لأنها سماوية وحب الوطن من الإيمان، ويعالج الجسم أن يهبط بها لأنه أرضى ولا يزال ذلك دأبه حتى تنحل الشركة المعقودة بينهما .

هذا النضال القائم بينهما،إما أن ينتهى بفوز الروح فتتحكم فى البدن، « وأحبب بها فى فوزها تتحكم »،وحينئذ يكون الانسان صورة إنسانية

للمَـلَـك، إما أن ينتهي بفوز البدن وهو فوز لا هزيمة شر منه، وحينئذ يكون الإنسان شيطاناً مريداً .

يقـول أحد علمائنا الأقدمين : « ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة ، وركب البهائم من شهوة بلا عقل ، وركب ابن آدم من كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ؛ ومن غلب شهوته على عقله فهو شر من البهائم » .

فاذا كان من يقهرُ القويَّ بطلا ، فأين بطولة منه من تغلب بجزئه الملكى على جزئه الشيطانى ، لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم عقب الفراغ من غزوة : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » ، أى جهاد النفس

ولا يفوتنا بعد هذا أن نقول إن تلك الأفكار التى جعلناها رأس مالنا الأدبى الخلقى ، والتى هى دليلنا إلى الخير ومرشدنا إلى تمحيص ماتفاجئنا به الأيام والحوادث من الأفكار الجديدة ليست منا ، بل منشؤها الطوارئ الخارجية كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، فهى خارجة عن إرادتنا خروج الحوادث النازلة عن قبضة يدنا ، هذا ومن جهة أخرى فإن إيثارنا تلك الأفكار المديرة وكوننا اصطفيناها لأنفسنا من كثير مما عرض علينا بميولنا الخاصة وغرائزنا الفطرية واستعدادنا الوراثى ؛ هذا أيضاً لم يكن لإرادتنا دخل فيه ولم يوجد فينا باختيارنا ؛ فالإنسان فى الحقيقة واقع بين نيرين : نير داخلى من الاستعدادات الفطرية والغرائز

والشهوات ،ونير خارجى من الحوادث المفاجئة والأحوال الطارئة ،وهو فيما بينهما كالحديدة بين المطرقة والسندان ،أفيقال بعد ذلك إن الإنسان حر فى أفكاره وآرائه ؟

إن مثل الإنسان فى ذلك مثل أمير أو ولى عهد يراد تزويجه فيؤتى إليه بعدة من الفتيات محدودة، ثم يقال له أنت حر فاختر من أحببت منهن، وفاتهم أنهم لم يعرضوا عليه إلا بعض الفتيات وأن الاختيار محصور فى دائرة معينة لا يتعداها ، يجئ بعد ذلك دور الاختيار فيختار الأمير إما بما توحيه إليه تربيته المكتسبة أو بما يقتضيه ذوقه الوراثى أو بتأثره بميل أبيه أو أمه، ثم يقولون بعد ذلك إن الأمير كان حراً فى اختياره زوجته، على أنه ما كان حراً إلا فى القول فحسب .

يقول الفيلسوف سبينوزا(Spinoza):« إن الناس يعتبرون أنفسهم أحراراً لأنهم يرون أعمالهم ويصدرونها بأيديهم، ولكنهم لا يفكرون فى الأسباب التى دعت إليها واقتضت وقوعها، لأن تربية الإنسان وبيئته وحاله النفسية أو المالية قد تضطره فى كثير من الأحيان إلى عمل يظن الناس أنه حر فى ركوب متنه،مع أنه مجبر على عمله بالعوامل المتقدمة»

ويحسن بنا فى هذا المقام أن نضيف إلى رأى هذا الفريق من الفلاسفة القائلين بتكون الفكر من المحسوسات الخارجية بواسطة الحواس (كما تبين من الشرح المتقدم) رأيا آخر؛فهنالك طائفة كبيرة من العلماء تقول إنها مع اعترافها بما للحواس من النصيب الأوفر فى تنمية الذكاء

وترقية الفكر ؛ تعتقد أيضاً أن العقل عند ولادة الطفل ليس صحيفة بيضاء خالية من كل نقش ، ولا أرضاً قاحلة مجردة من كل غرس ؛ بل هو آلة مجهزة بقوى ذاتية وميول وغرائز عقلية ، تدخل إليها المدركات المحسوسة فتدير حركتها وتدبر أمرها وإن كانت لا تخلقها .

وتلك الغرائز والميول هي للفكر بمنزلة الهيكل العظمى للجسم تربط أجزاءه وتجمع شتاته وتضم أوصاله ، وإنى إلى هذا الرأى أميل إذ يؤيده العقل والنظر ؛ فإن المدركات المحسة إذا دخلت إلى النفس وتراكم بعضها فوق بعض دون أن تجد من يهذبها ويرتب أشكالها ويضع كل شيء منها مع مناسبه ، كانت أشبه بأدوات البناء الملقاة بالفضاء لا شكل لها ولا نظام يجمعها .

أما إذا وضع المهندس يده فيها فإنه يخرج منها الصروح والحصون والقصور والدور ؛ فالفكر كذلك هو المهندس القادر الذى يستقبل تلك المعلومات الداخلة فيرتبها ويهذبها ويخرج منها الأشكال المتنوعة والنماذج المخترعة البديعة .

ومن تلك الغرائز المخلوقة فى عقل الطفل :

١ — غريزة المحاكاة والتقليد التى هى أهم مايدفع الطفل فى حياته الأولى إلى كثير من أعماله .

٢ — غريزة المباراة والمنافسة وحب الاستطلاع . وهى لا تجعل الطفل يكتفى بمجرد النظر إلى الأشياء ؛ بل تدفعه إلى حب الاستكشاف والإكثار من السؤال عن كل شيء يعنيه أو لا يعنيه ؛ بل هى التى تدفعنا

نحن إلى الاستزادة من العلم والرغبة فيه على الدوام ، وفى الحديث الشريف «لايزال الرجل عالماً ماطلب العلم فإذا ظن أنه علم فقد جهل»؛ فعلى كل أب وأم ومدرس أن يتعهد هذه الغريزة الكريمة ويحولها إلى وجهتها وينميها ويقويها فى الطفل ما وجد إلى ذلك سبيلا ، فيجيب عن أسئلته ويثيره إلى السؤال عند الضرورة.

ومن رأى «روسو» الإجابة عن أسئلة الطفل إذا كان يقصد بها المنفعة والاستفادة حقيقة .

أما إذا سأل الطفل لمجرد السؤال أو التظاهر بالذكاء والادعاء، فالأولى إغفالها وعدم الإجابة عنها، ولكن لايحسن إغفال الأسئلة النافعة والإجابة عنها إجابة تناسب حالة الطفل .

، أما إذا ترك الطفل ولم يجب عن أسئلته فقد تنطفىء بذلك شعلة تلك الغريزة الجميلة، ويفتر ذلك الذكاء والنشاط الذى يريد الارتقاء والانبساط إلى أن يخمد ويزول بذلك الإغفال.

٣- غريزة الحب ومن آثارها نفور الطفل من هذا وشدة تشبثه بذاك ، وإيلافه درس الأستاذ الذى يحبه والمبالغة فى إرضائه والحظوة عنده،وإن هذا الميل الكريم فى الطفل، هو بلا شك أساس انتفاعه بعلم أستاذه وزيادة رغبته فيه، ولذلك قال الفيلسوف الفرنسى (ديدرو) عندما عوتب فى شأن تلميذ له لم يستفد من دروسه : ماذا تريدون أن أعلمه وهو لا يحبنى ؟

لذا قال«مشليه»الفرنسى فى تعريف التعليم :« التعليم مودة ومحبـة»

وهكذا من تلك الميول الفطرية المشروحة شرحاً جميلا فى كتاب «الغرائز» تأليف صديقى الأستاذ محمد حسنين الغمراوى بك .

ترون من هذا — دون شك — ومما سبقه أن كلا الفريقين لم ينكر تأثير البيئة فى الإنسان ولا أثر التربية فيه ، وصقال الغرائز والميول التى فطر عليها بهذه المؤثرات الخارجية ، فاذا كانت الدنيا الخارجية هكذا هى التى تموننا بالأفكار وتمدنا بالمعلومات ، وجب علينا أن نكثر جهدنا من عرض صور الأشياء المختلفـة على الطفل ، وتعريفه بأوصافها وخصائصها ، فإن كثيراً ما يكون ضيق الفكر عند بعض الأشخاص ناشئاً عن قلة مشاهداته وما عرض عليه من المرئيات .

وهذا هو السبب فى الفرق الذى يشاهد فى ابن المدينة إذا قيس بأمثاله من أبنـاء القرى ، فهو أذكى منهم فؤاداً وأنبه نفساً وأكثر توقداً ، لكثرة مامر أمام عينيـه من الأشياء . وما عرض لحواسه من المناظر التى أيقظت عقله وقوت فيه المراقبة والحكم على الأشياء من نعومة أظفاره .

ولسنا نغالى فى القول إذا شهدنا أن الانجليز أوفر الناس حظاً من الانتفاع بهذه الدنيا الخارجية والأخـذ عنها. فإن الناشىء منهم قد يكتفى من دروس المدرسة بما فيه بلاغ له، ثم يصرف عنان عنايته إلى تلك المدرسة العالمية العامة فيمون نفسه بمعلوماتها وينمى معارفه بما يتلقاه عنها ،ويعد نفسه لأن يكون له من الكون أفضـل أستاذ

ومن الطبيعة أنفع هاد ، فيجوب آفاق الآفاق باحثاً قارئاً من صحيفة الوجود مافيه عبرة ، ومن أساطير الكائنات مافيه هدى وتبصرة . أخذوا بذلك أنفسهم وأولع به متعاموهم لمعرفتهم أن هذا هو غذاء العقول ولقاح الأفكار .

ولما كان الإنسان أسير البيئة كما قدمنا ، وابن التربية التي صقل بها ، وجب على الانسان أن يخفف من وطأة انتقاده لغيره، فقد « تلوم غير ملوم »، « ولعل له عذراً وأنت تلوم »، فعلى العاقل أن يتحرى الأسباب ويمحص الحوادث ، ويقف على أسرار الأمور قبل انتقادها . ورحم الله من قال :

الذنب للأيام لا لى فاعتب على صرف الليالى

أما إذا انتقد الناس بعضهم بعضاً من غير روية وبلا تفكير — كما هو حاصل بين كثير من الأمم المتأخرة — فلا ريب أنهم يهدمون أنفسهم بأنفسهم حتى يتفانوا وتذهب ريحهم .

إن النقد الصحيح المبنى على أسباب صحيحة والذى يراد به تمحيص الحقائق والوصول إليها، وبخاصة فى المسائل العلمية والاجتماعية ، من أهم عوامل التقدم والارتقاء. ولكن قليلا من الناس من يفرق بين نقد الأفكار فى ذاتها والتشهير بالأشخاص والنيل منهم .

هذه القوانين الوضعية التى تنص على عقاب المجرمين لا يشم منها مطلقاً رائحة الانتقام من أشخاصهم أو التشنيع عليهم ، وذلك لأنهم ارتكبوا ما ارتكبوا مدفوعين بتربيتهم الناقصة وغرائزهم الشريرة .

وإنما الغرض من العقاب ، إصلاح عوجهم وتقويم أودهم ، وتحذيرهم من العودة إلى خطئهم ؛ والزجر لمن عساه أن تحدثه نفسه من الناس بالإقدام على مثل أعمالهم ، أو الوقوع فيما استحقوا العقوبة من أجله .

التفكير الخفى والرأى الدَّبَرِىُّ

وضح مما قدمناه أننا نفكر بروية فى جميع شئوننا لنبلغ أغراضنا المختلفة وندرك مقاصدنا المتنوعة . وأننا نستعرض الطرق الموصلة إليها طريقاً طريقاً لنختار منها الطريق المعبدة والمنهج القويم ثم نزاول العمل بإرادتنا واختيارنا ، غير أن للفكر حالة غريبة يحاول علم النفس الحديث أن يكشف عنها القناع ويميط عن وجهها اللثام . وهذه الحالة هى عمل الفكر بعيداً عن مراقبتنا وشعورنا عملا خفياً لا تقل نتائجه فى القيمة عن عمله وهو تحت سلطان إرادتنا وعلى اتصال بشعورنا . وهذه الحالة سماها كاربنتر الانجليزى بالتفكير الخفى أو غير المحسوس: L'inconscient وهى حالة النوم أو السبات الذى يعترى المخ فى كثير من الأحيان فيصير كالذاهل الغافل الذى لا يهتم للحوادث ولا يأبه للمؤثرات الحسية الخارجية التى تتسرب إلى نفسه .

والعجب العاجب أن الفكر حتى فى غفوته وذهوله لا يترك العمل على الإطلاق ، بل يسبح سبحات سرية ويجول جولات خفية بعيداً عن شعورنا ومداركنا ، متنقلا فى ظلمات النفس وغياهب المعقولات ، ليجمع الروابط المتصلة والمقدمات المنتجة والنتائج الصحيحة ، حتى يصل إلى حقائق معقولة ومعلومات جديدة لا ريب فيها ولا لبس فى صدقها ، ثم يبدهنا بها على غير انتظار ، ويكشفها لنا من غير ترقب ويتحفنا بها وليس بيننا وبينها موعد . فكأن للمخ أوقاتاً ينبذ فيها سيطرة الشعور ورِقَّ الارادة ، ليتحرك

فى عالمه حراً مستقلا لمحص الأفكار وينقح الأسباب بريث ومهل ، ويأتينا بنتائج لاتختلف فى شىء عن النتائج التى يصل إليها على علم منا واتصال بشعورنا ، ولا يمكن أحداً أن يشك فى وجود هذه الحالة النفسية الخفية بدليل أننا نرى نتائجها ظاهرة محسوسة فيما يأتى :

١ — يحدث أن يعالج الانسان من أول الليل مسألة رياضية يحلها مثلا ، فيعجز عنها وينال منه التعب فينصرف وينام ، ثم يستيقظ حين يصبح فيرى حلها مرسوماً واضحاً أمام عينيه .

٢ — كثيراً ماتعرض للانسان مشا كل إدارية ومعضلات معاشية فيحار فى تصريفها ويعيى بأمرها ، وقد يستحوذ عليه اليأس ويدركه القنوط ثم يظهر له عفواً ـ بعد وقت ما ـ طريق حلها سهلا ميسراً .

٣ ـ إننا كثيراً مانبحث عن كلمة أثناء المحادثة فلانجدها ، وبعدأن نتركها وشأنها ونشتغل بغيرها لا تلبث أن تمر بالمخيلة فى وقت لم نرتقب مرورها فيه . وذلك ما يسميه الفرنسيون بعقل آخر درجات السلم . (Esprit du bas de ' escalier) وهو عندنا الرأى الدبرى ، وهو مايعرض من الصواب بعد فوت الوقت وضياع الفرصة .وإذا كان الأمر كذلك فمن الكيس وإصالة الرأى أن ننتفع بنتائج هذا النوع الخفى من التفكير بالتريث والنظام والأناة والصبر حتى يتكشف الغطاء ويظهر الصواب.

فإذا عجزنا فى موضوع ما ، بعد تفكير طويل ، عن الوصول إلى نتيجة وجب ألا نقنع بأن الوصول إليها صار قسيم المستحيلات ، فقد يتناول الفكر الخفى هذا الموضوع فيرتب ويمحص ويربط ويستنتج حتى يصل إلى

النتيجة المرغوبة، ثم يفاجئنا بها فنبلغ مارجوناه وندرك ماتمنيناه، ولكننا إذا جزمنا بأن ماوصلنا إليه هو كل مايمكن أن ينتجه الفكر وأمضينا العمل على هذه العقيدة ثم ظهر لنا وجه الصواب من بعد، وقعنا فى ندم الرأى الدبرى، وقانا الله شره وأعاذنا منه .

قال الجاحظ فى البيان والتبيين: « وكانوا يأمرون بالتبييت والتثبت وبالتحرز من زلل الكلام وزلل الرأى ، ومن الرأى الدبرى؛ والرأى الدبرى هو الذى يعرض من الصواب بعد مضي الرأى وفوت استدراكه »

الرأى الدبرى يملأ القلوب حسرة والصدور ندماً، ولا يكون إلا من وراء رأى لم يبيت ولم يختمر، نعوذ بالله منه ومن عواقبه الوخيمة .

يقول أحد حكماء العرب : « دع الرأى يغب حتى يختمر وإياكم والرأى الفطير »، ولعلكم تذكرون ندامة الكسعى على كسر قوسه فى قصته المشهورة، ذلك لأنه لم يبيت الرأى فعض أصبعه ندماً حين ظهر له الصواب حتى قطعها وصارت ندامته مضرباً للأمثال حتى قال الفرزدق :

ندمت ندامة الكسعى لما　　　غدت منى مطلقة نوار

لما انصرف مروان بن الحكم من مصر إلى الشام استعمل عليها ابنه عبد العزيز وقال له حين ودعه: «

إذا كنت فى حاجة مرسلا　　　فارسل حكيما ولا توصه

«أى بنى انظر إلى أعمالك، فإن كان لهم حق غدوة فلا تؤخرهم إلى عشية، وإن كان لهم عشية فلا تؤخرهم إلى غدوة، وأعطهم حقوقهم عند محلها تستوجب بذلك الطاعة منهم »، إلى أن قال « وإن كان بك غضب على أحد من

رعيتك فلا تؤاخذه به عند سورة الغضب، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك، ثم يكون منك مايكون وأنت ساكن الغضب، مطفأ الجمرة، فإن أول من جعل السجن كان حكيما ذا أناة» ، ولذا جرت العادة - عند الأمم المشهورة بالتروى وحصافة الرأى - بقراءة المشروعات فى المجالس النيابية المرة تلو المرة، وإحالتها من لجنة إلى لجنة، وتقليب الأمور بين أيدى الكثيرين حتى يتم اللاحق ماترك السابق، ويصل المتأخر إلى مالم يصل المتقدم، فتخرج الأمور ممحصة والمسائل مستوفاة من كل وجه.

الرأى كالليل مسود جوانبه والليل لاينجلى إلا بإصباح
فاضمم مصابيح آراء الرجال إلى مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح

ولقد شرع المربون يستفيدون من العقل الاختمارى فى جميع فروع التعليم خصوصاً فيما يلى:

١ — موضوعات الإنشاء: وهذه يجب على المعلم أن يعطيها الطلبة قبل الكتابة عليها بأيام، ويكلفهم التفكير فيها من آن لآخر، ويسألهم عما وصلوا إليه، ويناقشهم فيه وينبه أذهانهم إلى عناصر جديدة فى الموضوع، حتى إذا نضجت أفكارهم واختمرت آراؤهم أمرهم بالكتابة عليها.

٢— تحفيظ المحفوظات: وهذه لاينبغى تحفيظها فى وقت واحد، بل فى جملة أوقات، فبعد شرح القطعة شرحاً وافياً، وعرض وجوه محاسنها، ولفت الأنظار إلى حسن أسلوبها وجميل معانيها، يقرؤها التلاميذ مرة ثم يتركونها ويعاودون قراءتها بين آن وآخر، حتى يكون للعقل مجال للاختمار، وللرأى

طريق إلى الإنضاج فيخرج المحفوظ ثابتاً وطيداً ؛ آخذاً من الفكر مجرى واضحاً نيراً ، لا يعترض ما يجعله قلقاً سريع الزوال .

٣- استعادة ما سبق إعطاؤه للتلاميذ من الدروس، ومذاكرتهم إياه ، فليس أدعى إلى استنارة الفكر والاهتداء إلى مواطن الحقيقة ؛ من استعادة التفكير فى الشىء وتقليبه على وجوهه من آن لآخر .

سئل العالم الانجليزى نيوتن المكتشف لقوانين الجاذبية العامة: كيف وصلت إلى استكشافها ؟ فقال: « بالتفكير فيها دائماً » . والمثل الفرنسى يقول «النبوغ صبر طويل» . (Le génie est une longuepatience)

ولله در محمد بن بشير إذ يقول:

إن الأمور إذا سدت مطالبها فالصبر يفتق منها كل ما ارتتجا

لا تيأسن وإن طالت مطالبة إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

علاقة العلم بالاخـــــلاق

علاقة العلم بالاخـــــــلاق *

مقدمة

يظن كثير من الناس أن الغنى والسعادة أمران متلازمان لا يفترقان، وأن الهناءة تنحصر فى إشباع الرغبات المادية، وإرضاء الشهوات الحسية من سكنى قصور شاهقة، واقتناء أثاث فاخر، والتمتع بالصحة والجمال ونحو ذلك، وهم فى ذلك واهمون، فقد يكون فى القصور الشاهقة من ضروب الشقاء وأصناف البلايا، ما لا يكون مثله فى أكواخ الفقراء والمعوزين.

قال أحد الرهبان يوماً لجان جاك روسو وهو فتى : لو تكاشف الناس فاطلع كل إنسان على قلب غيره وقرأ ضميره لعلم أن الذين يرغبون فى النزول أكثر من الذين يرغبون فى الصعود .

وقال الزعيم الاشتراكى الإيطالى انريكو فرى أستاذ العلوم الجنائية بجامعة تورينو، فى ختام خطبة له عن وجوب تحسين حال العمال وضرورة زيادة أجورهم .

«إنى إذا كنت قد تكلمت عن وجوب تحسين حال طبقات العمال وطلبت رفع مستوى أجورهم، فلست أعنى بذلك أننى أطلب لهم السعادة الفردية والهناءة الحقيقية، لأن هذه مسأله استعداد ومزاج، فكم نرى من أناس فى أطمار بالية لا يدرون أين ينعشون هذا المساء

* ألقيت هذه المحاضرة على ملأ من كبار المربين والمعلمين بدار نقابتهم فى ٩ مارس سنة ١٩٢٢

وهم مع ذلك أسعد فى أنفسهم من الملوك، إذا قدر للملوك أن يكونوا سعداء، وكم نرى على النقيض من ذلك آخرين قد تمت لهم جميع وسائل السعادة الموهومة غرقين أبداً فى لجج من الأكدار والهموم »

ليس منا من ينكر أن المال سعادة . وأن البنين سعادة ، وأن الصحة سعادة ، وأن الجمال سعادة وهكذا ، وأن لكل منا أن يسعى لتلك السعادات سعيها لينال قسطه منها « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق »

غير أنه يجب أن يعلم أن تلك السعادات كلها ، ليست معززة بضمان الدوام ، فالمال يفنى ، والولد يموت، والصحة تتقلص ، والجمال يذبل. والصيت العلمى يضؤل ويندثر على تطاول الأيام ، إذا قدر له أن يتغلب على كيد المناظرين وحسد المزاحمين .

أفإذا زالت عن الإنسان كل هذه السعادات الفانية لا يجد باباً آخر لسعادة أرقى وأثبت من أن تعبث بها يد الزمان وتنتزعها طوارىء الحدثان ؟ بلى إن فى السويداء أفراداً قلائل ، مهما أمطرتهم الأيام وابل المصائب ، وأثقلتهم بالكوارث والنوائب ، فإنهم لايزالون يحيون حياة طيبة . صابرين متماسكين أمام جيش الرزايا والنكبات ، راضين كل ما تأتى به الأيام ، غير ساخطين على القدر . ولا زارين على القضاء ، ولايزالون يشعرون بلذة حقيقية ، وسعادة داخلية ، لاتنزعها الحوادث ولاتنال منها الأيام : تلك السعادة هى تزكية النفس بالعلم وتكميلها بالفضائل.

تزكية النفس بالعلم

وتكميلها بالفضائل

إن النفس العاقلة المميزة المهذبة لا تزال ـ بعد حرمانها كل سعادة مادية ـ تدأب على العمل ، وتجد مجاله أمامها ينفسح ويرحب، فتجعل قوتها وقفاً على الدفاع عن الحق وإزهاق الباطل، وتجد سعادتها ولذتها فى الدعوة إلى الخير ، وجلاء أسرار الجمال ، وكشف دقائق النظام والإحكام لأعين الناظرين بلا تمييز بين لون وجنس ودين .

ولكن لا تُبلغ تلك المرتبة السامية إلا بأخذ الإنسان نفسه بالرياضة العقلية أخذاً، والمثابرة على التجربة، وممارسة أحوال الدنيا دهراً طويلا .

ومن العبث والخطل وفساد الرأى، أن يحاول الإنسان تلمس تلك السعادة الحقيقية من طريق غير طريق العقل وترقية الفكر إلى أبعد حد مستطاع .

وإن كل خطوة يخطوها المرء فى هذه السبيل ، تدنيه بقدرها من تلك السعادة الدائمة واللذة الباقية ، ولما كنا كلنا طلاب سعادة ، وجب علينا كلنا أن نتعلم .

سئل أبو عمرو بن العلاء : هل يحسن بالشيخ أن يتعلم ؟ فقال: إذا كان يحسن به أن يعيش فإنه يحسن به أن يتعلم .

وروى الضحاك فى تفسير قوله تعالى : « لينذر من كان حياً » أى

من كان عاقلا ، فالعلم والحياة أمران متلازمان وإلفان لا يفترقان ، والنسبة بين العلم والجهل كالنسبة بين الحياة والموت ، فلنتعلم ولنطلب العلم أينما وجد إذا أردنا أن نتبوأ مقعد صدق بين الأحياء .

وقد رأيت قبل الخوض فى أمور التعليم ، أن أقول كلمة فى الرابطة التى تربط التربية العقلية بالتربية الخلقية التى تكلمت عنها فى محاضرة سابقة ، لأن علاقة العلم بالأخلاق كانت من قديم الزمان — ولا تزال إلى يومنا هذا — موضع الجدل والأخذ والرد بين كبار العلماء والمفكرين فى الأمم المتحضرة ، حتى قال بعضهم : إنها عقدة العقد ومعضلة المعضلات .

لهذا رأيت ألا أغفل أمر تلك المناقشات فى موضوع حيوى ذى بال كموضوع التعليم .

والنهاية — على ما أعتقد — ستكون نصراً للعلم وأخذاً بيده وإظهاراً لأثره وفضله فى إصلاح الأخلاق ، وإن أبطأ به الزمان ، لاسيما ونحن نرى للعلم فى كل يوم معجزة تدنينا من حل تلك المعضلة ، فلقد قلب أخيراً تلك العقيدة القديمة التى قضت بتقسيم المخ إلى حجر وخزائن منفصل بعضها عن بعض ، خصت كل خزانة منها بقوة من قوى النفس ، فواحدة كانت للفكر ، وأخرى للشعور أو الوجدان ، وثالثة للإرادة ، كأنها ثلاثة أشخاص متباينة لا علاقة لبعضها ببعض ، والحقيقة أنها حالات للنفس الواحدة ، فهى تكون بادئاً منفكرة ، ثم يخالط التفكير شعور بالفرح أو الامتعاض فتكون شاعرة ، ثم تتهيأ للفعل فتقدم عليه أو تحجم عنه فتكون مريدة عاملة .

ولقد مكث المربون السنين الطوال يسلكون طرقاً عقيمة معيبة فى التعليم، إذ كانوا يكلفون التلاميذ حفظ القطع النظمية أو النثرية المطولة عن ظهر قلب، بدون اختيار للمحفوظ أو إفهامهم معناه وإيقافهم على مافيه من جمال البلاغة وحسن الأسلوب، لاعتقادهم أن الذاكرة منطقة من المخ قائمة بذاتها لا دخل لها فى التعقل والتفكير، بل وظيفتها الحفظ وكفى.

لعلكم تذكرون حكاية ذلك الفيلسوف الذى أراد أن يعالج ضعف ذاكرته فعمد إلى دليل سكة الحديد وحفظه بتمامه عن ظهر قلب فلم يجده ذلك نفعاً، اللهم إلا حشو ذهنه بأسماء محطات ومواعيد قيام قطارات لا طائل تحتها.

ليس من يشك الآن فى فساد هذا الرأى بعد أن برهن علم وظائف الأعضاء على أن فى المخ ذاكرات مختلفة بقدر مافيه من خلايا، فإن كل خلية من خلاياه، كما أنها تفكر وتشعر وتريد، فإنها تحفظ فى ثناياها صوراً كامنة مما انطبع فيها فى كل حالة من هذه الأحوال الثلاث، وتذكرها زمناً يختلف مداه باختلاف قوة انفعالها وتأثرها بالمدركات، فإن رؤيتنا لفاجعة، كسقوط شخص من فوق شجرة مثلا، أو وقوعه تحت عجلات الترام، يترك أثراً أوضح فى خلايا المخ مما لو حُدِّثنا بهاتين الحادثتين.

لذلك نبذ المربون فى كل مكان فكرة تحفيظ التلاميذ تحفيظاً ببغاوياً لا طائل تحته، اللهم إلا شحن الذهن بما لا يفيد، وإجهاد النفس فيما لا يجدى، وإضعاف ملكة الذكاء إن لم نقل خنقها والقضاء عليها.

لم يقل أحد من المربين بالاستغناء عن التحفيظ كلية ، لأن الذاكرة قوة من أهم قوى النفس، إذ هى مقياس صحيح لمعلوماتنا وأداة عجيبة لا غنى للفكر عنها لقياس الأشباه بنظائرها والحكم على الأشياء حكماً صحيحاً .

ومما يؤثر عن (نابليون) فى هذا الصدد قوله : « رءوس خلو من الذاكرات كقلاع خالية من الحاميات »

ولكن يجب على كل حال أن يصاحب الحفظ الفهم، وقد شاهدنا بالتجربة أننا لا نحفظ شيئاً حفظاً يؤبه له ويعتد به ، إلا إذا فهمنا معناه وتغذت أرواحنا بجميل مبناه وجليل مغزاه.

فالفكر والشعور والإرادة والحفظ من الخواص العامة للخلية المخية، كما أن الحيز والمرونة والمسامية من الخواص العامة للمادة .

نعم كل خلية مخية تفهم وتدرك، وإن اختلف نوع المدرَك ، فمنها مايدرك الألوان، ومنها ما يدرك الأشكال ، ومنها مايدرك الأرقام ، ومنها ما يدرك الأفكار العامة وهكذا، ولكنها مع هذا التخصيص تعمل كلها متفاهمة متضامنة لصالح المجموع وهو النفس المدبرة.

فالنفس المفكرة حينئذ هى النفس الشاعرة المريدة الحافظة الذاكرة المتخيلة، كما أن النفس المغرية المحرضة هي هي النفس اللوامة المعنفة.

فلا نخدع بكثرة الأسماء لأنها فى الواقع لا تدل إلا على مسمى واحد ، هو تلك النفس التى تتشكل وفق الأحوال وتلبس لكل حالة لبوسها .

فمحال فزيولوجياً ألا يكون هناك اتصال وارتباط بين تلك المظاهر المختلفة فى الحالة،المتحدة فى المصدر ، أى بين العقل من جهة وبين الوجدان والإرادة من جهة أخرى،أو بعبارة أوضح بين العلم والأخلاق (لأن العقل مجال العلم،والشعور والإرادة مجال الأخلاق)؛ وعلى ذكر تحديد مملكة الأخلاق يعجبنى أن أذكر هنا على سبيل الاستطراد أشهر مقوماتها .

يطلق الافرنج كلمة (كركتير) على الأخلاق ، فيقول الانجليز: A man of character ويقول الفرنسيون Un homme de caractère

أى الرجل ذو الخلق العظيم ، كما أنهم يطلقون هذا اللفظ على حرف المطبعة لتوفر أوجه الشبه بينهما،فكما أن حرف المطبعة له صورة واحدة لاتتغير رغم الضغط الواقع عليه ،فكذلك الرجل ذو الخلق العظيم لايحيد أبداً عن المبادىء الصحيحة ولا يتحول عنها مهما تغيرت الظروف وتقلبت الأحوال، فالثبات على المبادىء القويمة والدفاع عنها إلى آخر رمق فى الحياة ، هماأسمى مظهر للأخلاق العالية والخلال الراقية؛ تلك حدود مملكة الأخلاق وهذه أكبر مميزاتها.

كنه العلاقة

بين العلم والأخلاق

العقل المثقف بالعلوم ، المشحوذ بالمعارف ، كان فى كل زمان مناط التمييز بين الأفراد ، وقاعدة المفاضلة بين الأمم فى معترك الحياة .

١ ـ قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «لست بخب ، والخب[1] لا يخدعنى» ، يعنى كان له شرف يمنعه أن يخدع ، وعقل يعصمه أن يخدع .

٢ ـ وقال معاوية لعمرو بن العاص : ما بلغ من عقلك ؟ فقال : ما دخلت فى شيء قط إلا خرجت منه ، فقال معاوية : ولكنى ما دخلت فى شيء قط وأردت الخروج منه . يعنى ليس العاقل الأكيس من إذا وقع فى الأمر احتال له ، ولكن العاقل الأكيس يحتال للأمر حتى لا يقع فيه .

فعمرو بن العاص كان داهية ، ولكن معاوية كان أشد دهاء منه .

٣ ـ وقال أنوشروان لبزرجمهر : أى الأشياء خير للمرء ؟ فقال : عقل يعيش به ، قال : فإن لم يكن ؟ قال: فإخوان يسترون عيبه ، قال : فإن لم يكن ؟ قال : فمال يتحبب به إلى الناس ، قال : فإن لم يكن ؟ قال : فعى صامت ، قال: فإن لم يكن ؟ قال : فموت جارف .

٤ ـ وسئل كسرى: أى الملوك أفضل ؟ فقال : الذى إذا حادثته وجدته عليما ، وإذا خبرته وجدته حكيما ، وإذا غضب كان حليما ، وإذا ظفر كان كريماً ، وإذا وعد وفى وإن كان الوعد عظيما .

---

(١) الخب بالكسر : الخداع

٥- كتب أحد الكتاب الفرنسيين مقالا فى إحدى الجرائد، يصف نبوغ شاعرهم الكبير « فيكتور هيجو »، ختمه بكلمة وجه الخطاب فيها إلى الألمان عقب انتصارهم فى الحرب السبعينية، وها كم ترجمتها :

« أيها المنتصرون الظافرون ! لقد فتحتم الأقطار وجبيتم آلاف الألوف، فيحق لكم أن تفخروا بما أوتيتم من عز وقوة ؛ ولكن ينقصكم شيء تافه، تافه جداً، ألا وهو شاعر يتغنى بمجدكم الطريف كالشاعر الذى يبكينا على مصابنا الأليم »

فانظروا كيف يجد الفرنسي -وهو مغلوب على أمره- وسيلة لتعيير ألمانيا المنتصرة بأنها خلو من قريحة شاعر عبقرى . فالمفاخرة والمباهاة بين الأمم لا تكون إلا بالعلم والنبوغ ولو بفرد واحد، «وما نابغ فى أمة بقليل »

وإنى أختم هده الأقوال الحكيمة وأتوجها بحديثين شريفين لهما وثيق ارتباط بالموضوع الذى نحن فى صدده الآن وهو : علاقة العلم بالأخلاق .

١ - أُثنى على رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال: كيف عقله ؟ فقالوا : يارسول الله إن من عبادته ... إن من خلقه ... إن من أدبه... إن من فضله...فقال: كيف عقله؟ فقالوا : يارسول الله نثنى عليه بالعبادة وأصناف الخير، وتسألنا عن عقله؟فقال:إن العابد الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر ؛ وإنما يرتفع العباد غداً فى الدرجات الزلفى من

ربهم على قدر عقولهم .يعنى لا عبادة مع جهل ، ولا أخلاق ولافضل مع جهل.

٢ — قالت عائشة رضى الله عنها : قلت يارسول الله بم يتفاضل الناس فى الدنيا ؟ قال: بالعقل ، قلت : وفى الآخرة ؟ قال: بالعقل ، قلت : أليس إنما يجزون بأعمالهم ؟ فقال: وهل عملوا ياعائشة إلا بقدر ما أعطاهم الله عز وجل من العقل ؟ فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم، وبقدر ما عملوا يجزون .

ننتقل بعد هذا التمهيد ، إلى تلك المسألة التى كانت ولا تزال شغلا شاغلا لأذهان العلماء، ومزلة لأقدام الباحثين منذ ألفى سنة قبل الميلاد، وهى النظر فى تعليم الفضائل ، وتلقين قواعد علم الأخلاق ، بل سائر العلوم، التى من شأن تلقينها أن يعين على إصلاح النفوس وتهذيب الطباع، أعنى : أيقضى العلم باتباع الخير وترك الشر ؟ أو بعبارة أعم : هل العلم تهذب الأخلاق؟

هل العلم يهذب الاخلاق ؟

كان سقراط يعتقد أن الجهل مصدر الشر وأصل الفساد ، وأن العلم منبع الخير وأس الصلاح ، وأن العلم والفضيلة توأمان لا يفترقان ، فإذا ما عمل الانسان الشر ، فما ذاك إلا لأنه يجهل طريق الخير ، فالعالم ـ فى عرف سقراط ـ يستحيل أن يكون رجلا سيىء الأخلاق ، ردىء الطباع.

وقد تابعه على هذا (هربرت الألمانى) ، والأب (جيرار) المربى السويسرى الكبير ، الذى كان يتمثل دائماً بالعبارة الآتية:

Nous agissons comme nous aimons et nous aimons comme nous pensons .

وترجمتها: «إننا نعمل كما نحب ، ونحب كما نفكر» ، يريد بهذه العبارة ، أن العمل يتولد من الوجدان ، وأن الوجدان يتولد من الفكر ، أعنى أن العمل نتيجة الفكر . وهذا بعينه ما جاء فى الحديث الشريف المتقدم.

« وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله عز وجل من العقل؟ »

وعلى هذا تكون القوة المسيطرة على هذا العالم ، المثيرة لحوادثه هى العقل .

طرحت إحدى المجلات الفرنسية ـ أخيراً ـ على طائفة من رجال العلم والأدب والسياسة السؤال الآتى :

إن الحوادث تسير الرجال ، فما القوة الكبرى التى تثير الحوادث فى العالم ؟ أهى قوة طبيعية أم عقلية أم أدبية ؟ فتلقت أجوبة يختلف بعضها عن بعض اختلافاً بيناً ، غير أن العلم كان له الأغلبية الكبرى ،

فقد قال المسيو بول دى شانيل رئيس الجمهورية الفرنسية سابقاً «العقل السليم سيد حياة الناس»

وأبلغ منه قول الإمام على كرم الله وجهه : « رب! إنمن وهبته العقل فمم حرمته ؟ وإن من حرمته العقل فماذا وهبته ؟ »

وأبلغ وأحكم قول الله تعالى « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » ، ولكن قامت طائفة من العلماء وثارت على هذا الرأى (رأى سقراط) وأنكرت تأثير العلم فيما يصدر عن الانسان من الأعمال، فقال الفيلسوف الفرنسى بسكال:

La vraie morale se moque de la morale

أى «إن الأخلاق الصحيحة تهزأ بعلم الأخلاق» ،يريد أن يقول إن المثل الأعلى للأخلاق العظيمة فى واد،وعلم الأخلاق الموضوع فى واد آخر.

ثم جاء بعده رجل قوى الحجة ، سليط اللسان ،هو الفيلسوف الانجليزى هربرت سبنسر ، فأنكر على العلم (بلهجة شديدة) كل سلطة تهذيبية ، وكل تأثير فى إصلاح النفوس ، ونادى أن لا علاقة بين العلم والأخلاق ، وقال :«إن تحمس العلماء والخلقيين وتعصبهم للعلم ونشر التعليم بين طبقات الأمة ، ابتغاء إصلاح أخلاقها من وراء القراءة والكتب والمدارس،لهو بدعة من بدع هذا الجيل وسخافة من سخافات أهل هذا العصر»

يقول:« كيف يرجى من العلم تهذيب الأخلاق وإصلاح النفوس، بينا نرى من المتعلمين الذين استنارت عقولهم واتسعت مداركهم أفراداً

لاأخلاق لهم ، ووعاظاً يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم ؛ وسياسيين عظماء قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة ،عاملين على خراب الدنيا ، وإلحاق أكبر الشرور بالنوع الانسانى ، وأطباء من أكبر العلماء يدسون السم لمرضاهم ؟ فما أغنى العلم ولا نهى التعليم »

ثم يقول:«وبجانب هؤلاء نجد من بين الجهلاء والأميين، من هم على جانب عظيم من الاستقامة والشرف وعلو الهمة»،ويسخر هربرت سبنسر من الخلقيين الذين يعتمدون فى إثبات قوة العلم التهذيبية على الإحصاءات الدالة على متانة الاتصال والارتباط بين الجهل والإجرام،وأنهما متلازمان تلازم العلة للمعلول ، والسبب للمسبب .

ويقول:«إن مثل من يقدم هذا برهاناً على تأثير العلم فى الأخلاق، كمثل من يقول : إن سبب ارتكاب الجرائم عدم نظافة الجسم ورثاثة الملبس، لأن السجون ملأى بهؤلاء »

ويقول فى الختام:«إننا إذا أردنا أن نحسن الأخلاق ، ونهذب النفوس ، ونطهر الذمم ، فلا بد لنا من تربية الوجدان والميول ، لأن الناس فى أعمالهم يحكمون عواطفهم ، وينقادون لأهوائهم ، دون أن يستشيروا حكمتهم ويصغوا إلى نداء عقولهم» .

وهذا كان أيضاً رأى الفيلسوف الفرنسى أوجست كونت ، إذ كان فى آخر أيامه يقول : العالم تحكمه العواطف لاالأفكار.

Ce ne sont pas les idêes qui gouvernent le monde ce sont les sentiments.

ولا يتوهمن أحد أن هربرت سبنسر ، ومن حذا حذوه فى اتهام

العلم بعجزه عن القيام بتهذيب الأخلاق ، وقصوره عن مداواة ما اعتل من غرائز النفوس وميولها ، ينكرون أثر العلم وفائدته فى إضاءة الأذهان وتنمية العقول ، إذ كان شعارهم تربية العقل وترقية الفكرة إلى أقصى حد مستطاع ، وقد ضربوا فيه ـ هم أنفسهم ـ بسهم ، وفتحوا للعقل الانسانى سبلا جديدة للبحث والتنقيب وراء الحقائق . وغاية الأمر أنهم يقولون : ابحثوا عن طرق أخرى غير طريق العلم للقيام بتهذيب الأخلاق ، التى عليها يتوقف مستقبل الأمم وسعادة الشعوب .

نعم نعترف ـ والأسف يملأ قلوبنا ـ أن العلماء والمتعلمين ، ليسوا فى كل الأحوال ممن يقتدى بهم فى طهارة الذمة وعلو الشرف ، وأن الجهلاء وصغار العقول ، ليسوا حتما ممن خبثت نفوسهم أو فسدت نياتهم ، كما نعترف بأن العلم قد يكون سيف الباطل فى يد من تأصلت الرذيلة فى نفوسهم وسرى الفساد فى أعراقهم ، ولكن لو طرحنا تلك النفوس المتحجرة والعواطف الجامدة جانباً ، وغضضنا النظر عن هذه الشواذ وتلك المستثنيات ، وفرضنا شخصين تماثل فيهما استعداد الفطرة ، ونشأ فى بيئة واحدة (تعلم أحدهما وبقى الثانى جاهلاً) أفلا يكون المتعلم أشد محافظة على كرامة نفسه ؟ وأكثر استقلالا فى رأيه ؟ وأقل إضراراً بنفسه وبالمجتمع ؟

نعم قد يضر الجاهل من حيث يريد النفع ، لأن التمييز بين الخير والشر ، فى بعض المواطن ، من أشق الأمور وأدقها ؛ والعلم بلا شك هو الذى يهدى الانسان ويرشده إلى أقوم الطرق وأهدى المسالك .

يقول المؤرخ الفرنسي جيزو: « يشهد الله أني عقدت النية ووطنت النفس على أن أعمل الواجب عليّ دائماً، غير أني لست واثقاً أني اهتديت إليه فى جميع الأحوال ؛ وإن الأنسان فى أيام المحن وأوقات الشدائد لأحوج إلى معرفة الواجب منه إلى أدائه » ، فكأني به يقول:

يقضي على المرء فى أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

يقول هربرت سبنسر بالبحث عن طرق أخرى غير طريق العلم لتهذيب النفوس، وإصلاح الأخلاق ؛ فما هى تلك الطرق ؟ وكيف يعقل أن يكون هناك طرق تؤثر فى نفس كائن ديدنه التعقل ودأبه التفكير تأثيراً يؤبه له ، غير طريق الدليل القاطع والحجة الدامغة ؟

يقول هو ومشايعوه : إن الإنسان عبد حسه ووجدانه ، والناس فى أطوارهم منقادون لشعورهم ، مستسلمون لميولهم ، وإن الفكر ناصح أو مستشار للنفس لا أكثر .

هذا قول صحيح لا مرية فيه ، إلا أن المحقق أيضاً أن هذا المستشار ، إذا كان فطناً مهذباً بالعلم ، مشحوذاً بالمعارف ، فإنه كثيراً ما يفلح فى إثارة الشعور فى الصدور ، وإشعال نار الحمية فى القلوب، وحمل النفس على الإتيان بأعمال جليلة ، ما كانت لتقدم عليها لولا إرشاد الفكر وهدى العقل .

ليس منا من يجهل ما لحسن الأسلوب وقوة البيان من استعباد القلوب، وأسر النفوس ، وامتلاك زمام الوجدان والميول؛ وحسبي دليلا على ذلك استعطاف بديع لتميم بن جميل السدوسى ، لما خرج بشاطئ

الفرات ، فإنه لما ظفر به ، وحمل موثقاً إلى باب المعتصم ، وأوقف بين السيف والنطع ، تأمله المعتصم — وكان جسيما وسيما — فأحب أن يعلم أين لسانه من منظره ؟ فقال : تكلم ياتميم ، فقال : أما إذ أذنت ياأمير المؤمنين فأنا أقول : إن الذنوب تخرس الألسنة الفصيحة ، وتعي الأفئدة الصحيحة ، ولقد عظمت الجريرة ، وانقطعت الحجة ، وساء الظن ، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك ، وأرجو أن يكون أقربهما مني وأسرعهما إليّ أشبههما بك وأولاهما بكرمك » ، ثم قال على البديهة :

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً ... يلاحظني من حيث ما أتلفت

وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي ... وأى أمرىء مما قضى الله يفلت ؟

وأى أمرىء يأتي بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مصلت ؟

وما جزعي من أن أموت وإنني ... لأعلم أن الموت شيء مؤقت

ولكن خلفي صبية قد تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تتفتت

فإن عشت عاشوا خافضين بغبطة ... أذود الردى عنهم وإن مت موتوا

فتبسم المعتصم وقال : « كاد والله ياتميم يسبق السيف العذل ، قد وهبتك للصبية ، وغفرت لك الصبوة » ، وأمر بفك قيوده وخلع عليه .

فإذا لم يكن جميل بن تميم هذا ، رجلا عالماً متضلعاً من فنون الأدب ، هل كان عرف كيف يستفيد من الفرصة السانحة ؟

ورب معترض يقول : إنما تسامح المعتصم وترخص ، لأنه لم يكن معروفاً بالشر والأذى ، فإليكم حديث رجل اشتهر بالصلابة والغلظة ، وهو الحجاج بن يوسف الثقفي ، فإنه لما ظفر بعمران بن

حطان ـ وقد خرج على الدولة فى أيامه ـ قال لسيافه : اضرب عنق ابن الفاجرة ، فنظر إليه عمران شذراً ، وقال : بئس ماأدبك أهلك ياحجاج ، أأمنت أن ألقاك بمثل مالقيتنى به ؟ وهل كان وراء الموت منزلة فأصانعك عليها ؟ فأطرق الحجاج استحياء ، وقال لأصحابه : خلوا عنه.

الحجاح يطرق استحياء ، ويرخى عينيه وينظر إلى الأرض خجلا !!
هذا من الغرابة بمكان ، ولكنها روعة البلاغة ، وصولة الحق .

فلما خرج عمران ، قال له أصحابه : والله ماأطلقك إلا الله ، فارجع معنا لحربه ، فقال : هيهات ذلك هيهات « غل يداً مطلقها ، وأسر رقبة معتقها »

إن الذى يقعد بالأغنياء غالباً عن فعل الخير ، هو الجهل بالخير ، وعدم إدراك جمال الخير ، لكنك إذا استعطفت كثيراً منهم عطفوا ، وإن أبنت لهم وجه الخير أسرعوا لإنقاذ الملهوفين ، وسد حاجة المعوزين ، وذلك لأن عمل الخير فى ذاته سعادة حقيقية .

ومنذا الذى يلقى السعا دة ثم يتركها اختياراً ؟

يحضرنى بهذه المناسبة حكايتان قرأت أولاهما فى كتاب عربى ، والثانية فى كتاب إفرنجى .

ملخص الأولى أن عالماً كان يكثر الترداد على بيت أحد الأغنياء ، وكان هذا الغنى لايهتم برد الزيارة للعالم ، فعوتب العالم فى ذلك ، فقال : أما أنا فأزوره لأنى أعرف قيمة المال ، وأما هو فلا يزورنى لأنه يجهل قيمة العلم .

وملخص الثانية أن أحد الأغنياء كان يتنزه فى مزارعه مع أحد أتباعه فقابله قروى صغير من أبناء الفلاحين فحياه برفع قبعته ، فما كان من الغنى إلا أن رد التحية بأحسن منها ، فقال التابع متملقاً : أتتنازل ياسيدى إلى تحية مثل هذا الصعلوك الحقير؟! فأجابه : إنك لا ترضى لى أن أكون أقل أدباً من هذا الذى وصفت بأنه صعلوك حقير .

فانظروا كيف اهتدى هذا الغنى بعلمه إلى الآداب الإلهية السامية « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها »، وكيف ضل ذلك بجهله سواء السبيل .

زد على ما تقدم أن العلم يبصر المرء بقيمة نفسه، ويزين له التواضع، ويحبب إليه لين الجانب، ويباعد بينه وبين العجب والكبرياء .

يقول الفيلسوف الفرنسى مونتين : « إن مثل العلماء فى ازدياد تواضعهم كلما تبحروا فى العلم كمثل سنابل القمح تظهر بادئاً وهى خلو من الحب متعالية شامخة فإذا امتلأ جوفها ودنا نضجها احدودبت سيقانها وانحنت رءوسها ، كذلك رءوس العلماء تنوء بالعلم فتتضع ؛ فإذا رأيت رجلا يعجب بنفسه ويفخر بعلمه فهو مريض بالخيلاء ، وعلاجه الاستزادة من العلم والاعتراف من بحاره» .

إن طمأنينة النفوس وهدوءها وصفاءها ورباطة أجشها حتى فى أشد المواقف خطراً ، لهو نتيجة العلم بالأشياء على حقيقتها والبصر بعواقب

الأمور ؛ فالخوف المذموم والجبن وخور العزيمة أمراض قلَّ أن تسكن قلوب العلماء الراسخين ، ولكنها تتطرق بسهولة إلى صغار العقول والجاهلين من الناس .

ألا ترى الجاهل يفر مذعوراً لرؤية أحقر الأشياء وأهونها كمنظر المردة مثلاً ، التي تتولد بالقرب من المقابر وتذروها الرياح في حين لا يرى المتعلم فيها إلا اتحاد الايدروجين بالفصفور (الايدروجين المفصفر) الناشئين عن تحليل المواد العضوية ولذا سميت بالنيران الجوية ؟

إن الخائف لا ينتفع به ولا يعتمد عليه في شيء ما ، وهو أكثر الناس تعرضاً واستعداداً للأمراض إبان انتشار الأوبئة ، وإذا أصيب بها ولم يمت كان أبطأ الناس إبلالا منها ؛ كما أنه أسهل الناس استسلاماً للأمراض الوهمية التي ينتهي أمرها بأن تكون أمراضاً حقيقية .

ولا علاج لهذه الأمراض — التي لا يهدأ للانسان معها بال ولا يحسن له عيش ولا تطيب له حياة — إلا بتحصيل العلوم والارتواء من مناهلها العذبة الصافية .

دخل رجل على النبي صلى الله عليه وسلم فأصابته رعدة فقال له : إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد ؛ وهذا نهي من النبي صلى الله عليه وسلم عن جبن الانسان وخشيته أي مخلوق مهما كان عظيما .

ومر عمر بن الخطاب رضي الله عنه على صبية يلعبون وفيهم

عبدالله بن الزبير فهربوا منه إلا عبد الله فقال له عمر : مالك لم تهرب مع أصحابك؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! لم أكن على ريبة فأخافك، ولم تكن الطريق ضيقة فأوسع لك . وعبدالله هذا هو الذى دعا الناس إلى خلافته ولبث نحو ثمانى سنوات يهدد دولة بنى أمية بالزوال ؛ وقد دل بسرعة خاطره ـ منذ نعومة أظفاره ـ على فرط ذكائه وقوة حجته وإدراكه الحقائق، ثم نمت تلك الشهامة مع كبر سنه حتى وقف يناضل تلك الدولة العظمى وينازعها السلطة والملك .

وقصارى القول أن العلم نبراس يضيء للنفس طريقها ، وطبيب يعالج أدواءها ؛ ولذلك قامت أغلبية كبرى من عظماء الرجال فى الأمم الحية والشعوب الراقية غير آلين جهداً فى نشر العلم وتعميم التعليم على تفاوت درجاته فى كل مكان ؛ ذلك لاعتقادهم أنه أمتن أساس يبنى عليه رقى الأمم وأقوى دعامة تقوم عليها سعادتها ورفاهيتها .

وقد حدث — منذ سبعين عاماً — أن طرحت مسألة تعميم التعليم الإجبارى فى انجلترا على بساط البحث ، فقام المؤرخ الشهير ماكولى وألقى خطبة ممتعة فى مجلس الأعيان جاء فيها : إن العلم يخدم الأخلاق خدمات جليلة ، وإننا إذا أردنا أن ننقص عدد السجون فعلينا أن نزيد عدد المدارس .

فكأن نشر التعليم بين طبقات الأمة هو أنجع دواء لتقليل الجرائم وتثبيت أركان الأمن فى أنحاء البلاد .

وفى الوقت عينه أو قبله بقليل قام المؤرخ جيزو الذى كان

وزيراً للمعارف بفرنسا إذ ذاك ، وقرر التعليم الإجباري بين طبقات الشعب الفرنسي .

ولقد عثرت في شهر سبتمبر الماضي على مقال في جريدة الطان عنوانه « في سبيل المدنية » يتضمن رأي أمريكا أيضاً في العلم والتعليم وعلاقتها بالتربية الخلقية نقتطف منه ما يأتي :

« إن الأمريكيين الذين نغبطهم ونفخر بحق بعبقريتهم التجارية والصناعية وكفايتهم المحققة في الأعمال ، يعلمون حق العلم أن خير عمل يعمله الرجل في هذا العالم هو أن يتعلم » .

إن التعليم بالمعنى الصحيح هو الإعداد التام للنضال في معترك الحياة ؛ والأمريكيون الذين يودون أن يكونوا مسلحين حتى يحسن نجاحهم في المنافسة الحيوية عمدوا إلى التحقق من نجاح طريقهم القائمة على التعقل والتجربة والجرأة والتبصر في العواقب ؛ فأوفد ديوان التربية والتعليم في واشنطن أحد رجاله يسأل أصحاب المصانع وجميع الأفراد الذين في وسعهم أن يقدموا بيانات عن تأثير العلم والتعليم في مزاولة الأعمال الصناعية ؛ وقد أجابوا بوضوح تام عن السؤال الذي طرح عليهم وهو :

س — أيرجع سبب الكفاية في الإنتاج إلى التعليم الحسن ؟

ج — فأجاب صمويل تومس — مدير أحد مصانع استخراج الحديد وصنعه في زانسفيل — جواباً حقق به ذلك كل التحقيق.

قال: إن عماله يحسنون العمل إذا كانوا متعلمين، وشكا مر الشكوى من العمال الجهلاء الذين يخرجون عمـلا قليلا رديئاً ، وقدر القصد فى الوقت — إذا ما عمل العمال المتعلمون ـ بعشرة فى المائة، وأقر هذا الرأى الـكثيرون من نساجى القطن.

وصرح المستر هرى نساج الصوف أن الذين كانوا فى المـدارس من العمال يميلون أكثر من غـيرهم إلى الغزل والنسج ولا يضيعون أوقاتهم فى المجادلات ، وأنه فى يوم دفع الأجور يسر كثيراً من العمال الذين يعرفون حساب أنفسهم دون الجهلاء الذين يظنون دائمـاً أنهم مخدوعون مغبونون .

وقال المستر جون ستيفنس صانع الآلات فى نيويورك: « إن التعليم لا يساعد على المهارة العلمية وحـدها، بل يقوى الشعور ويحسن الأحوال الاجتماعية للذين أدركوا منه نصيبهم، ويزيد الهناءة الداخلية فى الأسرة، لأن العامل المتعلم يكثر من العناية بزوجه وأبنائه، ويسكن بيتاً نظيفاً منظماً، ويقدر وقته، ويقصد فى نفقاته »، ثم ختم هذا الصانع الماهر ملاحظاته بقوله: « إنى أرى أن المصلحة الوطنيـة الحقيقية للولايات المتحدة هى فى تعليم الشعب وقوة تحصيل العمال »

مما تقدم ترون مبلغ عناية الأمم الراقية والشعوب المتحضرة بأمر التربية العقلية والبحث والتنقيب وراء كل ما يصلح نفوسها ويقوم أخلاقها، لأنها الأساس الذى يقوم عليه صرح حضارتها وسعادتهـا .

ولذلك كان علم الأخلاق من أهم المواد التي قرروا تلقينها النشء في مدارسهم العالية والثانوية والابتدائية ، وعنى المربون بالتأليف فيه والتصنيف ،حتى امتلأت دور كتبهم ومدارسهم بالكتب النافعة .

فانظروا رعاكم الله حالنا وحال تلك الأمم الراقية الناهضة ، ووازنوا بين مدارسنا ومدارسهم .

ألا يحزننا جميعاً أن نرى دور العلم عندنا — حتى المعاهد الدينية — خلواً من تدريس علم الأخلاق ؟ الحق أقول لكم إنها حال محزنة للغاية .

نلم بالمدارس والمعاهد الدينية فنراها صفراً من تعليم الأخلاق وعلمها ، إلا ما يقع ـ في الندرة ـ من عظة في تضاعيف كتاب مطالعة ،وكلمة مثلها في سياق التمثيل لقاعدة ؛ وكلتا الحالتين لا تراد لنفسها ولا تورد لوجه الأخلاق خالصة، ولا تصيب من حظها إلا أن تكون قياساً نحوياً أو مثالا صرفياً .

ومما يزيد الخطب فدحاً أنا نرى بأعيننا هذه الثغرة في بناء حياتنا الأدبية تتسع، ونحن في غفلة أو متغافلون عن سدادها .

إننا بتجريد جيل المتعلمين من القوة الأخلاقية،إنما نبعثهم كتائب عزلاء لخوض هذه المعمعة الحيوية شاكية السلاح ؛ فما الذي يمنعنا — ونحن أمة عريقة في العلم والحضارة — من السعي والعمل على نشر الفضائل وبث الأخلاق المحمودة بين طبقات الأمة؟ ! وما الذي يعوق المربين والمدرسين والأطباء والقضاة والمحامين والمفكرين من كل طبقة أن يعملوا متآزرين على وضع الكتب

القيمة فى هذا الفن ؛ وعلومنا وآدابنا فى هذا — ولله الحمد — حافلة بالحكم العالية والآداب السامية التى ورثناها عن ذلك السلف الصالح ، وله فيها القدم الراسخة والقدح المعلى ، وأن يبذلوا ما فى وسعهم لتقريرها فى مناهج التدريس للمعاهد والمدارس على اختلاف درجاتها .

إنى أعتقد أن لا شىء يحول دون تحقيق هذا الغرض السامى ، لأن القائمين بالأمر فيناً لا يسعهم إلا إجابتنا إلى ما نريد إذا كان الشىء الذى نريده حقاً من حقوقنا الطبيعية ؛ وهل فوق ترقية الأخلاق وإصلاح العادات شىء أجدر بالعناية وأولى بالإجابة والمساعدة ؟

وما الذى يمنع علماءنا الأعلام — وهم كما فى الأثر الشريف : ورثة الأنبياء وحفظة الشرائع والأخلاق والوعظ والإرشاد — من محاربة الرذيلة وبث روح الفضيلة فى الناس ؟ !

لقد كانت الخطابة المنبرية موضع العناية ، إذ كان يليها الخلفاء فى الصدر الأول والأمراء من بعد ذلك ، ثم استقل بها العلماء وقد استقامت لهم فيها طريقة من الوعظ والإرشاد تجاذب الأنفس العصية فضل هواها ، وتثنيها بقوة بيانية عما فيه رداها .

أما اليوم فلا نسمع فى المساجد إلا الخطب التى لا تلتئم كثيراً مع روح العصر ، ولا تؤثر فى قلوب المصلين التأثير المطلوب .

إننا فى أزمة خلقية يوشك — إن تنفس بها العمر — أن تذهب بالبقية الباقية فينا ، ولئن ذهبت بها لنذهبن على أثرها .

فها نحن أولاء تُشَن على هذه البقية الضعيفة من أخلاقنا الغارات ؛

ونغزى فى ظل الغفلة والسلم أشنع الغزوات ؛ فالأغانى والصور المتحركة (السينما توغراف) والتمثيل الخليع الماجن والروايات الهزلية المعدية، وما ماثل من أعراض هذه الفتنة الفاشية التى نزداد فيها ارتكاساً ؛ كل أولئك موبقات دهمتنا ونحن عزل من قوة المقاومة، أعنى الأخلاق ؛ وتلك موبقات ماسرت فى أمة إلا رشحتها للفناء ؛ وماذا بعد الإهمال إلا الفوت؟ وماذا بعد النزع إلا الموت؟

ألا فلنتعاون جميعاً ولنعمل غير هازلين لصد هذا السيل الجارف، ولنقم بيننا وبينه سداً منيعاً من الأخلاق، وليبادر حضرات العلماء الغُير على الفضيلة والآداب القومية، ويتولوا من تلقاء أنفسهم وعظ الناس وحثهم فى المساجد والمجتمعات وفى الأسواق والمنتديات، فهم أولى الناس بهذا العمل العظيم وأقدرهم على التأثير فى نفوس السامعين.

إنهم إن فعلوا ذلك — ولا إخالهم إلا فاعلين — رغبوا كثيراً من المتعلمين فى التوجه إلى المساجد وغشيان مواطن الوعظ والإرشاد، وأخمدوا أنفاس البدع والخرافات التى رانت على التعاليم الدينية وأبعدت كثيراً من أهل العلم الحديث عنها.

أما إذا أراد حضرات المدرسين والأطباء والمحامين والقضاة وكل من آتاهم الله فضلا وعلماً، أن يقفوا على مقدار ما يبذله أمثالهم فى البلاد المتحضرة من النفس والنفيس فى سبيل نشر العلم وتهذيب النشء وإخراج العامة من ظلمات الجهل إلى نور العرفان ؛ فإنى أسوق إليهم من جليل آثارهم وصالح أعمالهم ما أرجو أن يحرك فى النفوس عوامل الغبطة ودواعى القدوة :

(١) **اليابان** — قصد أحد مكاتبي الجرائد الإنجليزية الكبيرة ديوان الحربية فى مدينة توكيو، لمحادثة الجنرال نوجي فى شئون السياسة عقب انتصاره على الروسيين فى موقعة بور آرثر الشهيرة، فأخبر بأن الجنرال يدرس اليوم فى إحدى المدارس الابتدائية ، فعجب المكاتب ودهش وقال : أقائد هو أم مدرس ؟ فقيل له : إن جلالة الميكادو تفضل عليه بعد موقعة بور آرثر، فمنحه لقب مدرس بالمدارس الابتدائية .

أليس فى هذا النبأ ما فيه من سداد رأى الميكادو وبعد نظر القوم وحسن بصرهم بالأمور واعتقادهم أن البناء المتين لا يقوم إلا على الأساس المتين ؟

يظن الكثير من الناس أن الأطفال لا يحتاجون فى أول أمرهم إلى المدرس الكفء والمربى الماهر، وإنهم فى ذلك لواهمون، لأن مثل الطفل كمثل النبات الصغير، فإنه فى حياته الأولى أحوج ما يكون إلى البستانى المدرب، فإذا ما نما وترعرع وامتدت جذوره إلى حيث الغذاء والماء لم يعد يعتمد إلا على نفسه أو يكاد .

(٢) **ألمانيا وفرنسا** — يقوم جماعة بإنشاء مدرسة لتعليم الشعب، فيعلنون عن وظائف التعليم بالمجان ، فتنهال عليهم الطلبات من كبار المدرسين والمحامين والأطباء والمهندسين ، وفى أيسر مدة يجتمع لديهم فوق ماهم فى حاجة إليه، فيختارون من بينهم أقدرهم على العمل وأليقهم به، وحينئذ يبتهج المختارون، ويرون الشرف كل الشرف فى اختيارهم ، ويحلون بهذه الوظائف عناوينهم وبطاقات زياراتهم، فانظروا إلى مقدار هذه التضحية ولا تعجبوا أن تقدم القوم وتأخرنا !

(٣) **انجلترا** — فى انجلترا مثل جميل جـديد للتسابق فى نشر العلم بين طبقات العمال؛ذلك أن فى شرق لندن حياً يعرف بحى (وايت شبل White chaphel)أهله فى فقر مدقع وضنك شديد؛ففكر جماعة من أثرياء الإنجليز فى رفـع شأن هذا الحى بنشر التعليم بين ربوعه حتى لايجتمع عليـه الجهل والفقر — وهما ما اجتمعا على حى إلاأهلـكاه— فأسسوا به معهـداً كبيراً على نفقتهم اسمه (تو ين بهول Taynbee hall)

ثم فـكروا فى إيجاد المدرسين فأجمعوا رأيهم على طرق أبواب جامعتى أكسفورد وكمبردج ،ودعوة الشبان المتخرجين فيهما للتدريس بهذا المعهد بلا مقابل،فلبوا الطلب وأجابوا الدعوة مفضلين القيام بهذا الواجب على الالتحاق بالوظائف ذوات الرواتب الوفيرة،ورضوا—وكلهم شبان من أهل النعمة والثراء — أن يعيشوا مع العمال فى حيهم ويشاركوهم شظف العيش ومرارة الحياة،ثلاث سنوات متتاليات، وظل المعهد يدرج مدارج الرقى والفلاح بفضل غيرتهم وقوة ثباتهم ، حتى صار اليوم—وقد مضي عليه نحو خمسين عاماً — جامعة من أكبر الجامعات ،تدرس فيهـا العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفية والزراعية والتجارية والفنون الجميلة على اختلاف أنواعها .

وفى اعتقادى أن هذا أسمى مثل للتضحية الصحيحة والخدمة الحقـة.

تعليم الشعب

بقيت لى كلمة ختامية عن تعليم الشعب : سمعتم حضراتكم من المسترجون ستيفنز الأمريكى، أن الخدمة الوطنية الحقيقية للولايات المتحدة تنحصر فى تعليم الشعب وقوة محصول العمال ، وهو قول حق لامراء فيه؛لأن الحكم على أمة يجب أن يتناول مجموع أفرادها لا فئة المتعلمين خاصة مهما بلغ علمهم ورقيهم .

ولقد سألت أحد أصدقائى الإنجليز السؤال الآتى :

بأى عين ينظر الإنجليز إلى المتعلم منا ؟ فأجابنى من فوره:أن المتعلم منكم لايقاس بكفاءته الذاتية ، لأنه محال تصوره منفرداً منعزلا عن باقى أبناء جلدته الجهلاء الذين يعيشون معه على أرض واحدة وتحت سماء واحدة ؛يريد بذلك أنهم ينظرون إلى المتعلم منا بمقدار خارج قسمة كفاءته الشخصية على تسعة،إذا كانت نسبة المتعلمين منا عشرة فى المائة؛ والحق أن هذا القول لم يغضبنى ، بل زادنى شعوراً بالمسئولية الكبرى الملقاة على عاتقى نحو إخوانى الجهلاء والأميين .

فاذا أراد المتعلمون منا — ولا إخالهم إلا مريدين — أن يرفعوا بلادهم إلى المستوى اللائق بكرامتهم ،فعلى كل منهم أن يضع نصب عينيه أن أحسن عمل يؤديه لبلاده هو أن يقوم بتعليم إخوانه الجهلاء.

وفى ختام الختام أقول بمزيد السرور : إن فكرة تعليم الأميين قامت فى رءوس فئة من شبابنا العاملين من المدرسين والمهندسين والأطباء

والموظفين والتجار، فأسسوا جماعة فى حى White chapel القاهرة ، وهو حى بولاق،حى العمال والفقراء الذين قعد بهم الفقر عن ورود مناهل التعليم وغشيان دوره.قام هـؤلاء الشبان منذ ثلاث سنوات وأسسوا (جماعـة نهضه بولاق الأدبية) وجعلوا من أهم أغراضها تعليم العمال وتهذيبهم ؛ فأنشأوا لهذا الغرض قسما ليلياً مجانياً، وفتحوا أبوابه للعمال يعلمونهم فيه القراءة والكتابة ومبادىء الحساب ودروس الأخلاق وحفظ الصحة، وفق منهاج وضعوه خصيصاً لهم ؛ وهذا القسم مكون الآن من أربعة فصول، تضم نحو ثمانين ومائة عامل ، وإنى أؤكد أنه لو تناسبت موارد هذه الجماعة مع عزيمـة القائمين بها ومجهودهم لكان هذا العدد أضعاف ماهو عليه اليوم .

ملاحظة ختامية

دارت مناقشة حول « عـلاقة العـلم بالأخلاق » بين الأستاذ عبد العزيز الاسلامبولى ، وحضرة الأستاذ المؤلف ، فيما إذا كان مايزال يرى رأيه الأول فى وجود تلك العـلاقة ؟ فتفضل بإرسال الكلمة الآتية :

***

صديقى المفضال الأستاذ عبد العزيز الإسلامبولى

بعد التحية ، تسألنى رأيى فى علاقة العلم بالأخلاق بعد أن مضى أكثر من عشر سنين على تاريخ إلقاء محاضرتى فى هـذا الموضوع ،

وعما إذا كنت لا أزال متحمساً لتلك الرابطة التى تربط التربية بالتعليم وتجعلها تابعة له ونتيجة من نتائجه ؟

وإنى لا أكتمك رأيى فى هذا الموضوع الخطير ، وقبل أن أجيبك عن سؤالك هذا، أذكر مناقشة صغيرة حدثت بينى وبين معالى « جعفر باشا والى » فى هذا الصدد بعينه ، عقب قراءته رسالتى فى « علاقة العلم بالأخلاق »

قال لى : إنى أعتقد أن العلم والأخلاق شيئان مختلفان ، وأن الرابطة بينهما — إذا وجدت — ضعيفة لاتكاد تذكر .

وقد أخذت أفكر فى تلك الرابطة ، وأتتبع رقى التعليم فى كثير من البلاد الراقية ؛ فرأيت ـ بعد الذى قرأت وشاهدت ـ أن الأخلاق فى تلك البلاد لاتزال على ما كانت عليه من قبل ، إن لم نقل إنها أخذت فى التأخر والتدهور ، وأن عدد الجرائم فيها لم ينقص عن ذى قبل ، بل أخذ فى الازدياد والانتشار ، حتى صارت ترتكب جهاراً وفى سن مبكرة ، كما يتضح ذلك من الإحصاءات الرسمية ، مما جعلنى أتشكك فى صحة القول المشهور « من فتح مدرسة فقد أغلق سجناً » ، فقد زاد عدد المدارس زيادة عظيمة فى جميع البلاد ، وعدد السجون فيها باق كما كان ، إن لم يكن ربا وزاد .

وعلاقة العلم بالأخلاق هذه ، أثيرت من عهد سقراط وما تزال موضعاً للأخذ والرد حتى اليوم .

أحمد فهمى العمروسى

هربرت الالماني

جان فردرك هربرت *

مقدمة

أريد الليلة أن أقص على حضراتكم تاريخ رجل ذاع اسمه وطار صيته فى الأقطار الألمانية والإنجليزية، بل كادت شهرته تطبق جميع الممالك التى تهتم بأمر التربيـة وتريد أن تتخذ لنفسها متبوءاً فى صف الشعوب الراقية الضاربة فى هذه الحياة بسهم .

هذا الرجل الألمانى الذى هو إمام من أئمـة التربية ورأس من رءوسها، إن لم أقل قدوة أئمتها ورأس رءوسها، هو جان فردرك هربرت .

إذا ذكر عظماء المربين فى قارة أوربا سمعت الناس هنا يذكرون اسم (روسو) الفرنسي الذى وضع كتاب (إميل) فى التربية ، ولـكن روسو نفسه لم يحترف فى حياته حرفة التربية ، بل لا أبالغ إذا قلت : إنه لم يترب، حتى كان فى أخلاقه وسلوكه من أبعد الناس عنها .

لذلك يجدر بنا أن نسميه روائياً أو قاصاً فى فن التربية لا مربياً بالمعنى الصحيح ؛ ولو أن كتابه (إميل) خدم علم التربية فى فرنسا وأثار حركة الأفكار فيها وغير من عاداتها وأخلاقها ما شاء الله أن يغير حتى

---

* ألقيت هـذه المحاضرة بنادى دار العلوم فى ١١ ربيع الأول ١٣٢٧ هـ ـ مارس سنة ١٩٠٩ م ، ونشرت فى « صحيفة نادى دار العلوم »، وقد كان الأستاذ المحاضر فى ذلك الوقت وكيلا لدار العلوم .

الآن ، وقد مضى على روسو نحو مائتي سنة،وله مؤلفات شتى كانت من أهم العوامل فى قلب نظام الحكومة الفرنسية ؛ ولذا يسميه أهل بلاده «رائد الثورة الفرنسية » التى جاءت بعد موته بعشر سنوات تقريباً .

وإذا ذكر عظماء المربين سمعت الناس يتغنون بذكر (هربرت سبنسر)الفيلسوف الإنجليزى الشهير ، ولكنه كان فيلسوفاً أكثر منه مربياً ؛ لأنه لم يمارس التعليم فى حياته ، وكل ماعمل فى هذا الفن هو أنه ألف رسالة بديعة فيه ، وجدير به أن يلقب بمترسل أومحرر بليغ فى علم التربية .

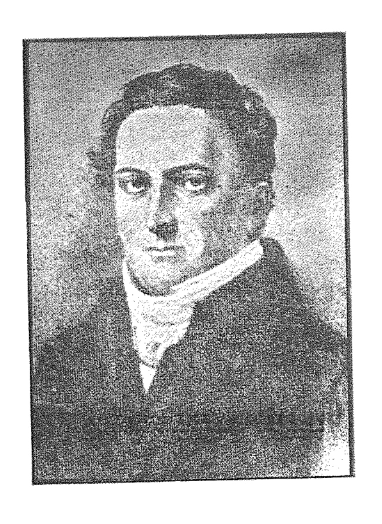
أما بطل الليلة فكان مربياً من كل وجه ، وإن شئت فقل بأوسع معانى الكلمة : كان معلماً ماهراً طول حياته ، وسترون بعد قليل أنه ماخرج من الدرس إلا إلى القبر .

***

كان مولعاً من صغره بدراسة علم النفس ، فدرسها دراسة علمية حتى ضرب فيها بسهمين ، ثم شيد عليها بناءً شامخاً مؤسساً على أمتن الدعائم، هو مذهبه فى علم التربية .

هذا المذهب الجليل،وإن كان قابلا للنقد ككل المذاهب فى بعض أصوله كما سترون ، ويعوزه أحياناً شىء من الإيضاح ، إلا أنه فى مجموعه برهان ساطع على عظم قوة ابتكار صاحبه وحسن ترتيبه وتنسيقه لمبتكراته .

لم يكتف هذا المربى العظيم بالبحث النظرى فى القوانين العامة ، بل تنزل



چان فردريك هربارت الألمانى

١٧٧٢ - ١٨٤١

من سماء الخيالات إلى دراسة أصغر مسائل التربية العملية،والبحث فى كلياتها وجزئياتها ، ويصح لى أن أستشهد على ذلك بشهادة رجل عدل هو الأستاذ الفرنسى (مسيو كومبيرى) الذى وضع لبنى وطنه كتاباً يتضمن حياة (هربرت) وآراءه فى التربية وتأثيرها فى العالم ، حيث قال فى مقدمة الكتاب : « إنه لايسعنى ـ مهما أفرغت جهدى ـ إلا أن أهيء لكم فكرة عامة عن مذهب (هربرت) الواسع ، وأوضح لكم بعض الشيء من آرائه فى علم التربية ، على ما فيه من غموض أحياناً ، وتعقيد مستمر؛ وبالإجمال أقول : إنى أريد أن أنقل لكم هذا التيار المتدفق المشوب بالكدورة، بيد أنى أخشى أن أضعف من قوته باختصارى إياه ، وأن أضيع لدى الشرح ضخامة أفكاره وبعد غورها » .

هذا قول المسيو (كومبيرى) وما أدراكم من هو !هو فحل من فحول التربية العصرية ، وله فيها القدح المعلى .

ومن هنا تعلمون مبلغ تهيبى تناول هذا الموضوع الخطير ، ومقدار خوفى من الحط من قدر هذا الفيلسوف الكبير والمربى العظيم ، بتصدرى لنقل بعض أفكاره إلى اللغة العربية .

نظرة عامة

أسس هربرت مذهبه فى التربية على التجارب ونبذ الأوهام والخيالات المستنبطة من علوم ماوراء الطبيعة التى كانت منتشرة فى أيامه، ثم حمل على زعمائها الحملات العنيفة ، قائلاً لهم بلسان الشاعر العربى « إن

الأمانى والأحلام تضليل »؛ لذلك جاء مذهبه مذهب حقائق واقعية ؛ وأشهر مميزات هذا المذهب ثلاثة مبادئ :

١ — أنه يرمى إلى تربية الإنسان تربية تهذيبية صرفة ، وينادى بأن التعليم وحده كفيل بذلك ، وأن الغاية القصوى من التعليم إنما هى اكتساب الفضائل والتحلى بمكارم الأخلاق .

٢ — دعوة الناس كافة ـ أينما وجدوا ـ إلى التربية ، بغير نظر إلى جنس أو دين .

٣ — جعل التربية ديمقراطية مؤسسة على المبادىء الجمهورية وهى: (الحرية — الإخاء — المساواة) التى تربى الأطفال على حسن معاشرة الفلاحين والعمال والصناع وغيرهم من عامة الناس، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وبمناسبة معاشرة الفلاحين — والشىء بالشىء يذكر — أنقل إلى حضراتكم رأى (إدجار كينيت) الفيلسوف الفرنسى الذى عاش مع فلاحى قريته فى صغره ، وخالطهم مخالطة تامة ، قال : « إن معاشرة هؤلاء الناس قد أكسبتنى نفساً وديعة حرة محبوبة لدى الجميع »

وإنى أرى من المفيد قبل الكلام على فلسفة هربرت ومذهبه فى التربية ، أن أذكر شيئاً عن تاريخ حياته :

حياته

ولد هربرت فى مدينة (إلدمبورج) فى ٤ مايو سنة ١٧٧٦ ، ودرس دراسته الأولى بمدرسة تلك المدينة التى كان يديرها جده ؛ ولاعتلال

فى صحته ـ سببه أنه سقط مرة وهو طفل فى ماء فى درجة الغليان ـ لم يدخل المدرسة إلا فى الثالثة عشرة من عمره ؛ وأتم دراسته بها فى سن العشرين ،وعند إتمام دراسته كلف إلقاء محاضرة فى موضوع خطير هو (أسباب رقى الفضيلة فى الأمم وأسباب انحطاطها)؛ فكان لهذه المحاضرة صدى تجاوبته أنحاء البلاد . بعد ذلك دخل كلية (يينا) ، وكانت من أكبر كليات ألمانيا وأزهرها فى العلوم الفلسفية ؛ فلبث بها ثلاث سنوات تلقى فى غضونها الفلسفة عن الأستاذ (فِشْت) ، وألف وهو طالب بهذه الكلية كتاباً حاز موضوعه استحسان الجميع ، وهو (واجبات الحكومة إزاء تربية الرعية) .

وبعد خروجه من هذه الجامعة اتخذ التعليم حرفة له ؛ إذ دعاه حاكم مدينة (انترلكن) من أعمال سويسرا لتأديب أولاده ، فلبى دعوته ومكث يربى أولاده مدة ثلاث سنوات ؛ وكان يقدم له تقريرين فى كل شهر عن حال أولاده ، ولم تعثر الحكومة الألمانية فيما بعد إلا على خمسة منها نشرتها الجرائد ، وكلها تدل على شدة مراقبة هذا الشاب تلاميذه ؛ ودراسة أخلاقهم دراسة علمية ؛ وتدل على دقة ملاحظاته ورجحان عقله فى تربية النابتة ، كما أنها كانت برهاناً ساطعاً على إخلاصه فى العمل الذى وكل إليه لأول مرة . وقد تعرف هربرت فى غضون هذه المدة بمدرس سويسرى فى المدارس الابتدائية يدعى (بستالوتزى) ، كان له أكبر تأثير فى عقل هربرت ؛ ولو أن الفرق بينهما شاسع كالفرق بين كلام النائم المتحمس فى رؤياه تارة ، المتخبط فى أفكاره تارة أخرى ، وبين رزانة المفكر

اليقظ وإحكام تصور الفيلسوف الدقيق؛ ذلك لأن (بستالوتزى) وُصف بأن قلبه أكبر من رأسه ، يعنون بذلك أن شعوره كان أكبر من عقله ، ومع هذا البون العظيم بينهما لم يأنف هربرت من الأخذ عنه والإقرار بفضله حيث قال :

« إن فكرة إدخال المشاهدة فى التعليم، بل جعلها أساساً له ، لهى فكرة سامية جادت بها قريحة (بستالوتزى) ، غير أنه قصرها على التعليم الابتدائى ، وأنا أريد أن ينتظم تطبيقها جميع درجات التعليم »

وقال فى موضع آخر : « إن روح طريقة بستالوتزى فى التعليم ، هي اقتناعه بأن الغرض منه إنما هو تكوين فكر الطالب أو بناؤه ـ كما يقول ـ بواسطة تجارب محكمة واضحة »

أقول : وهذه الفكرة بعينها هى خلاصة مذهب هربرت ، وهناك مبادىء أخرى تتفق فيها آراء الرجلين، غير أن ما كان من آراء بستالوتزى مشتتاً مفرقاً مشوباً غالباً بالحدس والتخمين أضحى ـ بمهارة هربرت وبفضل علمه الواسع ـ مذهباً علمياً عظيما. وتاريخ علم التربية يشهد على نفسه بأنه لم يصبح فناً مستقلا بين العلوم الأخرى إلا فى أيام هربرت وبفضله .

رجع هربرت من سويسرا سنة ١٨٠٠ ودخل جامعة (بريم) ونبغ فى العلوم الرياضية على الخصوص ودرّسها، ثم ذهب بعد ذلك إلى (جوتنج) ولبث فيها من سنة ١٨٠٢ إلى سنة ١٨٠٩ ، حتى جاز امتحان الدكتوراه الذى على أثر نجاحه فيه عين مدرساً بالجامعة نفسها.

من هـذا العهد أخـذ هربرت يكتب فى التربية وينشر آراءه وأفكاره فيها ، حتى عمت أنحاء البلاد الألمانية التى كانت مشتبكة وقتئذ فى حروب هائلة . وبينما كان التاريخ يسجل عليها الخيبة فى ساحة القتال، كان هربرت وأمثاله يعملون على مكاتبهم تحت قصف المدافع ودوى القنابل ، آخذين بثأر بلادهم فى ساحات الفكر وفى ميادين العلم ؛ فألفوا الكتب الجديدة فى آداب اللغة والتاريخ والفلسفة والتربية؛ ولعمرى إن هـذا كان مبـدأ انتصارهم على الفرنسيين فى الحرب السبعينية .

قام هربرت ـ على صغر سنه ـ يحمل على طرق التعليم التى كانت إذ ذاك، وطعن فلسفة ذلك العصر ـ التى كانت مخيمة عـلى العقول بأوهامها وأباطيلها ـ طعنات أصابت فؤادها ... عاب طريقة (فشت) الذى أخذ عنه فى كلية (يينا) ، وشهر بمذهب (كانت) ـ قطب الفلاسفة فى ذلك الوقت ـ أيما تشهير ؛ ومن الغريب أن هربرت بعد سبع سنوات من هذا التاريخ خلف (كانت) فى كلية (كونجسبرغ) أثر وفاته ... خلفه فيها لا لأنه ينسج على منواله ، بل لينقض أفكاره ويحاربها ؛ ولم يخف هربرت فرحه بالحصول على هذا المركز السامى ، إذ قال لتلاميذه فى أول درس ألقاه عليهم : « إنى لسعيد بأن أخلف أكبر فيلسوف فى العالم فى دروسه ، ولست أخفى عنكم أنى طالما طمحت نفسى إلى هذا المركز الكبير ، وطمعت فى الحصول عليه منذ كنت شاباً أدرس فلسفة ذلك الحكيم الكبير ؛ ذلك السلف الصالح الذى لن يقلل من احترامى له وإعجابى به أنى أخالفه فى الرأى والمذهب » .

مكث هربرت مدرساً بهذه الكلية نحو عشرين سنة ، أعنى إلى سنة ١٨٣٣ ، كان فى أثنائها نبراساً تنبعث منه الأفكار الحديثة والآراء السديدة . وفى سنة ١٨٣١ أتيحت له فرصة ثمينة لو أن الحظ واتاه فيها لكان أسعد حالا وأرفع مقاماً ؛ تلك الفرصة هى خلو وظيفة مدرس بمدينة برلين بسبب وفاة العالم (هيجل) ، وكان هربرت أول المرشحين لها ، ولكن حال دون نيله إياها جمود أهالى برلين ، فقد كانوا فى ذلك العهد من أكبر المحافظين ، فلم يرق فى نظرهم تعيين هربرت ، لما اشتهر به من جدة الأفكار وحب التدرج السريع . وأخيراً انتقل إلى كلية (جوتنج) ، وبقى يعلم فيها حتى مات .

***

يتساءل الناس : كيف تكوّن هربرت ونما عقله إلى هذا الحد فى هذه السن الصغيرة ؟ وقد كان فى سن الثالثة والعشرين مربياً محنكا وفيلسوفاً حكيماً أحاط بالفلسفة القديمة : فلسفة أفلاطون وشيشرون ، كما أحاط بالفلسفة الحديثة ؟ ولاشك فى أن استعداده الفطرى ومواهبه الخلقية كان لها دخل كبير فى ذلك النبوغ ، ولو أن هربرت نفسه لايقول مطلقاً بالاستعداد الفطرى ، بل يقول : «إن عقل الانسان كله مكتسب بالتربية والتعليم » ، ولاشك فى أن هربرت مخطىء فى هذه النقطة ، إذ أن وجوده بهذه المقدرة وفى هذه السن الصغيرة برهان على خطئه فيها .

ومما يسترعى النظر ويدهش الفكر فى أمر هذا الشاب ، استعداده التام للعلوم على اختلاف أنواعها ودرجاتها ؛ فقد كان مبرزاً فى الرياضيات ،

والطبيعيات ، مغرماً بآداب اللغة ، شغوفاً بالفنون الجميلة ؛ وكان يقول: «الرياضيات والشعر منبعا التربية الصحيحة»، وكان مولعاً بالموسيقى حتى أتقن الضرب على السنطير والكمان بنوعيهما، كما أجاد العزف على البيان ؛ وله مؤلف كبير فى فن التلحين، وكان على حبه كل جديد شغوفاً بالآثار القديمة وبالإجمال يقال إنه كان مستعداً لكل شيء، حتى لقد يخيل للإنسان أنه استمد من استعداده الشخصي أصول فلسفته التى تقول بأن سر نجاح التربية العقلية إنما هو فى تنويع العلوم التى تلقن النشء.

ومن العوامل التى ساعدت هربرت على نبوغه هذا النبوغ ، أمه العاقلة التى اهتمت بتربيته اهتماماً زائداً ، لما توسمته فيه من نبوغ كامن منذ نعومة أظفاره ؛ وكأنه أجابها على هذا التفرس بلسان البارودى رحمه الله ، إذ قال:

وفيت بما ظن الكرام فراسة   بأمرى ومثلى بالوفاء جدير

ما قولكم فى هذه الأم التى لازمت ولدها ملازمة الظل للعود أيام دراسته ، متتبعة خطاه من مدينة إلى مدينة، ومن مدرسة إلى مدرسة ، باذلة جهدها فى تعريفه بكبار العلماء والمدرسين ؟ وما كان هربرت لينكر حقوق هذه الأم الحنون ويجحد فضلها ، بل كان متفانياً فى حبها .

حدث أن مرض هربرت مرضاً شديداً أيام مقامه بسويسرا ، فتاقت نفسه للسفر إلى بلاده ليرى أمه ، لكنه لثقل المرض عليه لم يقو على احتمال السفر، فكتب إلى أحد أصدقائه يقول :

« إن أمى العزيزة هى صاحبة الفضل على مدى الدهر، ولا أنسى

ما لاقت من الصعاب فى سبيل تربيتى ما حييت . ما أسعدنى لو وفقت لمكافأتها وقدرت على الترفيه عنها ، وتخفيف مصاعب الحياة وويلات الزمان عن كاهلها ». وكأنى به يقول:

سيبقى لها فى مضمر القلب والحشا   سريرة حب يوم تبلى السرائر

***

وأما أبوه فكان مستشاراً بمدينة (إلدنبرغ) ، غير أنه كان رجلا جامداً بارد القلب، فلم يكن له أدنى تأثير فى تربية ولده .

وظل هربرت حياته كلها رقيق الحال، حتى إنه وهو مدرس كبير فى كلية (جوتنج) ، كان يضطر لإعطاء دروس خصوصية يستعين بها على المعيشة فى هذه المدينة ؛ فكان من العسير عليه جداً أن يوفق بين أبواب ميزانيته الضئيلة وبين ما كانت تطلب الحكومة منه ، كضريبة الحرب وقتئذ ، ومقدارها ١٥٠٠ فرنك .

وفى سنة ١٨٠٠ أصيب بضعف عام فى جسمه من انكبابه على العمل ، حتى إنه كان يظن فى بدء كل شتاء سنة أنه آخر شتاء له فى حياته، ومع ذلك فقد عاش بعدها إحدى وأربعين سنة ، وهذا استثناء آخر لقاعدة «العقل السليم فى الجسم السليم».

وأخص ما كان يحزن هربرت إنما هو بطء انتشار أفكاره ومعارضة الناس إياها ، وخاصة كبار المدرسين الذين درجوا على طرق عرفوها وألفوها ، ولم يرق فى أعينهم إدخال أى تغيير عليها ؛ لذلك كان كثيراً ما

يقول « إنى أحارب الريح والمد والجزر . . . متى يارب تنتشر آرائى هذه فى البلاد ، ويقيم الناس لها وزنا ؟ »

لكن هربرت لم ييأس مطلقاً ،ولم يثنه عن عزمه لحظة واحدة ماكان يلاقى من الصعاب فى نشر مذهبه . والفضل فى ثباته على رأيه واستخفافه بتلك الصعاب ، بل فى صيرورة حياته سهلة لديه : سعيدة فى عينيه ، يرجع إلى اقترانه فى سنة ١٨١١ بفتاة ذكيه الفؤاد ، عرفت بنباهتها كيف تشاركه أفكاره وتخفف عنه آلامه ؛ وما ذاك إلا لأن اقترانهما كان مبنياً على الميل الحقيقى والود الخالص من الشوائب التى كثيراً ماتصاحب الزواج .

وقبل أن أقص عليكم سبب اقترانه بهذه الفتاة أقول : إن هربرت كان — على قصر قامته — قوياً ، ذا عزيمة فى مشيته ،عيناه زوقاوان فتانتان تتحركان بسرعة مدهشة.

قصة اقترانه

من عادات الإفرنج المستحسنة أنهم فى أوقات فراغهم يشتغلون بحل ألغاز سهلة ،كأن يطلب تعيين اسم عَلَم يتألف من مقطعين مثلا ، لكل مقطع منهما معنى خاص ،فبينما كان هربرت ذات ليلة فى مجتمع ، ألقى أحد الحاضرين السؤال الآتى : ما اسم علم مكون من مقطعين : الأول معناه السيد ، والثانى معناه زينة الوجه أو اللحيه ؟ فقامت آنسة انجليزية تربت فى ألمانيا ، تدعى (مس دريك) وسبقت الحاضرين فى سرعة الخاطر ، وقالت بصوت ملؤه اليقين :

« إن اسم العَلَم الذى تطلبون ، لهو زينة الجامعة » ، وكان هربرت مدرساً بالجامعة ، واسمه مكون من مقطعين هما بالألمانية : «هر» بمعنى السيد ، و « بارت » بمعنى الذقن ، فابتسم ضاحكا ورمقها بنظرات تشف عن شكره إياها وإعجابه بذكائها .

وما هى إلا أيام قلائل حتى خطبها وتزوج منها ، ودام هذا الاقتران السعيد ثلاثين عاماً دون أن تمر فيه سحابة تكدر صفو عيشهما ، حتى جاء موت هربرت سنة ١٨٤١ فاصماً عرى هذه الشركة السعيدة وذاك الاقتران القلبي ؛ حيث مات فجأة متأثراً بالسكتة القلبية ، حينما كان يلقى درسه بالجامعة .

رأى هربرت فى النفس

يقول هربرت : «إن الروح والعقل فراغ مبهم من الجسم، تدخل فيه على التوالى صور الأشياء الخارجية عن طريق الحواس ، ثم تنقلب بطريقة مجهولة إلى أفكار قائمة بذاتها عالمة بوجودها ؛ ومجموع هذه الأفكار التى منشؤها الدنيا الخارجية يكوّن مايسمى الروح أو العقل»

فكأن النفس فى مذهبه ليست إلا مايسميه فلاسفة الإسلام بالعلم الانفعالى، وهربرت يخالف فى ذلك - على خط مستقيم - مذهب (كانت وفشت) اللذين كانا يقولان بأن هذه الدنيا وهذه الأزمنة والأمكنة إنما هى اعتبارات خلقتها النفس وصورتها بقوتها المفكرة ، فهما يقولان بأن كل شيء فى هذه الدنيا منشؤه باطن النفس ؛ وهربرت ينادى بأن كل شىء آت من الخارج، وأن النفس منشؤها الدنيا الظاهرية فقط .

والأساس الذى بنى عليه هربرت مذهبه هذا، هو أنه جرد النفس مما يسمى بقوى النفس الفطرية ، وأنكر عليها أن تملك فى بادىء أمرها شيئاً ما ، من معلومات فطرية أو وراثية ، فهو يقول :

«إن القائلين بقوى النفس واستعدادها الفطرى لعباد أصنام يجب أن يحاربوا فى معبوداتهم »، فالنفس فى نظر هربرت ليست إلا قاعاً صفصفاً فى أول أمرها ، ولا توجد وتنمو إلا بفضل المؤثرات الخارجية والمشاهدات الحسية.

وكما أن إقليدس أمكنه أن يخترع الهندسة بتمامها بواسطة البديهيات

وبعض القضايا المسلم بها، كذلك كان هربرت يدعى أن فى استطاعته تكوين الفكر وإيجاد الشعور والإرادة والذكاء بواسطة المحسوسات فحسب ، وبكيفية ترتيبها وطريق عرضها على الطفل.

والأفكار التى تتولد فى النفس من انعكاس المحسوسات ، تبقى فيها حتى تدخل عليها أفكار جديدة، فإما أن يجذب القديم الجديد ـ بناءً على ائتلاف بينهما ـ فيتعاشقان ويبقيان معاً ، وإما تنافرا وتشاجرا وانبنى على ذلك تنازع أشبه مايكون بتنازع البقاء فى الكائنات الحية ، فيفضى حتما إلى طرد البعض وبقاء الأصلح فى النفس .

غير أن الأفكار المطرودة لاتزول من النفس ، بل تسقط فى مخزن لها وتصير إذ ذاك غير شاعرة بوجودها لانتقالها من عالم النور إلى عالم الظلمة، وتبقى هكذا كامنة بين طوايا النفس على شكل ميول ، تحاول دائماً الرجوع إلى النور ، وتنجح فى ذلك متى ساعدتها الظروف .

فمثل النفس كمثل مسرح تمثيل يدخل إليه الممثلون متعاقبين، ويبقى فيه الممثل الأول حتى يدخل عليه الثانى، فإما أن يهاجمه ويلجئه إلى الخروج منه والنزول إلى المختبأ ، وإما أن يقترب منه ويتجاذب أطراف الحديث معه إذا جمعتهما رابطة من الروابط ؛ فهكذا الأفكار فى النفس: فى حالة دخول وخروج متعاقبين ؛ والنفس صامتة ترى كل ذلك وليس لديها أى اعتراض عليه ، كالملك المتوانى المتراخى الذى يرى الرعية فى هرج ومرج ، وهو مع ذلك لايبدى حراكا.

وبهذا الفرض أمكن هربرت أن يفسر ظواهر النفس من شعور

وإرادة وخيال الخ ، فيقول مثلا فى تفسير ظاهرة الفرح والألم: « إن الفرح ينشأ عن اتحاد فكرين متلائمين فى النفس ، وإن الألم يأتى من النزاع بين فكرين متضادين ويكون مناسباً لقوة النفور بينهما ».

ولايزال رأى هربرت فى تفسير الفرح والألم هو الرأى المتبع إلى الآن فى فلسفة النفس عند الألمان .

ويقول فى تفسير الرغبة : «إنها محاولة خروج فكرة من مختبأ النفس المظلم ، فإذا وجدت من الأفكار الموجودة فى النفس مايساعدها على الخروج من ظلمتها والنهوض من كمونها ودخولها إلى عالم النور ، نشأت عن ذلك الإرادة، خصوصاً إذا أضيف إلى ذلك الاعتقاد بأن الرغبة ممكنة الحدوث».

ترون من هذا الشرح المختصر أن فلسفة هربرت فى النفس ليست مبنية على حقائق علمية وتجارب ذاتية ، بل هى فرضية محضة اخترعها فكره الغواص وبناها خياله الواسع .

ولعلماء وظائف الأعضاء أن يعترضوا عليه بأنه أهمل الكلام على وظائف المخ إلا قليلا ؛ إذ من المعلوم الآن أن الأفكار ناشئة عن تحرك جزئيات المخ ، وأن الإنسان حينما يشتغل بعقله تكون الكتلة المخية فى حالة ارتجاج وحركة . وللعلماء الروحانيين أن يعترضوا عليه فى أنه قلل من شأن النفس واختزلها إلى حد العدم تقريباً ؛ وكيف يعقل أن الأفكار تدخل الواحدة بعد الأخرى عن طريق الحواس، وبعوامل المناسبات بينها دون أن يكون هناك من يستقبلها ويرتبها ؟

والبراهين عديدة على أن الأفكار لا تدخل فى النفس وتخرج منها

بعوامل المناسبات والروابط بينها دون أن يكون للنفس أدنى دخل فيها.

وإني لأذكر واحداً منها ، لأن كلاً منا يمكنه التحقق من صحته:

احصر فكرك في أية مسألة من المسائل ، واجتهد ألا تفكر في شيء سواها ، فما تشعر أثناء اشتغالك بها إلا وقد خرجت فكرة ليس بينها وبين الموضوع الأول أقل ارتباط ، كأن ترى صورة صاحب لم تره منذ سنوات مضت ، أو منظر قرية رأيتها من زمن بعيد ؛ ألم يكن هذا وحده برهاناً كافياً على وجود قوة باطنية تأتي أحياناً وتشوش ترتيب الأفكار ؟ لا بد أن ظهور هذه الفكرة الفجائية مسبب عن تفتح تلفيف من تلافيف المخ كانت تكمن فيه صورة الصاحب أو القرية ؛ وهذه القوة الباطنية التي تشوش ترتيب الأفكار متى أرادت — كما تقدم — هي التي توجد المناسبات بينها أيضاً ، فلا يعقل أن مناظر خيال الظل وشواخص (أراجوز) تظهر أمامنا بهذا الترتيب لوجود الرابطة بينها فقط ، بل لأن هناك يداً خفية تعمل من وراء ستار ، هي التي توجد المناسبات بينها وتبرزها على الترتيب المعهود ؛ هذه اليد الخفية هي الروح أو العقل.

وإذا رأيت سحابة على شكل قلعة فليس ذاك لأنها كانت على شكل جبل قبل ذلك فآل الشكل السابق إلى الشكل اللاحق لوجود المناسبة بينهما فقط ، وإنما هي الريح لعبت بها فأعطتها الصورتين المتقدمتين على التعاقب .

والمتفق عليه الآن عند علماء الافرنج فيما يتعلق بالروح ، أن الطبيعة منحت النفس قوى كامنة فيها بالفطرة أو بالوراثة ، وتلك القوى قابلة للنمو بواسطة الحواس .

وليس من الغريب أن يكون هذا الرأى الأخير هو الذى اتفق عليه فلاسفة الإسلام ؛ كابن رشد وابن سينا والفارابى والغزالى ... الخ

ولا أريد أن أشرح لكم آراءهم المشبعة وأفكارهم السديدة فى هذا الموضوع الخطير، فكلكم بها خبير، غير أنى أذكر حضراتكم ببعض أبيات للرئيس ابن سينا فى وصف النفس هى :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة ناظر وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما كرهت فراقك وهى ذات توجع
أنفت وما أنست فلما واصلت ألفت مجاورة الخراب البلقع
حتى إذا قرب المسير إلى الحمى ودنا الرحيل إلى الفضاء الأرفع
وغدت مفارقة لكل مخلف عنها حليف الترب غير مشيع
هجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت ما ليس يدرك بالعيون الهجع
وغدت تغرد فوق ذروة شاهق والعلم يرفع كل من لم يرفع

هذا رأى فلاسفة الاسلام فى النفس ، وذاك رأى هربرت فيها، والله تعالى يقول : «ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى ، وماأوتيتم من العلم إلا قليلا» ؛فيكون كلامهم فى النفس من قبيل الفروض، غير أن الفرض يشرف بشرف نتائجه.

فلننظر الآن إلى بعض النتائج (البيداجوجية) التى بناها هربرت على فلسفته المتقدمة :

بما أن الأرواح فى أصلها مجردة من العلم والاستعداد الموروث، فتكون كلها طبعاً متشابهة فى الأفراد بادئ الأمر ؛ ويمكن المربى

إذاً أن ينقش في هذه الصحف البيضاء ما شاء أن ينقش ، فيمكن أن يصير أي فرد من الأفراد نابغة أو عبقرياً متى أراد؛ وعلى ذلك يكون مستقبل الأفراد والأمم معقوداً بلواء التربية فقط .

غير أن هربرت لم يكن ليذهب إلى هذا الحد، فيعتقد أن هذا في الإمكان دائماً، بل كان يعترف بأن هناك أفراداً لا تنجح فيهم التربية مطلقاً مهما كانت مهارة المعلم ، وأن كبار الرجال وصلوا إلى ما وصلوا إليه بأنفسهم، وأن متوسط الذكاء في الناس يبقى كذلك طول حياته رغم مجهودات أحذق المربين معه. وكان هربرت يفسر ذلك بأن المادة هي العدو الألد للتربية، فهي التي تعطلها إن كانت فاسدة، وتسهلها إن كانت صالحة؛ لأن هربرت وأن أنكر الوراثة العلمية والاستعداد الفطري ، إلا أنه لا ينكر الوراثة المادية والاختلاف في الاستعداد المادي.

ومع ذلك، فهربرت يعطي للتربية نصيباً وافراً من الأهمية، ويعتقد اعتقاداً راسخاً أن مستقبل الأمم ومدار حياتها متوقف عليها وحدها، فهو مؤمن بالتربية، متدين بدينها، إذ كان يقول:

«لولا أني آمل خيراً في النابتة وأعتقد اعتقاداً صحيحاً أنهم سيأتون يوماً ما من الأعمال ما لم يكن يخطر على قلب أحد لكنت أقاوم تلك القشعريرة القارسة التي تسري في جسمي وترج أعصابي حينما يمر بفكري أن الانسان ربما يبقى كما هو الآن لا يرتقي في معارج التقدم ولا يتسنم ذرا الكمال» .

مشاهدات هربرت

النفس فى نظر هربرت مجردة من كل قوة أصلية،فذهبه لا يقول بقوى النفس التى اعتبرها قدماء علماء التربية منفصلة ، مستقل بعضها عن بعض تمام الاستقلال وهى :الذاكرة والعاقلة والمخيلة...الخ،وبنوا على ذلك طرقاً عقيمة فى التعليم إذ كانوا يعطون التلاميذ محفوظات طويلة لا قيمة لها فى ذاتها بقصد تنمية قوة الذاكرة فقط ، وكانوا يعلمون الحساب لا للاستفادة منه فى ذاته بل لتقوية القوة العاقلة ، وكانوا فوق ذلك يعتقدون أن الإكثار من حفظ نوع واحد من المعلومات يقوى الذاكرة فى العلوم الأخرى ، وأن الإفراط فى تعليم الحساب وحده مثلا يقوى العقل فى جميع أنواع العلوم الأخرى .

وقف هربرت إزاء هذه النقطة المهمة فى التربية موقفاً آخر وقال :

« إن المعلومات التى يجب أن تلقن النشء لابد أن تكون قيمة فى ذاتها من غير نظر إلى ماينجم عنها من تقوية هذه القوة الموهومة»

والذى قوى رأى هربرت فى هذا الموضوع البراهين التى استنبطها من التجارب الآتية : —

(١) شاهد هربرت أن بعض التلاميذ لهم قوة ذاكرة عجيبة فى العلوم التاريخية،حتى إنهم ليذكرون أصغر الحوادث مقرونة بتاريخ حدوثها

وقد مضت على درسها السنون ، ومع ذلك فقد كانوا ضعاف الذاكرة فى العلوم الطبيعية لا يكادون يذكرون منها ماقرءوه من زمن قصير .

(٢) شاهد هربرت أيضاً أن لبعض التلاميذ ذاكرة فى المنزل، وليس لديهم أدنى ذاكرة فى المدرسة .

(٣) شاهد هربرت تلاميذ فى سن الثانية عشرة يعقلون العلوم الرياضية تماماً ويبرهنون على كفاءة نادرة فيها، ثم تركوا بعد ذلك دراسة هذه العلوم للاشتغال بالعلوم الفلسفية التى تمرن العقل وتقويه أيضاً حتى نبغوا فيها ، ثم شاهد أنهم فى سن العشرين لا يقوون على فهم الرياضة مطلقاً وليس لهم أى قدرة على تعقلها .

أليست المشاهدة الأخيرة وحدها برهاناً كافياً على أن لكل نوع من العلوم عقلا خاصاً به؟ وإلا فكيف يعقل أن النابغ فى العلوم الفلسفية والاجتماعيـة ، والذى يشتغل بسن قوانين محـكمة يسير النـاس على مقتضاها ، يعجز عن حل مسئلة حسابية بسيطة يقوى على حلها تلميذ صغير مشتغل بعلم الحساب ؟

ما ذاك إلا لأن عقل العلوم الفلسفية والاجتماعية غير عقل العلوم الرياضية أو ، على الأقل ؛ لأن العلوم الأولى تقوى العقل فى اتجاه ، والثانية تقويه فى اتجاه آخر .

استنتج هربرت من هذا أن تنمية قوى النفس ـ على نحو ما كان يفعل معاصروه ـ مسألة وهمية لا حقيقة لها ؛ وأن التربية الحقة إنما هى إمداد

العقل بمعلومات متينة مفيدة فى ذاتها،وفى كل نوع من أنواع العلوم . وقد قال أحد ظرفاء الانجليز فى هذا المعنى : «إذا أردت أن تقوى المعدة وقوتها الهاضمة ، فلا تأكل صمغاً مرناً بل كل بفتيكا » ، يريد بهذا أن مادة الصمغ المرن ليست مغذية كالبفتيك .

كذلك الحال فى التعليم؛ فإذا أردنا أن نقوى العقول ونربيها تربية حقيقية فلا ينبغى أن نفعمها بتمرينات عديمة الجدوى ، وإنما بمعلومات نافعة منقفة للعقول مغـذية للنفوس .

وجاء علم التشريح مؤيداً آراء هربرت فى هذا الموضوع إذ قال الطبيب الفرنسى الدكتور (موسى دى فلورى) :

« كانوا يصورون لنا قوى النفس كأشخاص حقيقيين: كسيدات جالسات فى عقولنا ، هذه السيدة ذاكرة ، وهذه السيدة عاقلة ، وتلك السيدة مخيلة ، وفى وسط أولاء السيدات تجلس النفس على عرشها الضخم ، وتصدر أوامرها إليهن ، بواسطة رئيسة مجلس وزرائها (دولة السيدة إرادة)

تلك أيام خلت وتغيرت هذه الحكومة الباطنية واستبدل بها سلطة الجزئيات المخية ، فسارت حكومة العقل سيراً حثيثاً إلى الأمام ، موازية هيئة حكومة الأفراد ؛ فبعـد أن كانت السلطة للأمراء والنبلاء انتقلت إلى يد رجل واحد هو الملك؛ ثم انتقلت منه إلى سلطة الأفراد أى الأمة .

يثبت علم التشريح الآن أن فى المخ مراكز عديدة للذاكرة متباعد بعضها عن بعض فمثلا هناك: ذاكرة للأرقام، وثانية للكلمات، وثالثة للأفكار، ورابعة للأصوات، وخامسة للألوان وهكذا.

كما أنه يثبت أن لدينا عقولا كثيرة: هذا للرياضيات، وهذا للفلسفة، وذلك للموسيقى وهكذا، وعلى هذا درج هربرت.

فإذا أريد تنمية الذاكرة أو العاقلة مثلاً، فلا بد من تلقينها شيئاً من كل نوع من أنواع المعلومات، ولا بد أن يلاحظ أن المبالغة فى العناية بتنمية قوة من القوى فى نوع واحد من المعلومات، يضعفها فى الأنواع الأخرى.

هل أتاكم حديث ذلك المربى الفرنسى الذى كان يشكو ضعف ذاكرته، ففكر فى تقويتها، فعمد إلى دليل السكة الحديدية وحفظ عن ظهر قلب أسماء المحطات ومواعيد قيام القطارات: فكانت النتيجة أنه استظهر مجلداً كبيراً دون أن يكسبه ذلك مرانة فى الذاكرة؛ فجاء الأمر بعكس ما كان ينتظر، وضعفت قوة ذاكرته فى المعلومات الأخرى.

ولذلك ترى حفاظ اللغة من أضعف الناس ذاكرة فيما عدا اللغة؛ وأن الرياضيين المتفرغين للرياضة ليسوا أذكياء فى العلوم الأخرى.

فالذى يجب اتباعه فى تقوية الذاكرة مثلاً، هو أن يحفظ الإنسان من كل علم طرفاً قليلة شائقة وفى ذات الوقت قيمة.

أثر الافكار القديمة

فى كيفية ادراك الافكار الجديدة

وهذه هى النتيجة الثالثة ، وهى بلاشك أعم نظريات هربرت ، وبها امتاز مذهبه من باقى المذاهب ؛ ويمكننا أن نسميها تأثير الأفكار القديمة فى كيفية إدراك الأفكار الجديدة .

ولفهم هذه النظرية رأيت أن أقدم بين يدى الموضوع مثلين :

الأول — إذا نظرنا إلى وردة مثلا فى حديقة ما، فإن العين تنقل إلى المخ شكلها ولونها الزاهى، وينقل إليه الأنف رائحتها العطرية ، فيدركها المخ حالاً على حقيقتها ، غير أن ماضى الفكر لايلبث أن يتداخل فى الأمر ويذكرنا بأشياء عديدة لها ارتباط بالموضوع، فيفسد عمل الحواس الحاضر ويمسخه فتدرك الوردة ثانية إدراكاً مخالفاً للإدراك الأول .

فإذا كان الناظر عالماً بالنبات مثلا ، فإن الوردة تفقد من رونقها الأول فى نظره عند ما يوازنها بالأنواع العديدة التى من فصيلتها ، والتى أعجب برؤيتها يوم كذا . وإذا كان الناظر فيلسوفاً متشائماً ناقماً على هذه الحياة متبرماً بها ، فإنه لا يلبث بعد النظرة الأولى ، أن يصبغ ألوان الوردة الزاهية الضاحكة باللون الأسود ، حينما يفكر أن ثمة فتيات جميلات ، باسمات للحياة والحياة باسمة لهن ، لايعمرن مثل الورد طويلا حتى تقصف غصون المنن شبابهن النضر .

الثانى — إذا عرضنا عظم العضد — مثلاً — على رجل من العامة ،

فلا يرى فيه إلا قطعة عظمية منتهية بعظمتين مستديرتين متساويتين، فاذا عرضناه بعد ذلك على عالم من علماء التشريح ، سرعان ما يلحظ فيه تلك النتوءات التي تربط العظام بالعضلات، والمجارى التي تجرى فيها الشرايين (لأن الله سبحانه وتعالى وضعها من كرمه بجانب العظام ، حتى تكون فى مأمن من الأخطار) .

ينتج عن هـذا : أن إدراكنا الأشياء لا يخلو من الشوائب أبداً ، وأننـا لا ندرك الأشياء على حقائقهـا مجردة من كل خلط ومزج، إذ للأفـكار القديمة تأثير كبير فى إدراك الأفكار الجديدة، فلا يتأتى أن يدرك شخصان شيئاً واحداً بكيفية واحدة ؛ ذلك لأنهما وإن نظراه بعين واحدة ، فإنهما لا يدركانه ببصيرة واحـدة ؛ للتفاوت بينهما فى المعلومات السابقة .

والناس مختلفون فى المعلومات اختلافهم فى الوجود ؛ فـكما أنه لا يوجد اثنان متشابهان فى الخلقة تماماً ؛ كذلك لا يوجد اثنان متساويان فى المعلومات . وكما أن هناك بعض أمراض عضوية تفسد النظر وتريه الأشياء كلها مصبوغة بلون واحد، كذلك يوجد فى العقول البشرية كلها مرض أو خطأ فـكرى أو نوع انـكسار عقلى ، أشبه بالانكسار الضوئى ، يمنعنا رؤية الأشياء فى شكل واحد وبكيفية واحدة .

هذا الخلط الذى يحصل بين إدراك الأشياء الحالية وبين الأفـكار القـديمة ، يتجلى واضحاً فى عقول الأطفال .

فالولد الذى يرى الثلج يتساقط لأول مرة يقول «هذا سكر»، أو «أبو دقيق الأبيض»، والولد الذى يرى قلع المركب لأول مرة يقول «هذه ملاءة سرير»، إذا كان سبق له أن رأى السكر والملاءة.

وبمناسبة سقوط الثلج فى البلاد الباردة، أذكر تأثيره فى نفسى عند رؤيته لأول مرة :

بينما كنت سائراً فى أحد شوارع مدينة فرساى، إذ رأيت الجو قد امتلأ تبناً أبيض ، فنظرت يمنة ويسرة متطلعاً إلى رؤية ذاك الذى عهدته يذرّى أكداس القمح فى بلادنا، فلم أجده ! وسرعان ما تنبهت إلى أن الذى خلته تبناً ، إنما هو الثلج الذى طالما تشوقت لرؤيته يتساقط فى الجو .

وهذا يرينا كيف أن المنظر القديم – الذى رأيته منذ الصغر – قد أثر فى المنظر الحديث وألبسه صورته !

تابع بيداجوجيا

من هذه النظرية الأخيرة يقول هربرت: إن الأفكار القديمة فى النفس هى بمثابة حرس لها يعارض دخول الأفكار الجديدة فيها إذا لم يكن بينهما رابطة، أو - على الأقل - لا ترحب بها إذا دخلت عليها، بخلاف الأفكار الجديدة التى تشابه القديمة من بعض الوجوه، فإنها تنجذب بها، و « شبيه الشيء منجذب إليه »

وعلى ذلك يجب على المعلم ألا يعرض على التلاميذ إلا الأشياء التى بينها وبين ما يعرفونه بعض الارتباط ، حتى يسهل دخولها إلى الذهن والتئامها مع القديم ، وبذلك ينمو العقل ويتقوى تدريجاً .

وعلى ذلك يكون من المهم جداً أن يسأل المعلم تلاميذه فى الدرس القديم ؛ ليذكرهم بأهم نقطة قبل أن يبدأ الدرس الجديد ، أما إذا عرض على التلاميذ موضوعاً جديداً بالمرة ، فإنه لا يرتبط بالقديم، بل يبقى وحده كالدخيل منفرداً منعزلا . وتحصيل المعلومات بهذه الطريقة ، يشحن الذهن ولا يقويه ، ويكون مثل تلك المعلومات المتفرقة كمثل كوم من الحجارة مرصوف بعضها فوق بعض ، دون أن يكون بينها أى تماسك .

فإذا جاء الولد المدرسة وجب أن يتخذ المعلم ما عنده من المعلومات أساساً يبنى عليه ، لأن إدخال الجديد الصرف إلى الذهن، فضلا عن كونه لا يرتبط بالقديم ، فإنه يثير النفس بما يحدث فيها من رجة تفضى إلى تحطيم سلسلة المعلومات القديمة ، وينجم عنه وقوف الحركة الفكرية

وضجر وملل يعترى التلاميذ ، فلا يقبلون على العلم برغبة صحيحة.

والترغيب فى العلم ـ عند هربرت ـ والتشويق إلى تحصيله ، أساس التربية الصحيحة ، فهو يقول بمطاردة الملل والكدر من فصول المدرسة ، حتى لاتكون منابع شقاء وعذاب للتلاميذ .

قال المرحوم « قاسم بك أمين » فى كلماته :

« من مرورى فى المدارس والمكاتب ، أحفظ تذكاراً ثابتاً لايزول أبداً ؛ هو الخوف من الضرب ؛ ففى الكتاب ضرب بالعصى على الأرجل أو الكتف أو الرأس أو أى مكان آخر من الجسم ، وفى المدارس بالتيلة المزفتة والفلقة ضرب يبقى أثره مدة أيام . كنت أذهب إلى محل التعليم ! مصحوباً باضطراب فى العقل وخفقان فى القلب وارتعاش فى الجسم ، وبعكس ذلك أرى الآن الأطفال يذهبون إلى المدارس راضين مسرورين ، نتيجة منع الضرب فيها ؛ ودخول الألعاب الرياضية».

وهذا لايتحقق إلا إذا كان المعلم مفيداً لدى تلاميذه .

كان بستالوتزى يقول : « إنى أريد أن يقرأ تلاميذى على صفحة وجهى ؛ من الصباح إلى المساء ؛ أنى أفرح لفرحهم وأحزن لحزنهم» .

وكان هربرت طوال حياته مفيداً فى علومه شائق المحاضرة محبوباً فى كل مدرسة درّس فيها ، حتى إن أولاد حاكم (انترلاكن) لم ينسوا مراسلته بالخطابات الودية حتى آخر لحظة من حياته .

ولهذا يرى هربرت أن التربية المنزلية أهم بكثير من التربية

المدرسية ، وبخاصة إذا كان المربى هو الأم ، لوقوفها على معلومات ولدها ، فتستطيع بذلك أن تبنى عليها بناءً مرتبط الأجزاء .

أما ضرر التربية المدرسية فناتج عن أن المعلم يلقى درساً واحداً وبلغة واحدة ، على تلاميذ متفاوتين فى الأفكار وفى المعلومات السابقة . والواجب عليه ـ بناء على نظرية هربرت المتقدمة ـ أن يخاطب كلا على نسبة معلوماته وعلى قدر عقله ، مثله فى ذلك كمثل الذى يحتم على أشخاص مختلفى البنية ـ منهم الصحيح ومنهم العليل ـ قطع مسافة واحدة فى زمن واحد ، أو التغذى بطعام واحد بمقدار واحد . فالمطلوب من المعلم إزاء تلاميذ الفصل الواحد أن يراعى استعداد كل فرد على حدة ، ويخاطبه بالعبارة التى يفهمها، إذ الغرض من التربية تكوين الفرد، فعلى المعلم معرفة ذلك الفرد ، وفى ذلك يقول أحد ظرفاء الانجليز :

« ليس الغرض من التربية أن تضع الأربعين تلميذاً بما فيهم ابنى (جون) فى هاون بيداجوجى وتسحقهم جميعاً، حتى يستحيلوا كتلة فتيان متماثلة التركيب، ثم تقسمها بعد ذلك على عدد التلاميذ لتحصل على خارج قسمة، هو متوسط التلميذ، غير أن جون ابنى ليس بخارج قسمة، وإنما هو واحد صحيح ينبغى أن تدرسه على حدة، وتعطيه ما يناسب عقله وتطيقه بنيته » .

من هذا ترون ما يجب أن يكون عليه المعلم ومبلغ حرج مركزه .

يريد هربرت أن يكون المعلم فيلسوفاً حازماً عاقلا مفكراً ، جامعاً كثيراً من صفات الأنبياء والمرسلين ، فقد كان يقول :

« ليست التربية صناعة كباقى الصناعات ، بل هى مهمة دينية ،

ورسالة مقدسة ،وإن الذين يأخذون على عاتقهم تربية بنى الإنسان،لابد أن يعترفوا ـ إن كانوا يعقلون قليلا ـ بعجزهم عن القيام بها على وجهها الأكمل ، مهما تكن كفاءتهم فيها».وكأن هربرت قد ألم فى ذلك بمعنى الأثر المشهور « العلماء ورثة الأنبياء ».

ويظهر أن اليابانيين فطنوا إلى ذلك،فجعلوا الأستاذية لقب شرف يعطى أعاظم الرجال ؛ إن صح ماقرأته عن مكاتب الطان ، فقدقال هذا المكاتب:« ذهبت إلى مدينة توكيو لمحادثة القائد الشهير (نودجى) بطل حصن(بورآرثر)،فلم أجده بوزارةالحربية،وقيل لى:إنه ذهب ليؤدى درسه اليوم فى إحدى المدارس الابتدائية . فقلت: هل هو قائد أم مدرس؟ فأجبت :أن جلالة(الميكادو)قدتفضل عليه فمنحه لقب مدرس فى المدارس الابتدائية عقب انتصاره الباهر على الروس .

***

إلى هنا أقف بكم الليلة ،فإنى إذا تتبعت آراءهربرت لاستقصاء مذهبه الشاسع ،استغرق منى ذلك أكثر من مقال ، غيرأنى ـ قبل أن أختم كلامى ـ لابد لى من كلمة فى موضوع العلوم التى يريد هربرت تلقينها النشء.

تقسيم العلوم فى نظر هربرت

يقسم هربرت العلوم إلى كونية واجتماعية، ثم يقسم الكونية إلى حسية وفكرية وجمالية؛ فالنظر إلى النجوم مثلا ومراقبة حركاتها يندرج تحت العلم الحسى، أما التفكر فى هذه الحركات وربط الأسباب بالمسببات فيدخل تحت العلم الفكرى.

أما العلم الجمالى فهو جولان الفكر بعد ذلك فى جمال هذه الروابط وإحكامها وما أودعه الله سبحانه فى المخلوقات، وهذا ما عناه القرآن الشريف فى الآية الكريمة « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ».

ويجعل هربرت لهذا النوع الأخير نصيباً وافراً من الأهمية، ويقول بتعويد الأطفال ـ من صغرهم ـ مشاهدة الجمال بأنواعه (الجمال الطبيعى ـ جمال المصنوعات ـ جمال الأخلاق)، لأن هذا النوع هو منبع اللذات النقية الخالية من كل شائبة، والسعادة الحقيقية التى لا بد للإنسان منها فى هذه الحياة، فمن الناس من لا يرى فى سنابل القمح الذهبية إلا ما يراه الفلاح البسيط من قرب نضجها ودنو حصادها، وما أشبه ذلك من الأمور الملائمة له، بينا يراها الشاعر ولا شىء ينبه فيه العواطف والوجدان ويحرك فيه الخيال مثل هذا المنظر الطبيعى الرائق، يسرح فيه نظره الساعات الطوال دون أن يتطرق إليه الملل أو يتسرب نحوه الضجر.

وإن من أقرب الوسائل إلى تلقين النشء هذا العلم الجمالى، أن

ينسج الأساتذة على منوال تلك السيدة الفاضلة والدة الكاتبة الشهيرة (مدام جورج صاند)؛ قالت هذه الكاتبة :

« كانت والدتى تكشف لى الستار عن عالم الجمال بإشراكى معها فيما تمليه المؤثرات الطبيعية على نفسها مما انطوت عليه من آيات الجمال؛ فمثلا كانت إذا تجلى علينا بعض السحب الجميلة، أو بزغ ضياء الشمس ساطعاً من شاهق الجبال، أو رأينا عيناً يتفجر منها الماء صافياً شفافاً، تناجينى قائلة : انظرى أى بنيتى ! ما أجمل هذا المنظر وما أبهاه ! فما هى إلا أيام حتى بدأت أشعر من نفسى بجمال هاتيك المناظر التى لولا عناية الوالدة بلفت نظرى إليها ما ذقت لها طعماً ».

تلك هى طريقة هذه السيدة الفاضلة؛ وهى كما ترونها على جانب من البساطة ، ولا تكلف الأساتذة إلا أن يتأملوا قليلاً ما يقع تحت حواسهم وينبهوا أفكار تلاميذهم إليه أوقات التنزه معهم .

لست فى حاجة إلى أن أذكر لكم وجوب التدرج مع التلاميذ فى هذه الطريقه على نسبة أسنانهم ومقدار مداركهم ؛ أريد بذلك أنه لا ينبغى للأستاذ أن يحمل عقل الطفل الصغير عبء البحث فى جمال الموجودات والمناظر، التى يحتاج إدراك جمالها إلى نظر عال وفكر واسع، كأن يريه البحر العجاج وأمواجه تتلاطم، لأن هذا قد تضيق عنه دائرة تصوره وينزعج منه خاطره.

يحكى عن (بيير لوتى) الكاتب الفرنسي الشهير أنه قال :

« كنت إبان طفولتى إذا رأيت البحر هالنى منظره ، وارتعدت فرائصى أمام هذه الأمواج المتلاطمة » .

فالطفل لا يدرك بدء نشأته إلا جمال الأشياء الصغيرة التى تلائم سنه، كالأزهار فى لطفها ورونقها، وكبعض الحيوانات الصغيرة التى أفاض عليها الخالق سبحانه وتعالى من الجمال ما يسترعى الأبصار ويأخذ بالألباب ، مثل الفراش (أبو دقيق)، وبعض أنواع الجراد المزدانة بالألوان المبهجة (فرس النبى) .

وقد علق (هربرت سبنسر) أهمية كبيرة على السير بمقتضى تلك القاعدة فى تربية النابتة حيث قال : « إن من لم يشتغل فى صغره بجمع أنواع النبات وصنوف الحشرات ، لا يمكنه أن يدرك فى كبره ما تنطوى عليه البساتين والحدائق من لآلئ الأشعار وخفايا الأسرار » .

قال ذلك عن خبرة وتجربة، لأنه كان مولعاً فى صغره بجمع النباتات المختلفة والحشرات المنوعة ، وفى الحقيقة إذا كانت الحكمة الجيدة والقدوة الحسنة من القول والفعل تبعث فى النفوس الميل إلى الفضائل والتحلى بها ، فكذلك رؤية الجميل تربى فى النفوس رقة الشعور وسلامه الذوق.

ولذلك قال علماء التربية الحديثة : يجب بناء المدارس فى الحقول والمروج الخضراء حتى يتسنى للتلاميذ أن يجاوروا الطبيعة ، فلا يقع نظرهم إلا على الجميل من الأشياء .

ومن أهم العوامل الموصلة إلى هذا الغرض : دراسة العلوم الطبيعية بأنواعها ، وإعطاؤها وقتاً واسعاً من برامج الدراسة ، كما فعل

الأمريكيون فى مدارسهم ، فإنهم فضلا عن إحلال هذه العلوم المحل اللائق بها ، لاتكاد تطلع على مجلة بيداجوجية من مجلاتهم ، إلا وترى بين مباحثها بحثاً - على الأقل - مختصاً بالنبات أو الحيوان ، موضحاً بالرسوم ومحلى بالنقوش .

ولقدغالى الأمريكيون فى طرق تحبيب النبات والحيوان إلى التلاميذ فأضافوا إلى أيام المسامحات يومين أحدهما يوم عيد الأشجار والآخر يوم عيد الطيور ؛ ولا شك فى أن الاحتفال بهذه الأشياء فى كل سنة ، ينقش احترامها وحبها فى نفوس النابتة .

ورب معترض يقول : أبلغت بساطة عقول الأمريكيين إلى حد أنهم يحتفلون رسمياً وسنوياً بالنبات والحيوان ؟ فرداً على هذا الاعتراض أقتطف العبارة الآتية لكاتب فرنسى كبير . وردت ضمن حديث له على النبات ، قال :

« أليس من الفضيلة أيضاً أن نحب الأشجار التى نأخذ منها الأخشاب والثمار ، والتى تلطف الريح الهاجمة على قرانا ، وتوقف الرمال الزاحفة على سهولنا ، وتخفف من قوة اندفاع السيول نحو بيوتنا ؟ ! أليست هى التى تنقى الهواء الذى نستنشقه، وتكسب الجو رطوبة لذيذة مقبولة؟ أليست هى حلية الطرق وزينة الآفاق ؟ ألا إن من أحب الشجر فقد أحب الوطن»

وأنا أقول: «حيث حب الوطن من الإيمان كان حب الشجر من الإيمان

أما العلم الاجتماعى فينقسم إلى ثلاثة أنواع أيضاً :

(١) إدراك واجبات الفرد نحو أخيه (٢) إدراك واجبات الفرد نحو الهيئة الاجتماعية (٣) إدراك واجبات الفرد نحو خالقه.

وهربرت يحتم تعليم هذه الأنواع الستة فى كل مدرسة ، لافرق بين ابتدائية وعالية ، ويرمى بقصر الفكر كل من أهمل واحداً منها.

يقول « إن الرجل الذى يشتغل بالعبادة فحسب حتى بلغ درجة الزهد ،يكون من أقسى الناس قلباً،وما ذاك إلا لأنه أفرط فى معرفة واجبه نحو ربه ، وفرّط فى معرفة واجبه نحو أخيه ».

ويقول هربرت «إنى أريد أن أكون عقولاً ترى من جميع نواحيها، حتى يقل النفور بين الناس ، ويعيشوا أسرة واحدة أو جسماً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء».

وهربرت يخالف رأى (فشت) فى الغرض من التربية: فبينما يقول (فشت) إن الغرض منها تكوين وطنى عارف بواجبات الوطن إذ بهربرت يقول: إنى أقصد منها إلى تكوين إنسان عارف بحقوق الإنسانية.

وإذا كانت قيمة المفكر تقدر بعدد المؤلفات التى يكتبها عنه خصومه أو أنصاره،فلا شك فى أن هربرت يصبح فى منزلة لاتدانيها منزلة ، لأن مجموع ما كتب عنه مابين كتاب ورسالة يربى على الألفين عداً.

قال بعض مترجمى كتبه إلى الانكليزية : يوجد اليوم نحو عشر مجلات قصرت أبحاثها على نشر مذهبه،وكل الكتاب فى هذه المجلات من الفلاسفة وكبار علماء النفس وفن التربية ،وغاية أكثرهم تقريب

مذهبه إلى الأذهان ؛ وقليل منهم أولئك الذين يناقضونه ويصححون ماعساه يكون قد وقع له من الخطأ .

وإذا كانت أفكار هربرت قد أدت إلى حركة عجيبة في الفلسفة العامة، فقد كان أثرها في ميدان التربية جليلاً يرجى له الدوام والاستمرار . وبالإجمال يقال إن هذا الفيلسوف أضحى في بلاد العالم بطل التربية العصرية وإمام المربين .

ولم ينتشر مذهب هربرت في ألمانيا إلا بعد موته بثلاثين سنة ؛ ولكن بمجرد أن وعوه وقدروه قدره، عملوا على إذاعته ونشره بحيث أصبحت المدارس السويسرية والألمانية التي يتبع معلموها خطته في التعليم تعد بالآلاف ؛ وقد عقد في ألمانيا سنة ١٨٨١ مؤتمر للبحث في شئون التعليم الابتدائي فوضع نظار المدارس الابتدائية ؛ السؤال الآتي :

هل ينبغي أن تقوم التربية في مدارس المعلمين على طريقة هربرت؟ فأجمع الكل على الجواب بالإيجاب .

وفي سنة ١٨٨٣ عقد مؤتمر آخر لنظار المدارس الثانوية دار البحث فيه على الموضوع الآتي :

ما هو الحد الذي ينتهي إليه العمل بطريقة هربرت في المدارس الثانوية ؟ فكان قرار المؤتمر الموافقة على طريقته في المدارس الثانوية أيضاً دون تعديل فيها ولا استثناء شيء من آرائه .

أثر نظام الكشافة
فى التربية والتعليم *

ألقى « السر روبرت بادن پاول » مؤسس فرق الكشافة فى العالم ومديرها العام ، خطبة استرعت الأسماع ، واستهوت الأذهان ، أمام مؤتمر التربية الخلقية الدولى ، الذى عقد صيف العام الماضى بمدينة جنيف من أعمال سويسرا ، موضوعها « بناء صرح التربية على الرغبة بدل الرهبة » ، استهلها بقوله : إنه رأى فى معبد شرقى إلها ذا ثلاثة رءوس : الأول للحب ، والثانى للبغض ، والثالث للسلم ، فسأل عن أعرفها للناس وأكثرها عباداً ؟ فقيل له : إن معظم القرابين والنذر تقدم إلى إله البغض ، لا حباً فيه ، ولكن اتقاء له وزلفى إليه ليدفع عنهم كيد الكائدين وحقد الحاقدين ، ثم قال : يظن الإنسان ـ لأول وهلة ـ أن هؤلاء الناس أغبياء سخاف العقول ، لخضوعهم إلى هذا الحد لسلطان الخوف ، ولكنه إذا فكر قليلاً رأى أن الخوف يحتكم سلطانه فى هذا العالم وتدير سطوته دولاب أعماله .

ألسنا للمحافظة على السلم نستعد للحرب خوفاً من هجوم العدو ؟ ألسنا نخطب ونعظ لنشر السلام فى العالم خشية هول الحرب ومصائبها ؟ أليست حكومات العالم الراقية تعمد إلى تمثيل جميع الطبقات فيها خوف إغضاب فئة خاصة وقيامها بتشريع خاص ؟ أليس مايسمونه نظاماً

---

* نشرت بصحيفة المعلمين : السنة الأولى ـ العدد الأول ـ فبراير سنة ١٩٢٣ بعد عودة الأستاذ من مؤتمر التربية الخلقية الدولى المنعقد بجنيف عام ١٩٢٢ وقد كان مندوباً عن الحكومة المصرية فيه .

فى الجيوش البرية والبحرية : قائماً فى الغالب على رهبة العقاب والخوف منـه ؟ أليس التخويف سلاحاً فى يد الأقوياء يرهبة به الضعفاء ويذلونهم؟أليست عبارات التهديد والتخويف لا تزال متداولة حتى اليوم لصيانة حقوق الأمم واحترامها ؟أليس الخوف ديناًيدين به الكثيرون منا ، فلايعبدون الله ولا يؤمنون به ، لأنه يحب لذاته ويعبد لوجهه ، بل لأنهم يخافون عقابه ، ويخشون عذابه ؟ [1] ألسنا نسلك كثيراً سبل الخير والفضيلة ، ونترك طرق الشر والرذيلة خوفاً من النتائج القانونية أو الوجدانية إذا ظهرت أغلاطنا ، واتضحت مساوينا ، لاحباً فى الخير وبغضاً للشر كما كان ينبغى ويلزم ؟ أليس الخوف من الفقر ، هو الدافع بالانسان لأن يسعى ويعمل ليكسب المال ويحصل عليه ؟ . . . أليس . . أليس . . . . ثم قال :

« إننا مادمنا على هذه الحال ،ومادام الخوف ـ لاالواجب ـ مستحوذاً على نفوسنا فى جميع الأعمال ، فلن نستطيع تغيير البيئة غير الصالحة التى نعيش فيها ، لأن الإنسان لا يستطيع تغيير حاله الاجتماعية ، إلا إذا غير أحواله النفسية وأطواره الخلقية »

وكأنى به يقول « إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

فإذا أردنا أن نمنع الحرب ، وجب أن نستأصل سببها،وليس لها من سبب سوى الخوف الكامن فى القلوب،أما نزع السلاح وحذف الجيوش

---

(١) يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه، يصف تقوى صهيب وورعه : « نعم العبد صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه »

فلا يجدى فى ذلك شيئاً ، لأنه يغلب أن يكون نتيجة لها لا سبباً ، كما أن حذف رجال الشرطة لا يمنع ارتكاب الجرائم .

ولما كان المعلم وحده هو القابض على قلوب النشء ، المتسلط على نفوسهم ، فإنه ـ لا غيره ـ هو الذى يستطيع أن يستأصل منها بذور الطمع وغرائز الشر والتعدى على الضعيف ، كما يولد الألفة والمحبة بين أفراد الأمم المختلفة والشعوب المتباينة ، فيتضافرون ويتضامنون على مافيه خيرهم وفلاحهم ، وبذلك يتحسن مستقبل الانسانية ويسير الناس جنباً لجنب تحت راية الوفاق والوئام .

نعم إن الحروب ـ على ماجرت على الانسانية من عذاب وشقاء ، وقادت إلى خراب وفقر وأمراض ـ قد أحيت فى النفوس البشرية صفات الرجولة الصحيحة ، كالنخوة والمروءة والتجلد والنظام والشجاعة والبطولة واحتقار الملاذ وتضحية النفس ، وتلك صفات ماسرت فى أفراد أمة إلا رفعتها إلى عنان السماء ، ولا تجردت منها أمة إلا رشحت نفسها للفناء ، فكان حقاً على الأمم التى تطمع فى الحياة السعيدة ، أن تحتفظ بتلك الصفات الأدبيـة الجليلة ، التى لا تكسب إلا من طريق التربية العسكرية .

ولـكن كم تـكون تلك الصفات أسمى وأكمل إذا بنيت على أساس الحب والرغبة ، لا الخوف والرهبـة . ومن ذا الذى يسوى بين نظامين ، ضرب أحدهما على الناس قسراً وقهراً ، وقام الآخر على خالص الحرية ومحض الاختيار ؟ ثم قال :

كان طبيعياً بعد هذا كله أن يكون نظام فرق الكشافة القائم على محض الحب والرغبة لألفى ألف من الشباب : بنين وبنات من شتى البلدان ومختلف الأديان ، هو النظام الذى يكفل بقاء تلك الصفات الحربية ، وتنميتها فى قلوب المعتصمين به ، موجهة إلى خير الأمم وإسعادها لا إلى إشقائها وتعذيبها ،إلى أن قال فى الختام :

ألا يمكننا أن نحل هذا النظام البديع المحبوب محل هذه النظم المروعة العنيفة فى كل ما نزاول من الأعمال . . . . ؟ !

تلك هى أقواله ، وإنى لأرى قبل مغادرتها إلى أصل الموضوع ، أن ألفت نظر حضرات القراء إلى كلمة رأيتها منقوشة على قاعدة تمثال المفكر السويسرى « الكسندر فينى » بلوزان فى الصيف الماضى ، لم أجد أبلغ منها ولا أحكم فى التعبير عن كل ما تقدم من تفصيل، وهى:

«يجب أن يكون الإنسان حراً مختاراً ليستطيع أن يقدم للإنسانية خدمة تذكر فتشكر »

فإذا كان (السر بادن پاول) يرى أن إحلال الحب محل الخوف فى جميع الأعمال أمر واجب لازم ، كان فى التربية والتعليم بنوع خاص أوجب وألزم ، إذ أن الحب من أسمى الميول وأنبل العواطف التى أودعها الله سبحانه وتعالى قلب الطفل ، ومن آثارها نفوره من هذا وتعلقه بذاك ، وإلفه درس الأستاذ الذى يحبه إلفاً هو أساس انتفاعه بعلمه وزيادة الرغبة فيه .

لقد أنحى المربى الانجليزى الشهير « توماس أرنولد » من نحو ثمانين عاماً باللائمة الشديدة على هؤلاء المربين المستبدين الذين يرهقون التلاميذ ، ويريدون أن يقبضوا عليهم بيد من حديد ؛ لأن ذلك - علاوة على أنه ينفرهم من المعلمين ويزهدهم فى العلم - يضرب عليهم الذلة والمسكنة ، وما كانت التربية الصحيحة لتخرج عبيداً ضعافاً أذلاء ، بل سادة أحراراً كبار النفوس ، يتمتعون بالرأى والحرية التامة فى كل مايعرض عليهم من الأعمال .

فلندع الأطفال ينفردوا بأنفسهم . ويختلوا بما حولهم ، ولنمنحهم نصيباً صالحاً من الأعمال المدرسية الإدارية ، ولنمكنهم بِقَدر ما من الحكم فيما بينهم ليتعرفوا معنى السلطة ، وليذوقوا طعم الإمارة ، وليشعروا من بدء نشأتهم بالتبعة التى هى دائماً قرينة الرئاسة ولازمتها .

إن قانون تقسيم العمل ، وتنوع الأعمال وتشعبها ، واتساع دوائر الاختصاص فيها فى الأزمنة الحديثة ، أصبح يتطلب عدداً عظيماً من الرؤساء المهذبين المدربين ؛ وأنى لنا ذلك التهذيب وهذا التدريب إذا لم تعن المدرسة بإشراكهم معها فى كثير من أعمالها المختلفة ليدرجوا على واجبات الرئاسة ، ويمرنوا أساليبها من حداثة أسنانهم .

ألقى المسيو برتييه ناظر إحدى مدارس مدينة ستراسبورج خطبة شائقة أمام المؤتمر هذا العام ، موضوعها : « كيفية إعداد الرؤساء » ، بدأها بتعريف الرئيس فقال :

«الرئيس رجل يدير شئون غيره ، ويملك قيادهم ،لأنه تعلم كيف يدير شئون نفسه ويملك قيادها».

Le chef est un homme qui drige et domine farce q,uil sail se diriger eui- mème et se dominer

ومن جليل ماقال :« إنه لا شيء يسمو بالأطفال إلى مستوى الأخلاق العالية ، وينقلهم بسرعة عجيبة من طور نزق الشباب إلى طور رصانة الشيخوخة ، مثل الثقة بهم وتشريفهم بشيء من المسئولية بين أقرانهم» ، إلى أن قال:

« ولقد خطت مدرستي في هذه السبيل خطوات واسعة ، جعلتني في غنى عن الضباط والملاحظين،إذ عهدت بأمر النظام والنظافة والترتيب وغيرها إلى لجنة من كبار التلاميذ وعقلائهم ، وقد قاموا بها تحت إشرافي خير قيام» . اهـ

وإن في انتشار هذا النوع الجديد من المدارس في أمريكا وانجلترا وفرنسا ، لبرهاناً ساطعاً على ما له من المزايا الجمة والفوائد الجليلة .

ولقد قرأت منذ سنين أن لورداً انجليزياً غنياً،أراد أن ينشيء مدرسة من غير معلمين،فأعدلها المكان وجهزها بالأثاث والأدوات، ثم أغلق على التلاميذ الباب وتركهم وشأنهم لينظموا أمورهم ، ويتعلموا من تلقاء أنفسهم بالمخالطة والمراس. غير أن تلك المدرسة قد فشلت،ولم يك بالغريب فشلها . فكل مازاد على حده انقلب إلى ضده،إذ لاغنى للمتعلم عن المعلم، والمسترشد عن المرشد،وإغاضربتها مثلاً_ وإن لم تنجح_لما تدل عليه من إغراق هؤلاء في ضرورة إطلاق الحرية للمتعلمين،والثقة بهم إلى حد بعيد .

مؤتمر التربية الخلقية

مؤتمر التربية الخلقية*

قد رأيت أن آتى بعد ما تقدم على وصف هذا المؤتمر ليقف منه القراء على أهم ما دار من البحوث العلمية بين أعاظم العلماء وكبار المربين في موضوع ذى بال هو موضوع «التربية الخلقية فى الأمم» .

وقد ظهر اليوم للباحثين فى أمرها أن المربين ـ على عظيم أقدارهم وحسن نياتهم ـ ساروا فى طريق تلقينها النشء على غير الجادة ، فجاءت نتائج جهودهم على غير ما كانوا يتوخون ، إذ التربية الخلقية موجهة أولاً وبالذات إلى غرس بذور الألفة والمحبة بين جميع الأمم والشعوب ، ليتعارفوا ويتعاونوا على ما فيه خيرهم وفلاحهم ؛ ولكنهم لم يروا لتعاليمهم إلى اليوم ـ من نتيجة سوى تزايد البغضاء والشحناء بين الأفراد والأمم ، حتى لقد أصبح الناس فى كل مكان يتقاتلون ويتناحرون لأوهي الأسباب وأيسر العلل .

فكان الغرض الذى يرمى إليه هذا المؤتمر إصلاح حال التربية الخلقية فى الأمم بإصلاح حال التعليم فيها ، ولا سيما علم التاريخ الذى هو من أهم المواد التى تبصّر الناشىء بحال بلاده ، وتخلق فيه روح الوطنية الصحيحة ، بما تعرضه عليه من المثُل الخالدة والصور المجيدة ، صور أسلافه وأجداده وبنى وطنه ، الذين كانت لهم يد فى بناء المملكة التى يتنسم هواءها ، ويشرب ماءها ، ويمرح فى خيرها .

---

*نشرت بصحيفة المعلمين ـ العدد الثانى من السنة الأولى ـ ٢ ابريل سنة ١٩٢٣ ، وهى متممة للمقالة السابقة .

غير أن المربين لم يهتدوا إلى سواء السبيل فى طريقة تدريس هذا العلم وتلقينه النشء ، إذ قصروا جل همهم على تدريس تاريخ بلادهم الخاص دون التاريخ العام ، وحتى فى هذا لم يعنوا إلا بشرح الاختلافات السياسية والحروب الدموية التى نشبت بين أمتهم والأمم الأخرى ، مما غرس فى نفوس النشء البغضاء والكراهية لتلك الأمم ؛ كل هذا والمربون يظنون - عن حسن قصد - أن هذه هى الطريقة المثلى لإيقاظ الشعور الوطنى وحب الوطن فى نفوس تلاميذهم ، ولكنها - وهذا مما يؤسف له - أوصلت إلى نتيجة محزنة سيئة ولدت عقلية غريبة فى الأمم ، كان من أثرها أن رسخ فى أذهان الشبان فى كل بلد ، أن الاختلافات السياسية والغارات الدموية من ضرورات الحياة ومستلزماتها ، وأن وطنهم لا يمكنه أن يعيش ويرقى إلا بتعارضه مع الأمم الأخرى ومحاربتها .

من هذا نشأت الكارثة العظمى الأخيرة التى كادت تقضى على المدنية والحضارة ، مع أن فى دراسة علم التاريخ عبراً وعظات أسمى وأرقى من تلك الاختلافات والمشاحنات ، وهى الجهود العظيمة التى تبذلها الإنسانية فى سبيل الرقى العلمى والخلقى والاجتماعى والسياسى ، فبدل أن يعد الناس بعضهم لبعض من الأسلحة : الحديد والنار والغازات الخانقة ، كان الأليق بكرامتهم أن يعدوا أسلحة الفكر النبيلة ، وهى التضامن النافع والمزاحمة السلمية الشريفة لخير الأمم والإنسانية .

لم يعد بعد غريباً أن يفكر المربون فى التنكب عن هذه الطريقة

العقيمة والبحث وراء أنجع الطرق لتدريس علم التاريخ وتلقينه بكيفية تغرس فى قلوب الشبان المحبة والمودة بدل البغضاء والكراهية .

فتح المؤتمر جلسته الأولى يوم ٢٧ اغسطس ١٩٢٢ فى مدرج الجامعة بمدينة جنيف ، وكان عدد الحاضرين يربى على خمسمائة عضو يتقدمهم المندوبون الرسميون للحكومات الراقية ، وقد وضعت هذه الجلسة تحت رياسة مدير المعارف السويسرية « مسيو جول موسار » الذى أعلن افتتاح المؤتمر بكلمة لطيفة ، استهلها بشرح الفوائد الجمة والمزايا الجليلة التى تعود على الإنسانية من تقوية أواصر التضامن وتوثيق عرى التعاون بين علماء الأمم المتحضرة ، وهنأ أعضاء لجنة المؤتمر التنفيذية إذ وضعت فى رأس برنامجها تعليم التاريخ ، وأبان مزاياه العظيمة للأمم ، ومن جليل ماقال :

« إن فى قدرة علم التاريخ ، أن يقوم عقل أمة بأسرها أو يشوهه تبعاً لطريقة تدريسه وتلقينه .

« وإنى مع احترامى عقيدة حب الوطن ، وإحلالى إياه المحل الأرفع فى التربية ، أرى أنه يجب أن يجرد من الغلو والهوس ، وأن عاطفة الوطنية التى يجب أن تتغلغل فى كل نفس ، وتنقش على صفحات كل قلب ، ينبغى أن تتمم وتتوج بعاطفة احترام الأوطان الأخرى ، لينتشر السلام ويسود الوئام بين الناس فى كل مكان » اهـ .

ثم خلفه (السر فردريك بلوك) رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر ، ولخص ماقامت به تلك اللجنة من الأعمال فى المؤتمرات السابقة ثم قال :

« إنى متفائل خيراً بالمستقبل، وإنى آمل أن الإنسانية التى نجحت فى تقييد الرق أولاً وإلغائه ثانياً ، تسلك هـذا المسلك بعينه فى أمر الحرب ، فتقيدها أولاً ، ثم تتخلص من ظلها الثقيل وشبحها المخيف ثانياً » ، وجلس بين التصفيق والتهليل ، ثم قام بعدهما المربى الألمانى فورستر ، وكان موضوع خطبته « قيمة التاريخ وأثره فى التربية الخلقية والاجتماعية ».

بدأ فعرف عاطفة الوطنية بأنها رابطة روحية أدبية ، يجب أن تبنى على أساس التسامح والتساهل بين الناس، ثم قال :

« إننا بدعوتنا إلى التضامن الدولى العام ، لا نرمى إلى محو فكرة الوطن والوطنية ، بل نريد أن نقيم الدليل على أن عواطف الوطنيـة فى الأمم المختلفة ليست بالأصول المتعاكسة والمبادىء المتباينة المتشاكسة ، وإنما يكمل بعضها البعض .

«إن لكل فرد ولكل شعب أن يبقى صحيحاً قوياً كما هو ، وأن يبذل قصاراه فى المحافظة على شخصيته وقوميته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ولكن عليه فى الوقت نفسه أن يبذل ما فى وسعه لتفهم عاطفة الوطنية فى الأمم الأخرى ؛ فعليه ـ كما يقول بالحرف ـ أن يدخل فى نفسه ، ويخرج عنها فى آن واحد، فى ذلك رياضة نفسانية مزدوجة لكل عقل مستنير يدرك معنى الإنسانية حق إدراكها .

«إن التربية الوطنية القومية ، والتربية العالمية الاجتماعيـة إذا

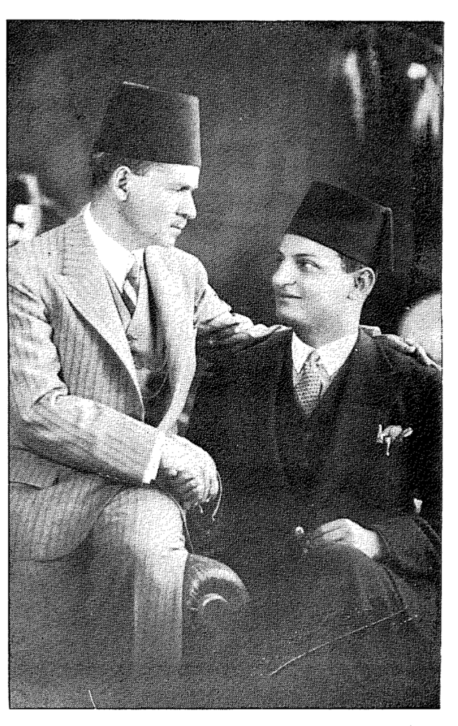
امتزجتا واتحدتا حدثت من مزيجهما أخلاق وآداب اجتماعية تقف سداً منيعاً فى طريق المطامع الشخصية الأشعبية ، وتصد الأنانية القومية عن أن تطأ بقدميها حقوق الأمم الأخرى .

« وإن فى استطاعة علم التاريخ - إذا درس كما يجب أن يدرس - أن يؤثر تأثيراً ذا بال فى قلوب الناشئين من هذه الوجهة، فهو الوقاية الوحيدة التى تقيهم شر تلك الجراثيم المعنوية المتصاعدة بلا انقطاع، من تمثيل الكذب والقوة الغشوم على مسرح التاريخ العام .

« ألا إن المربى الحقيقى لهو الذى يفهم تلاميذه أن الغايات لا تبرر الوسائل ، وأن الوسائل - فى أغلب الأحيان - أهم كثيراً من المقاصد ؛ إذ هى نسيج أفكارنا وأعمالنا ، وهو الذى يعلمهم أن الغايات الرفيعة الشريفة يجب ألا تنال أبداً بالوسائل المنحطة الدنيئة .

«ولا شىء ينفذ إلى قلوب النشء ، وينمى فيهم الأخلاق العالية ، والفضائل السامية ، مثل أن يعدل المربى فى حكمه على حوادث بلاده وتاريخ كبار رجال أمته، وأن يجهر بالحقائق ممحصة مجردة من شوائب الهوى وأدناس الغرض ؛ فبذلك وحده تنبت بذور الأنظمة الدولية وتنمو جذورها فى حياة الأمم وأفكارها، وبذلك - لا بغيره - نستطيع أن نخرج سالمين من مأزق السياسة الحمقاء الحالية، ونبرأ من داء الانحلال الذى سرى فى عروق أوربا الآن » اهـ

تلك هى أبلغ الأقوال وأحكم الآراء التى فاه بها كبار العلماء والمربين فى جلسات المؤتمر الكلية .



الأستاذ « العمروسى بك » يصافح الأستاذ « الاسلامبولى »
شاكراً له حسن عنايته بهذا الكتاب

كلمة شكر

ولدى البار وصديقى المفضال الأستاذ عبد العزيز الإسلامبولى

تحية وسلاماً وبعد، فإنى أشكركم من صميم فؤادى على الفكرة القيمة التى دعتكم إلى جمع محاضراتى ورسائلى عن التربية والتعليم فى سفر واحد ضم أطرافها وجمع شتيتها .

ومما انشرح له صدرى وامتلأت به نفسى غبطة وسروراً ، أن تلك المجموعة التى كان لك فضل نظمها فى عقد واحد ، هى خير معبر عما بينى وبين التربية والتعليم من صلة، وأصدق صورة لما استقر بنفسي - تلك المدة الطويلة التى قضيتها عاملا فى هذه المهنة النبيلة - عن فلسفة التربية وآراء كبار المربين.

كما أنها من ناحية أخرى دليل حسى على أن فى مكنة القائمين بهذه المهنة - وإن كانت شاقة تستنفد الجهد وتبلغ مدى الصبر - أن يرفهوا عن أنفسهم بالخروج عن دائرة عملهم اليومى إلى ميادين الأفكار الحديثة والآراء الجديدة خروجاً ينهض بهم ويرقى من عملهم ؛ ويجعل المجتمع لا يزال يتلقى على أيديهم ما يشد أزره ويسير به إلى الأمام قُدُماً ؛ فما هذه المحاضرات وما تلك الرسائل التى حفزكم نهوضكم إلى نشرها اليوم فى هذه الصورة الطلية الشائقة، إلا ثمرة من ثمرات استغلالى أوقات فراغى.

لهذا تجدنى أيها الصديق العزيز عاجزاً عن إيفائكم ما تستحقون من شكر، أركن فى تصويره إلى هذه الصورة الشمسية الناطقة ، فهى خير معبر عما أكنه لكم من تقدير ، وأحفظه لكم من جميل ، والسلام ؟

القاهرة فى { ٤ صفر سنة ١٣٥٢ هـ
٢٨ مايو سنة ١٩٣٣ م }

أحمد فهمى العمروسى

